شعر الجهاد

في عصر الحروب الصليبية

دكتور

طلعت صبح السيد

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

مطبعة ومكتبة الرضا بطلخا ت ٢٢٦٥٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى القارىء العربي ، الذى أعتز بما بينى وبينه ، وإلى كل من تفضل بمد يد المساعدة فى هذا العمل بشكل أو بآخر ، وإلى كل من أفسح لى مجال الدراسة والبحث .

إلى كل هؤلاء أهدى هذه الدراسة المتواضعة ، آملا أن أكون قد قدمت للقارىء العربي الإسلامى بعض مايستطيع أن يتذكر به ماضيه ، وأن تبقى آثار هذا الكفاح العربي المجيد تتردد فى جنبات العالم الإسلامى ، وتتناقل الأجيال أنباءه فى اعتزاز ، وأن نقف دوما على تراثنا العريق فى طريقنا إلى بناء مستقبل أمتنا الإسلامية .

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل ؟

المؤلف

المقدمة

« المقـــدمة »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعـــد :

فهـذا مؤلف بعنوان « شعر الجهـــاد فى عصر الحروب الصليبية » وهو موضوع يتناول شعر الجهـاد ، ذلك الشعر الذى يصف أمجـاد المسلمين وبأس أبطالهم فى حومات الوغى وزحمات النزال ، وبلاءهم فى حروبهم مع الصليبيين وتحملهم لما لا يطاق من الشدائد والمشقات .

وليس ينكر أحد أن شعر الجهاد يعد على رأس الموضوعات الشعرية التى تتصل بعصر الحروب الصليبية اتصالا مباشرا ، فهو نتـاج طبيعى للعصـــر وصراعاته ، وقد عنى بتسجيل الصراعات والمعارك الكبرى ، ونقل لنا صورة لمـا كان فى العصر من جهاد وبطولات قد لا نجد لهـا أثرا فى كتب التاريخ والسير .

ومن معـالم هذا الشعر أنه لم يقف عند حد تسجيل المعارك الكبرى ، بل وأيناه يرصد أحداثها ويتحدث عن تاريخها ، إلى درجة تجعلنا نقول إنه أصبح سجلا يرصد خطوات هـذا الحروب ويصور الصراع بين الإسلام والصليبية ، وصار من المستطاع اتخاذ هذا الشعر مفسرا لأحداث التاريخ فقد اتخذ حقائقه ميدانا جال فيه فسجلهـا وسجل شعور الناس بها .

وقد بدأت الحروب الصليبية عام ثمـان وثمـانين وأربعمائة للهجرة يوم أن وضع الصليبيون أرجلهم بأرض الشام يريدون الاستيلاء عليه ، ويتطلعون إلى فتح المقدس واستمرت تلك الحروب لمدة قرنين من الزمان « ٤٩٠ - ٦٩٠ هـ »

على حد قول أكثر المؤرخين . والواقع أن هذه الحروب قد تركت آثارا هامة على حياة المسلمين بصفة عامة وعلى الأدب العربي بصفة خاصة .

وثمة حقيقة هامة لاسبيل إلى إنكارها عند دراسة شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية ، تلك أن العرب قد عرفوا الحروب فى الجاهلية والإسلام وقد عرفوا الكفاح والنضال حين هاجم الروم بلاد المسلمين فى صدر الإسلام بل إن غزو المسلمين لبلاد الروم ، أو غزو الروم للمسلمين لم ينقطع فى عصر من العصور منذ أن تاخمت بلاد الإسلام بلاد الروم .

وثمة حقيقة أخرى لابد من الإشارة إليها وهى أن الآثار التى تركتها الحروب الصليبية فى الأدب العربى قد قامت على أساس من الأدب العربى الموروث ، بمعنى أننا نجد لمظاهرها مشابها فى الأدب العربى الذى كان قبل عصر الحروب الصليبية ، وأن أسس هذه المظاهر متأصلة فى الأدب العربى .

ومع ذلك فيمكننا أن نقول إن الحروب الصليبية تمتاز بأنها ذات مظهر دينى طبعها بطابع خاص ، وجعل الصراع فيها لاصراعا بين فريقين ولكن بين عقيدتين ، هذا بالاضافة إلى أن الإسلام كان قويا فى عصوره الأولى ، فكان يصمد ويدفع العدوان ، بل ويتوغل فى أرض المعتدين وذلك كما حدث فى عهد الدولة العباسية ، أما فى عهد الحروب الصليبية فقد حطم الغزاة قوى المسلمين واحدة تلو واحدة ، وطمعوا فى أن يستولوا على كل البقاع الإسلامية وذلك إلى جانب ضخامة الجيوش التى استخدمت فى هذه الحروب ، وما صحبها من جانب الفرنج من قسوة وتدمير لبلاد المسلمين .

والحق إنه كان لشعر الجهاد دور قيادى فى التصدى لموجات الزحف

الصليبى كما كان له دور قيادى كذلك فى الحفاظ على تراث العرب والمسلمين . وسأحاول فى هذه الدراسة أن أبرز هذا الدور ، وأن أقف القارىء على تراث أمتنا وصورة من صور كفاحنا حتى يمكن أن نصل حاضرنا بماضينا ومستقبلنا من جهة ، وحتى نستطيع أن نرسم أمام أبنائنا الطريق من جهة أخرى ، فيتخذون من هذا الدور نبراسا يكشف لهم عن ماضينا ، ويساعدهم على توجيه خطواتهم فى المستقبل ، وحتى يمكن أن نتلمس من كل تلك المقومات مايحصن أبناءنا ضد كل تلك السيول الجارفة من الأفكار الغريبة التى هى كفيلة بأن تعصف بكل من لايثبت أقدامه على قواعد متينة من الإيمان بماضينا وما لنا فيه من أمجاد وحضارات .

وإذا كان عصر الحروب الصليبية يمتاز بأنه عصر صحوة من القهر والضعف الذى فرضته ظروف التخلف السياسى والاجتماعى ؛ وكان عصر تصميم على درء الخطر ، وقد استطاع أجدادنا أن يقفوا فى وجه موجات التغلغل الصليبى وأن يحطموا جهوده على صخور صفهم الموحد ونضالهم المستميت ، فما أجدرنا اليوم بأن نربط بين ماضينا وحاضرنا ، ونقف وقفة الآباء والأجداد ، فنكون أشد إحساسا بالقوى الأجنبية التى تترصدنا ، والتى تتطلع لإزالة الكيان العربى الإسلامى وإذابته فى موجات من التغريب ، وأن نتمسك بأصول تراثنا ومقوماته الروحية والفكرية حتى لايضيع كياننا فى زحمة التيارات الغربية كما ضاع كيان كثير من الأمم .

والواقع أن عصر الحروب الصليبية يمثل إحياء للتراث العربى الإسلامى وحرصا على الذود عنهما ضد التيارات الفكرية الأجنبية ، كما يمثل استماتة فى

الدفاع عن ذماره ضد عوامل الضياع والقهر والضعف . وقد أدت أحداث هذا العصر - وعلى وجه الخصوص أحداث الحروب - إلى بروز شعر الجهاد كعامل أساسى وقوى أدى إلى تغيير مجريات أحداث تلك الحروب وأثر على حياة المسلمين وواقعهم . وجدير بنا أن نعرف أن هـذا الشعر قد واكب أحداث الحروب الصليبية ، وعاش أكثر مراحلها ، وقد حمل شعراء الجهاد على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهـاد ، ومقاومة المحتلين ، وتوحيد القوى الإسلامية لمقاومة الغزاة المحتلين ، وظل شعر هؤلاء الشعراء قويا مؤثرا حتى خروج الصليبيين نهائيا من بلاد المسلمين فى المشرق .

ويحاول هذا الكتاب أن يبرز هذا الدور الذى كان لشعر الجهاد لنرى كيف كان شعراء الجهاد يبذلون الجهود ، ويحرضون المسلمين على الجهاد وقتل الصليبيين كلما رأوا انصرافهم عن الحق ، أو تفرقهم فيما بينهم ، ومدى ما كان لقصائد هؤلاء الشعراء من أثر بارز فى إذكاء الحميـة فى نفوس المسلمين حتى استطاعوا فيما بعد تطهير بلادهم نهائيا من الصليبيين .

كما أن هذا الكتاب يمثل محاولة الربط بين شعراء العالم العربى الإسلامى فى هذا العصر بصفة عامة ، وبين شعراء الشام ومصر بصفة خاصة . وتبرز هـذه المحاولة كيف أن تيار الثقافة الإسلامية أخذ فى التحول إلى مصر والشام وكيف أخذ هذا التيار يزداد تحت ضغط الصليبيين حتى صارت العاصمتان ، القاهرة ودمشق ، تنفردان بالزعامة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية .

بقى أن أشير إلى أن هذا الموضوع الذى تصدينا لدراسته فى هذا الكتاب موضوع يجد الباحث فيه مشقة غير يسيرة ، لأن شعر هذا العصر لم تتوفر عليه

جهود الباحثين كشأن غيره من الموضوعات الأدبية ، إذ المعروف أنه ليس لكثير من الشعراء الموجودين فى هذا العصر دواوين شعرية ، الأمر الذى فرض على أن أجوب المراجع القديمة ، وأن أضرب فى أسفار اللغة والأدب كى أقدم للقارىء خلاصة لدراسة شعر الجهـــاد فى عصر من عصور الإفاقة العربية الإسلامية ، عصر سجل الأدب فيه أسماء أولئك الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب الصليبية ، وأبلوا فيها بلاء حسنا ، ووضعوا أساس النضـــال العربى المجيد ضد الصليبيين ، وخلدوا فى التاريخ أمجادا بطولية فى الكفاح ضد الغاصبين ، كفاحا مجده التاريخ والأدب ، وبقيت آثاره تتردد فى جنبات الشرق العربى ، وتتناقل الأجيال أنباءه فى فخر واعتزاز .

والحق أننى نظرت فى موضوع هذه الدراسة فوجدت أن نشأة شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية ارتبطت ارتباطا واضحا بالعصر ، وبالمبدعين الذين أبدعوه ، وبما أحاط بهم من ظروف وملابسات ، فإن كل إنتاج أدبى يصطبغ بالألوان التى تتيحها له البيئة ، وإن كل أديب يتأثر فى إبداعه الفنى أشد التأثر بالظروف والملابسات المحيطة ، وبالآراء والدعوات التى وجدت وجـــدت ويعبر بالتالى تعبيرا صادقا عن الواقع الذى يعيشه ، والأحداث التى توافدت على مجتمعه ، ويحاول إظهار شخصية هذه الفترة من الحقبة الزمنية فى أدبه .

لذا فإن تقسيمى للموضوع ارتبط هو الآخـــر بظروف العصر الصليبى ومؤثراته العامة ، ملتزما فى ذلك المنهج التاريخى والفنى فى آن واحـــد . فمن خلال هـذه الفترة الزمنية تتبعت الخصائص الفنية لشعر الجهاد بقصد فهمه ، وإدراك الآثار التى خلفها لنا شعراء العصر الصليبى ، ورد هـــذه الآثار إلى

وحدات مشتركة الطوابع متلاقية المميزات .

وجاء تقسيم هذه الدراسة عبارة عن أربعة فصول مسبوقة بمدخل تمهيدى وقد جعلت لكل فصل من الفصول موضوعا وعنوانا ، تندرج تحته وتلتف حوله أفكار وموضوعات جزئية تبلور فى مجموعها التخطيط العام للفصل :

وفى المدخل التمهيدى درست أسباب الحروب الصليبية ، وذكرت فكرة موجزة عن أحوال الشرق الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية ، وذلك لتكشف النقاب عن الملابسات والظروف التى سهلت للصليبيين القيام بحملاتهم وتحقيق أغراضهم . ثم ذكرت أهم أحداث الحروب الصليبية فى كل من الشام ومصر .

وفى قسم آخر من هذا المدخل التمهيدى وقفت عند الحديث عن أثر الغزو الصليبي فى نفوس العرب والمسلمين . إذ الواقع أن الغزو الصليبي قد أثر تأثيراً فعالا فى جميع مناحى الحياة تأثيراً انعكس بدوره على الحياة الفكرية والثقافية بصفة عامة وعلى الأدب بصفة خاصة ، وقد اتضحت هذه الملامح شيئا فشيئا فى محاولات الأدباء ، كتابا كانوا أم شعراء .

أما الفصل الأول فكان جديرا بأن يدرس بين دفتيه نهضة الشعر فى عصر الحروب الصليبية ، وذكرنا الأسباب والروافد التى جعلت الشعر ينهض فى ذلك العصر نهضة تساير نهضة العلم ، والتى أرجعناها إلى ما يأتى :

١ - الأحداث السياسية .

٢ - تشجيع الحكام للشعر والشعراء .

٣ - العناية بجمع الشعر ودراسته .

٤ ـ كثرة عدد الشعراء .

أما الفصل الثانى فقد تحدثت فيه عن الأغراض والفنون الشعرية التى لها علاقة بالجهاد فى عصر الحروب الصليبية ، وذكرت أن هذه الأغراض قد واكبت أحداث الحروب ، وعاشت أكثر مراحلها ، واستمرت مع كثرتها وتعددها قوية مؤثرة حتى خرج الصليبيون نهائيا من بلاد المسلمين .

وهذه هى أهم موضوعات شعر الجهاد التى ذكرناها :

١ ـ شعر الدعوة إلى الجهاد .

٢ ـ تصوير المعارك الحربية .

٣ ـ مدح أبطال الحروب الصليبية .

٤ ـ التأسف والتحسر على ما أصاب المسلمين .

٥ ـ الفخر والحماسة .

٦ ـ الرثاء .

٧ ـ الهجاء .

وقد حاولت أن التزم أثناء تحليلى للنصوص الشعرية بوجهة النظر الواقعية وحاولت أيضا أن أفسر النص الشعرى على ضوء الظروف والملابسات التاريخية وفى الوقت نفسه سعيت جهدى لأن أقف أمام عتبات النقد الأدبى لأسمو إلى عالم كل شاعر فى محاولة لتحليل قيمه وخصائصه الفنية .

ودرست فى الفصل الثالث الخصائص والسمات العامة التى يتسم بها شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية ، ولفت الأنظار إلى أن شعر الجهاد يتسم بطابع خاص يميزه عن غيره من الشعر لأن للشعراء شعورا خاصا تجاه ظروف

العصر وأحداثه ، ثم ذكرت تلك الخصائص التى تميز شعر هؤلاء الشعراء عن شعر من عداهم ممن سبقوهم أو عاصروهم ، وهى :

١ - الحماسة المتدفقة وحرارة العاطفة .

٢ - بروز روح الجهاد والقوة والمعانى الإسلامية .

٣ - تسجيل الأحداث الكبرى .

٤ - الصدق الفنى فى نقل التجربة .

٥ - خصائص عامة .

أما الفصل الرابع والأخير من الكتاب فقد خصصته للحديث عن الآثار البارزة التى تركتها الحروب الصليبية على الشعر ، واستعرضت فى هذا الفصل أثر هذه الحروب على الموضوعات الشعرية من ناحية وعلى أساليب الشعر من ناحية أخرى .

ورأيت أن من الآثار التى أحدثتها الحروب الصليبية على موضوعات الشعر :

١ - تشابه الشعر فى أرجاء العالم الإسلامى .

٢ - ظهور شعر الحث والتحريض .

٣ - ظهور الطابع الإسلامى فى الشعر .

٤ - ظهور فنى « رثاء المدن » و « هجاء المتخاذلين » .

وذكرت كذلك أن الحروب الصليبية كما تسببت فى اتجاه الشعراء إلى موضوعات لها علاقة بوجود الصليبيين ، تسببت أيضا فى إدخال بعض الألفاظ على لغة الشعر ، ودرست كذلك فى قسم آخر من هذا الفصل مذاهب شعراء العصر واتجاهاتهم الفنية وبينت أن أهم هذه الاتجاهات هى :

١ - اتجاه الصنعة والبديع .

٢ - الاتجاه التقليدى .

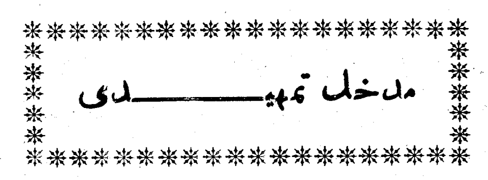
هذه هى دراستنا فى خطوطها العامة ، وقد أفدت فيها من كل ما كتب حول هذا الموضوع من قريب أو من بعيد ، سواء كان ذلك فى كتاب أو مجلة أو فى صحيفة ، وكانت مصادرى الأولى التى اعتمدت عليها هى الكتب التى أرخت أدبيا لعصر الحروب الصليبية ، وكذلك الكتب التى تعرضت لشعر الحرب بعامة ، وشعر الجهاد بصفة خاصة ، كما أفدت من الدراسات النقدية التى تناولت أدبنا القديم أو الحديث بالتحليل والتفسير .

وبعد فهذه محاولة أرجـــو أن تتبعها محاولات ، وآمل أن تفتح أبوابا أخرى جديدة ، وأن ينتفع بهـا طلاب العلم والمعرفة ، وأملى أن أكون قد وفقت فى بعض ما إليه قصدت ، والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل ؟

الدكتور

طلعت صبح السيد

المنصورة فى { ربيع أول ١٤١١ هـ
أكتوبر ١٩٩٠ م


مدخل تمهيـــــــدى

١ - أسباب الحـــروب الصليبية .

٢ - حالة الشرق الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية .

٣ - أثر الغزو الصليبى فى نفوس العرب والمسلمين .

١ - أسباب الحروب الصليبية

المراد بالحروب الصليبية هى تلك الحروب التى قامت بين المسلمين فى المشرق الإسلامى وبين الصليبيين القادمين من أوربا بقصد احتلال بيت المقـــدس وبلاد الشام ومصر ، والقضاء على الدولة الإسلامية من جهة ، ووقف الزحف والانتشار الإسلامى فى أوربا من جهـة أخرى . . . وهى حروب جمعت تحت راية الصليب جحافل جرارة .

والحروب الصليبية على حد قول أكثر الباحثين : « حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربى المسيحى فى العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجـــوم حربى استعمارى على بلاد المسلمين وبخاصة فى الشرق الأدنى بقصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر واتخذت من استغاثة المسيحيين فى الشرق ضـــد المسلمين شعارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق » (١) .

وقد اتفق معظم الباحثين والمؤرخين على أن الهدف من الغزوات الصليبية على بلاد المسلمين فى المشرق إنما هو الاستيلاء على بيت المقدس ، والوقوف فى وجه الزحف الإسلامى الذى كان يغزو العالم . ولعل هذا هو السبب الذى جعل

---

١) الحركة الصليبية ، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : ١ / ٢٦ الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م

هذه الغزوات تصطبغ بصبغة دينية وتكون حروبا دينية فى منطلقاتها (١)

وفى رأيى أن للحروب الصليبية أسبابا كثيرة . . على أن من أهم الأسباب التى حملت الصليبيين على غزو البلاد الإسلامية فى المشرق ما يلى :

أولا : الأسباب الدينية :

إن الأسباب الدينية هى الأسباب الأولى والأخيرة لذلك الحقد الصليبى وأن ماعدا هذه من أسباب أخرى مع صحتها إنما تتفرع وتتشعب عن الأسباب الدينية ، فالهدف الأساسى للصليبيين إنما هو "عداء للإسلام ومحاولة القضاء على المسلمين .

ويحدثنا التاريخ أن الحجاج الذين كانوا يفدون إلى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح والأماكن المقدسة كانوا يعاملون معاملة طيبة من الحكام المسلمين وحين حكم التركمان بيت المقدس أخذوا يعاملون هؤلاء الزوار معاملة قاسية ، الأمر الذى انعكس عليهم بالأثر السيء ، وتأثر أيضا البابا « إربان الثانى » حين أبلغ بهذه المعاملة السيئة ، لاسيما وأن من قاموا بتوصيل ذلك إليه قد صوروا له الأمر أكثر من حقيقته ، ولهذا أخذ يدعو إلى غزو بلاد المسلمين وضرورة احتلال بيت المقدس .

وحين تم اجتماع المجمع الدينى الكبير فى مؤتمر « كليرمونت » خطب البابا خطبة مشهورة زعم فيها أن المسلمين فى بيت المقدس قد أهانوا قبر المسيح ، واستغل البابا هذه الفرصة ، وكأنه يريد أن يغتنم ضعف المسلمين آنذاك فأخذ

---

(١) انظر الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، محمد العروسى المطوى ص ١٠ نشر دار الكتب الشرقية بتونس ، الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ

يحاول إيقاظ الشعور العدائي عند النصارى تجاه المسلمين، كما يتخذ من الأماكن المقدسة هدفا لدعوته (١) وقد حرض ألوف الفرسان من النصارى على حمل الصليب، واستعادة مقدسات المسيحيين في القدس وتحريرها من المسلمين. وقد غالى البابا في هجـــومه على المسلمين، وفي إثارة الأحقاد في نفوس الأوربيين ودعوتهم إلى غزو أراضي المسلمين، ومن ثم وعـــده جمهور كبير من جميع الطبقات أن يرحلوا إلى فلسطين (٢) وتتحقق من ثم رغبة البيزنطيين في كسر شوكة المسلمين واسترداد مصر والشام، والواقع أن البابوات والرهبان قد ركزوا في دعايتهم للحروب الصليبية على الجانب الديني، وكان لهم دور بارز في إلهاب حماس السذج في أوربا، واستنهاضهم لتحرير المقدسات من المسلمين هذا على الرغم من أن المسلمين لم يقفوا عقبة في وجه المسيحيين ولكنهم قد أتاحوا لهم حرية العبادة والزيارة.

ثانياً : الأسباب السياسية :

لم يكن الحافز الديني هو الدافع الأول والأخير وراء الغزو الصليبي، بل كانت هناك أسباب أخـــرى سياسية. إذ كان السلاجقة الأتراك يبسطون سلطانهم على بلاد الشام، وقد اضطر امبراطور الروم « الكسيوس » إلى دفع جزية للمسلمين، الأمر الذي جعل الإمبراطور يلجأ إلى البابا « إربان الثاني »

---

١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الدكتور أحمد شلبي ٥ / ٤٠٧. النهضة المصرية، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٧

٢) انظر تاريخ العرب « مطول » تأليف فيليب حتى وآخرين ٢/٧٥٢، ٧٥٣ مطابع الغندور. بيروت الطبعة الرابعة ١٩٦٥

يطلب منه المساعدة ، ويضطره لمحاربة الأتراك (١) .

ورغبة من البابا فى توحيد الكنيستين الغربية والشرقية تحت سيطرته نجده يستجيب لهذا الطلب ، وأخذ من ثم يدعـــو إلى الحروب الصليبية ضد المسلمين (٢) .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن الأوضاع الداخلية فى أوربا كانت غاية فى الاضطراب ، وكرد فعل لذلك كله حاول الأوربيون أن يتجمعوا تحت ظلال هدف واحد مشترك وهو محاربة المسلمين واحتلال بلادهم .

ثالثاً : الأسباب التجارية :

ولم تكن الأسباب التى مرت هى فقط الأسباب التى كانت من وراء هذا الغزو ، إذ الحقيقة أن ملوك أوربا كانوا يطمعون فى حضارة الإسلام وكنوز الأمة العربية ، فقد كانت أمة متقدمة غنية ، فآنسوا منها ضعفا وحاولوا أن يرثوا تلك الحضارة الزاهرة وذلك الغنى العريض .

وهناك أهداف وأطماع اقتصادية وتجارية تتصل بحب السيطرة والطمع فى التوسع ، وهى حرص تجار الغرب على إيجـــاد موانىء تجارية لهم فى بلاد الشرق على الساحل الشرقى والجنوبى للبحر الأبيض المتوسط كى يتم وصل أوربا عن طريق هذه الموانىء ببلاد المسلمين فى المشرق ، ولا يخفى أن العالم

---

١) انظر قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت ، وترجمة محمد بدران ٤ / ١١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، نشر جامعة الدول العربية ١٩٥٧

٢) انظر أثر المدينة الإسلامية فى الحضارة الغربية ، الدكتور / مختار القاضى صـ ١٧١ ، طبعة الأهرام ونشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٧٢

الإسلامي آنذاك كان ينعم بالرخاء والتقدم والعلم ، وكانت أوربا تعيش في فقر وجهل ومرض وغير ذلك . ومن ثم أخذ التجار بدورهم يبذلون أموالا طائلة لتشجيع الدعوة لتلك الحروب والتعجيل بقيامها .

يؤكد ذلك أن المحاربين الصليبيين حينما احتلوا مدينة دمياط في الحملة الصليبية الخامسة عرض عليهم الملك الكامل أن يعطيهم بيت المقدس ومعظم مدن فلسطين على أن يرحلوا عن دمياط وسائر المدن الساحلية في مصر لكنهم رفضوا هذا العرض الأمر الذي يؤكد وجود العنصر التجاري عند المحاربين(١)

رابعاً : أسباب أخرى :

ولعل الناظر المدقق في الدوافع التي كانت من وراء قيام الغزو الصليبي وبدء الحروب الصليبية يدرك أن هناك أسبابا أخرى غير تلك التي ذاعت وانتشرت ومن أهم هذه الأسباب أن كثيراً من هذه الجماعات التي تدفقت إلى الشرق الإسلامي إنما تدفقت إليه بقصد الحروب مما أصاب أوربا من قحط وجوع ، هذا فضلا عن الفوضى التي سادت بسبب هذا القحط ، وهذا يعني أن الحروب الصليبية إنما كانت بدلا من حروب أهلية يتقاتل فيها الأوربيون مع بعضهم البعض (٢) .

---

١) انظر الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، تأليف السيد الباز العريني لجنة التأليف والترجمة والنشر ، نشر النهضة المصرية ١٩٦٣ .

٢) انظر الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، الدكتور أحمد أحمد بدوي ص ١٠ دار نهضة مصر للطبع والنشر الطبعة الثانية ١٩٧٩

٢ - حالة الشرق الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية

لابد من ذكر فكرة موجزة عن أحـــوال الشرق الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية وذلك لنتبين الظـــروف والأسباب التى سهلت للصليبيين القيام بأغراضهم وتحقيقها دون أية مقاومة تذكر من المسلمين .

وغنى عن القول أن نذكر أن الأمـة العربية الإسلامية بعد القرن الرابع الهجرى قد مرت بسلسلة من عهود الضعف والتفكك لانقسام الدولة إلى عدد من الدويلات فى أنحاء البلاد العربية الإسلامية شرقا وغربا ، الأمر الذى أثر فى حركتها الحضارية وجعلها تبطىء فى تطورها .

والحقيقة أن عصر الحروب الصليبية هو عصر الجزر الإسلامى العربى والمد الصليبى فى منطقة الشرق الأوسط فى مصر والشام والعراق ، ويرجع هـــذا الجزر إلى عـــدة عوامل كلهـا تمثل الضعف والتفكك والخلاف فى الصف الإسلامى ، خلافا سياسيا واجتماعيا وفكريا ومذهبيـا ، فضلا عن الانقسام وكثرة الدويلات ، فقد كانت تسيطر على العالم الإسلامى والعربى عدة قوى : الدولة العباسية فى نهايتها وضعفها ، إذ كان خلفاؤها لا يملـكون سلطانا فعليا وإنما كانوا رمزا للسلطة الدينية ، وكان هـذا السلطان لا يتعدى بغداد والبلاد القريبة من الشام والدولة الفاطمية فى مصر .

وفى مصر كان مركز الخلافة الفاطمية الشيعية ، وكانت هـــذه الخلافة ضعيفة ، وكان الحكام لايسعون إلا فى مصالحهم الخاصة ، وكانت الأحوال الاقتصادية والمعيشية مضطربة نتيجـة للإسراف البالغ والبذخ الذى كان فيه

الخلفاء ورجال الدولة ، فأثر هذا فى قوة مصر وجيشها ، ولم تتمكن بطبيعة الحال من الصمود أمام الهجمات الصليبية .

وفى بغداد كان مركز الخلافة العباسية ، وقد سيطر الأتراك السلاجقة على الخليفة ، وأصبحت كل الأمور بأيديهم ، ولم يكن للخليفة سوى السلطة الاسمية فقط .

وجدير بالذكر أن نقول إن الخلاف بين هاتين الخلافتين كان على أشده وكان هناك صراع مستمر بين الخلفاء ، وكان كل خليفة حريصا على استنفاد كل مالدى الآخر ، ويمكن أن نقول إن الصراع قد وصل إلى درجة قصوى داخل الخلافة نفسها ، والذى يدل على ضعف المسلمين وتفككهم وبعدهم عن منابع عقيدتهم ماذكر من أن المسلمين الواقعين تحت حكم الصليبيين كانوا يعاملون معاملة أفضل من معاملة المسلمين الواقعين تحت حكم إخوانهم المسلمين (١)

وفى الشام نجدها منقسمة إلى ولايات صغيرة ، ولم يكن لأى حاكم علاقة بالحاكم الآخر اللهم إلا إذا كانت هذه العلاقة علاقة عداء وكراهية وأطماع ولعل هذا هو السبب الأول الذى جعل مدن ساحل الشام تسقط الواحدة تلو الأخرى فى أيدى الصليبيين الغزاة ، على الرغم مما أبدته هذه المدن من بسالة فى الدفاع وصلابة فى الجهاد .

وهذه هى أهم أحداث الحروب الصليبية فى كل من الشام ومصر (٢) :

---

١) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٧٥ دار صادر بيروت ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م

٢) قدمت الحملة الأولى عام ٤٩٠ هـ ، وكانت الثانية عام ٥٤٢ هـ ، وكانت الثالثة عام ٥٨٥ هـ ، والرابعة عام ٥٩٧ هـ ، والخامسة عام ٦١٤ هـ ، والسادسة عام ٦٢٦ هـ ، والسابعة عام ٦٤٨ هـ .

أولا : فى الشـام :

مما هو معروف أن الصليبيين الغزاة قد دخلوا بيت المقدس لسبع بقين من شعبان عام ٤٩٢ هـ بعد حصار له دام وقتا طويلا ، وقد استطاعوا أن يكونوا إمارات صليبية فى بلاد الشام مثل إمارة « الرها » وإمارة « أنطاكية » وإمارة « بيت المقدس » دون أن يستطيع الشام أن ينهض بعبء الدفاع عن أرضه .

وقد فعل هؤلاء الغزاة أفعالا شنيعة بالمسلمين ، ومضوا يغتصبون البلاد ويبثون الرعب فى النفوس ، كما ينشرون الذعر فى القرى والمدن ، حتى لاقت المدن المفتوحة على أيديهم أهول ماعرف من ألوان التخريب والتدمير ، ونال سكانها أقصى ماينال من القتل والتعذيب ، وكأن الصليبيين يريدون بما فعلوا أن يبثوا الرعب فى أفئـدة المسلمين ، وينشروا الفزع فى صفوفهم ، ولم ينثنهم عن أعمال التدمير والتخريب فى المدن أنها كانت قد وصلت فى ذلك العهد إلى أوج مجدها . وليس عـــلى مقدار حقد الصليبيين على المسلمين مما ذكره ابن الأثير يصف فيه المذبحة التى أوقعها الصليبيون بالمسلمين ، والتى راح ضحيتها عدد كبير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم (١) .

والواقع أن المسلمين قد استمروا فى غفلتهم وعـــلى ضعفهم وتنافرهم وتشتتهم ، حتى ظهر عماد الدين زنكى ، وكان من أحسن الملوك سيرة ، ومن أرفقهم بالعامة . وكان فضلا عن ذلك كله شجاعا مقداما لدرجة جعلتـه يدرك أهمية اتحاد المسلمين وقد بذل الشىء الكثير فى سبيل ذلك واستطاع أن يجمع

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٢٨٢/١ بيروت ١٩٦٦ وانظر أيضا قصة الحضارة ترجمة محمد بدران ٤/ ٢٥ .

المسلمين حوله ، وأن يستنهضهم ويستثير حميتهم ، وأن يزيد من حماستهم للجهاد فى سبيل الله .

ولم يقف عماد الدين عند حد مقاومة الصليبيين ولكنه أخذ يسترجع ما ملكوه شبرا شبرا ، وتمكن بفضل ذلك من الانتصار على الصليبيين . ففى سنة ٥٣٤ هـ استطاع أن يستولى على « حصن بارين » وعلى « المعرة » و « كفر طاب » وفى سنة ٥٣٩ هـ استولى كذلك على مدينة « الرها » (١) .. وليس يخفى ما لهذه المواقع من أهمية وخطورة ، الأمر الذى جعله يعيد للمسلمين الثقة فى أنفسهم من جهة ويكسر شوكة الصليبيين الغزاة من جهة أخرى ، ومع ذلك فلم يمهله القدر فقد استشهد فى الليلة الخامسة من شهر ربيع الأول عام ٥٤١ هـ

وبعد وفاة عماد الدين هيأ الله سبحانه وتعالى رجالا مؤمنين مخلصين ، فقد آل القسم الشرقى من دولة عماد الدين إلى ولده سيف الدين ، وآل القسم الغربى منها إلى ولده نور الدين محمود ، فاقتفى أثر والده ، وكان نور الدين يتوقد حماسة وشجاعة ، وكان كل همه إخراج الصليبيين من بلاد المسلمين ، وأن يوحد المسلمين ضد الصليبيين ، فحاصر دمشق مرتين : المرة الأولى فى عام ٥٤٦ هـ والمرة الثانية فى عام ٥٤٩ هـ واستطاع فى هذه المرة أن يحقق طموحه وأن يستولى على دمشق (٢) فاستولى من ثم على حصن حارم عام ٥٥١ هـ

---

١) الروضتين للمقدسى ١ / ٣٤ - ٣٦ دار الجيل بيروت بدون تاريخ . وانظر عن شجاعة عماد الدين : البداية والنهاية لابن كثير : ١٢/٢٢١ مكتبة النصر بالرياض ومكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦ م .

٢) انظر ذيل تاريخ دمشق لأبى يعلى القلانسى ص ٣١٥ مطبعة الآباء =

وعلى بانياس فى السنة التى تليها (١) .

وقد عمل نور الدين بعد ذلك على ضم مصر إلى دولته ، وجرت محاولته الأولى فى ذلك عام ٥٥٩ كى تتحقق الوحدة الكبرى بين بلاد المسلمين . ومع عدم تمكنه من تحقيق هذا الحلم أثناء ذلك إلا أنه قد استطاع تحقيقه عام ٥٦٦ وذلك فى محاولته الثالثة . ومن ثم نجـــده يحاول بالاتفاق مع صلاح الدين الأيوبى الهجوم على بيت المقدس إلا أن هناك ظروفا حالت دون تنفيذ ذلك ثم توفى نور الدين يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ (٢)

فى هذه الآونة كان على صلاح الدين أن يعد العدة ويخرج لملاقاة الصليبيين من جهة وأن يقوى صفوف المسلمين ويعيد إليهم التجمع من جهـــة أخرى فخرج من مصر عام ٥٧٠ قاصدا دمشق ثم استولى على حمص وحماه وتمكن كذلك من الاستيلاء على مدينة حلب ، فوحد بذلك بين القاهرة ودمشق وحلب وتم له مراده من تحقيق الوحدة الإسلامية بين مصر والشام (٣)

وبعد أن فرغ صلاح الدين من توحيد البلاد الإسلامية أخذ يولى وجهه تجاه حــــرب الصليبيين أنفسهم والحيلولة دون محاولتهم الاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فجهز جيشا قويا واتجـــه به إلى الأردن لملاقاة

= اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ م وانظر أيضا : نور الدين محمود ، الدكتور / حسين مؤنس ص ٢٤٤ . الشركة العربية للطباعة والنشر بمصر . الطبعة الأولى ١٩٥٩ م

١) الروضتين ١ / ١٥٤ .

٢) الروضتين ١ / ٢٢٨ .

٣) انظر الحركة الصليبية الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ٢ / ٧٤٢

الصليبيين ، ولم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ويوحد صفوفه ولكنه مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط فى يده الواحدة تلو الأخرى . والتقى الجيشان فى مكان يدعى «حطين» ، ووقعت الواقعة يوم السبت الموافق ١٥ من ربيع الأول عام ٥٨٣ وتمكن المسلمون بفضل وحدتهم وتصميمهم على الجهاد وبفضل ذكاء قائدهم صلاح الدين أن ينتصروا على الصليبيين وأن يأسروا عددا كبيرا من فرسانه وقواده .

وما أن سقطت البلاد المحيطة بالقدس حتى شمر صلاح الدين عن ساعد الجد وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه . والحق أن انتصار المسلمين فى حطين كان مقدمة لفتح بيت المقدس لأن الغزاة الصليبيين قد جمعوا فى هذه الموقعة التى خسروها خيرة فرسانهم ولم يتبق لديهم عدد آخر يستطيع أن يجابه صلاح الدين فى حروبه التى سيشنها بقصد الاستيلاء على بيت المقدس .

ثم اتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس عام ٥٨٣ وبذل الصليبيون كل ما يمكنهم من أجل الإبقاء على بيت المقدس ، وحين تقابل الجيشان وأدرك الصليبيون أنهم أضعف من المسلمين وأنهم إلى الهزيمة أقرب منهم إلى النصر أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك مقابل فدية يدفعونها ، وبذلك حقق القائد العظيم للمسلمين أعظم نصر فى تاريخ الحروب الصليبية ، وحسبه أنه أخرج النصارى من بيت المقدس ، ليس هذا فحسب بل إنه بجهوده هذه قد هيأ لمن يأتى بعده مواصلة الدرب وإخراج الصليبيين من أرض المسلمين دون مقاومة تذكر .

وبعد وفاة صلاح الدين (٢٧ صفر ٥٨٩ هـ) عاد الضعف إلى صفوف

المسلمين ، وتفرقت كلمتهم واختلف حكامهم . لكن الله سبحانه قد هيأ للمسلمين الظاهر بيبرس الذى استطاع بفضل الله وقوته أن يطهر البلاد الإسلامية من رجس الصليبيين ، إذ قام بالاستيلاء على حصونهم واستطاع أن يستولى على إمارة أنطاكية التى كانت تعد أول إمارة صليبية أسست فى الحملة الأولى وكان سقوطها مقدمة لسقوط الكيان الصليبى فى الشام وإعلانا لحركة الجهاد التى شنها المماليك ضد الصليبيين والتى بها قضوا على البقايا الصليبية من الشام (١) .

ثم استولى الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون على معظم مدن الساحل عام ٦٩٠ وتمكن عام ٦٩٢ من أخذ بعض المدن من الصليبيين ، وبهذا يمكن أن نقول إن دولة الصليبيين فى الشام قد انتهت لتختتم بذلك حلقة من حلقات الاستعمار الأوربى وليطرد آخر جندى صليبى (٢) .

ولا يفوتنا دور العلماء المخلصين الذى دعوا الى الجهاد وأيقظوا الأمة الاسلامية من سباتها ، بل وشاركوا فى الحروب ، كما لا يفوتنا كذلك دور الشعراء الذين شاركوا بقصائدهم القصيدة تلو الأخرى ، وجدير بنا أن نقول ان قصائد هؤلاء الشعراء كانت ذات أثر فى الحروب بل وفى مجريات الأمور كلها .

---

١) انظر الظاهر بيبرس للدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٧٢ ، سلسلة أعلام العرب ١٤ ، مطبعة مصر بدون تاريخ .

٢) انظر مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى للدكتور / على ابراهيم حسن ص ٢٦٦ . مطبعة الاعتماد بمصر ، نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ .

ثانياً : فى مصـــر :

والحق أن مصر إبان احتلال الصليبيين للشام لم تـكن على حال يسمح لهـا بأن تنهض بدور فعال فى الدفاع عن الشام ضد الحملات الصليبية .

وقد أدرك الصليبيون أن نجـاح نور الدين الحربى فى الشام لم يترك لهم مجالا للتوسع فى هذه البلاد وأن الطريق الوحيد المفتوح لهم إنما هو فى مصر نظراً لضعف الخلافة الفاطمية التى كانت فيها آنذاك .

وفى سنة ٥٥٢ قام ملك بيت المقدس « عمورى » بغزو مصر ، لـكنه سرعان ما انسحب منها بعد أن اضطر إلى ذلك . وفى سنة ٥٥٣ أرسل نور الدين قائده شيراكوه ليضم مصر الى الدولة الإسلامية ، وتمـكن شيراكوه من هـــزيمة « عمورى » ملك بيت المقدس ، ولما حاول ملك بيت المقدس الاستيلاء على القاهرة عام ٥٦٤ نجده لايتمكن من ذلك ، ومن بعده تمكن ملك بيت المقدس « حنادى برين » عام ٦١٥ من دخول مصر ومحاصرة دمياط والاستيلاء عليها وذلك بفضل مساعدة الحمـــلة الصليبية الخامسة التى قدمت مـن أوربا عام ٦١٦ (١) وبعد ذلك اتجه الأوربيون الغزاة إلى القاهرة وعندما وصلوا إلى المنصورة التقوا بجيش المسلمين وكانت من ثم هزيمتهم وانتهت حملتهم بالفشل الذريع .

وفى عام ٦٤٢ تمـكن المسلمون من استعادة بيت المقدس من أيدى الصليبيين ومن ثم ثارت ثائرة الصليبيين مرة أخرى ، وظهرت دعوات أخرى تدعو لحملة

---

١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٦/٢٤١ وزارة الثقافة والارشاد القومى فى مصر ، بدون تاريخ .

صليبية جديدة على العالم الإسلامى ، وقد تبنى الملك لويس التاسع ، هـــذه الفكـرة ، وبعد تفكيره رأى أن يتجه أولا إلى مصر ثم بعد ذلك الى الشام واستطاع لويس أن يستولى على دمياط عام ٦٤٧ ، ثم اتجه الى القاهرة ، وعند المنصورة تمكن المماليك بقيادة بيبرس من هزيمته ، وانتهت الحملة السابعة من حملاتهم (١) .

وهنا سؤال لابد من طرحه وهو : ماهى النتائج التى حققتها الحروب الصليبية ؟ وفى الإجابة على هذا السؤال نقول إن هـذه الحروب قد أخفقت اخفاقا تاما ، فالصليبيون لم يتمكنوا من تحقيق أى هدف ، إذ عادت القدس إلى المسلمين ، واستردت الثغور الإسلامية كلها وأصبحت فى أيدى المسلمين .

ويمكن أن نضيف الى ذلك فنقول ان حماسة المسلمين وتفضيلهم للجهاد ، وايثارهم مصلحة الدين الإسلامى عـــلى مصالحهم الخاصة ، وتمنيهم اخراج الصليبيين من بلادهم ، والتفافهم حول القادة المسلمين الذين قادوهم الى الجهاد . . كل هذه الأمور جعلت الصليبيين يخفقون تماما فى تحقيق أى هدف من أهدافهم .

ويجب ألا ننسى كذلك أن المسلمين كلما تناسوا خلافاتهم ، وكلما أخلصوا فى أعمالهم لله سبحانه فإنهم لابد وأن يحققوا انتصارات باهرة عـلى الصليبيين وعـلى العكس من ذلك فهم إذا تفرقوا واختلفوا فإنه سيحل بهم الدمار

---

١) انظر تاريخ الحروب الصليبية تأليف ستيفن رنسيمان ، ترجمة الدكتور / السيد الباز العرينى ٣ / ٤٥٢ ، ٤٧٢ مطبعة النجوى ببيروت ، الطبعـــة الأولى ونشر دار الثقافة سنة ١٩٦٧ م

والهلاك .

وكان من نتائج هذه الحروب أن تحمس الشعراء والخطباء ، وشاركوا بقصائدهم وخطبهم ، وكان من نتائج ذلك ماعرف بأدب الحروب الصليبية ، وهو أدب ملتزم مؤثر ، ويعتبر فى جملته من الشعر الحماسى الذى يبعث الهمم ويدعو إلى الجهاد والقتال ، وقد برز فى هـذا العصر شعر الجهاد كظاهرة عامة لها أثر قوى فى إذكاء روح الجهاد بين المسلمين .

٣- أثر الغزو الصليبي فى نفوس العرب والمسلمين

بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وقد تمكن الصليبيون فى حملتهم الأولى من الاستيلاء على مدينة الرها وجعلها إمارتهم الأولى ، وقد توغلت جماعة منهم جنوبا فاستولوا على أنطاكية وأسسوها لتكون الإمارة الثانية ، ثم واصلوا زحفهم فاستولوا على بيت المقدس ، وكان لسقوط بيت المقدس أثره الكبير فى تحول مجرى الحوادث وفى يقظة الروح القومية عند المسلمين .

يقول الشاعر أبو المظفر الأبيوردى (١) يصف تفرق المسلمين واستيلاء

---

١) الأبيوردى هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى ، نسبة الى بلدة أبيورد فى مقاطعة أصفهان تلك التى ولد فيها ، وكان ينتسب إلى بنى أمية وعبد شمس ، حتى انه كان كثير الاعتزاز بنسبه هذا فى شعره ، كما كان دائم الفخر بعروبته ، وقد انتقل الى بغداد ، وأخذ يتصل بالخلفاء والوزراء ، وأصبح من فحول شعراء عصره ، وقد لقب « بالمتنبى الصغير » وله ديوان ضخم حققه الدكتور عمر الأسعد ، ونشره فى مجلدين كبيرين . كان الأبيوردى من الشعراء الذين ينهجون نهج الشعر العربى القديم فى الصياغة والمعانى جميعاً ، وقد غلب حب البادية على نفسه ، وكان شاعرا طموحا يذكرنا بالمتنبى فى روح قصائده . « انظر مزيدا من ترجمته فى : وفيات الأعيان ، معجم الأدباء ، شذرات الذهب ، العبر ، الوافى بالوفيات ، وانظر الجزء الأول من ديوانه » .

الصليبيين الغزاة على القدس الشريف عام ٤٩٢ هـ (١) :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منـا عرصة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المشركين قواضبا ... ستغمد منهم فى الطلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لايشرعون إلى العدا ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم

... إلخ .

وبعد معركة القدس توالت انتصارات الصليبيين وهزائم المسلمين ، فأخذ

---

١) ديوان الأبيوردى ، تحقيق الدكتور / عمر الأسعد ٢ / ١٥٦ ، ١٥٧ ويلاحظ البداية والنهاية ١٢ / ١٥٦ والكامل فى التاريخ ١٠ / ٢٨٥ .

الصليبيون يستولون على المدن الساحلية مدينة تلو الأخرى وتمكنوا من السيطرة على الشام ومن التحكم في منافذ العالم الإسلامي إلى المغرب .

وكان لا مفر من أن يبدأ المسلمون يحسون بالحسرة لتلك الهزائم المتعاقبة ويشعرون بالأسى لاستيلاء الصليبيين على أجزاء من العالم الإسلامي ، ولما أذاقوه للمسلمين من قتل وتخريب ، وقد دفعهم هذا الشعور إلى محاولة المقاومة والدفاع ورد المغتصبين .

وما كاد القرن السادس يقترب من منتصفه حتى هب المسلمون يعدون العدة للتحرير من العدوان الصليبي ، وقامت من ثم دعوات للجهاد أشرف عليها الفقهاء والعلماء في العواصم الإسلامية ، وأخذوا يدعون إلى التجمع وإلى نسيان الخلافات والأطماع الدنيوية والنزاع الذي كان سببا في الفرقة والضعف .

والحقيقة أن العالم الإسلامي آنذاك كان في حاجة إلى تغيير الأمراء والقواد الذين كانت تنشب بينهم الخلافات الشخصية والتي كانت تتيح الفرصة للعدو الصليبي أن يفتح المدن ويستولي على الحصون والقلاع كما هو الحال في معركة أنطاكية (١) تلك التي كان لتفرق الكلمة وعدم الوحدة ومحاولة الانقسام أثر كبير في الهزائم التي لحقت بالمسلمين فيها .

وينبغي أن نذكر أنه كانت هناك ردود فعل قوية تجاه هذا الغزو الصليبي وبدأت حركة هذه الردود في إظهار آثارها فكانت غزوة عماد الدين التي بمقتضاها استعاد الرها ، وكان هذا السقوط ذا أثر قوي في لطم الصليبيين لطمة عنيفة ، كما كان نذيرا باضمحلال نفوذهم وتقلص ظلهم ، كما كان حافزا للمسلمين

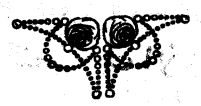
---

١) انظر الكامل ١٠ / ١٨٩ .

من ناحية أخرى يشجعهم على كفاح الأعداء ومتابعة طردهم من الأراضى الإسلامية ، ويزيد من حماسهم ، وقد بلغ الحماس الدينى مبلغه عند العامة كأثر من تلك الآثار وكرد فعل لها .

ولم يلبث عماد الدين كثيرا ، فقد اغتاله غلمان عند قلعة جعبر ، وقد أعقبه ابنه نور الدين محمود . والحق أن نور الدين قد لعب دورا ممتازا فى معارك رد الفعل الإسلامى ، وكانت له آثار كبيرة فى تجمع المسلمين ، واستطاع بشكل أو بآخر أن يمثل البطولة الإسلامية المنتظرة فكان دائم الاستعداد للحرب وتقوية المسلمين ، إذ كان ينفق الأموال الطائلة عـــلى السلاح ، وكان يبنى القلاع والحصون والأسوار القوية ، وقد خاض عدة معارك ذات أثر وأمكنه أن يبسط سلطانه على جزء كبير من الشام ، وأن يبث الرعب والهلع فى نفوس الصليبيين . ومع ذلك كله فلم تكن مهمة نور الدين سهلة ميسورة ، إذ أخذت موجات الصليبيين تقدم من جديد وبخاصة بعد استعادة الرها ، وقد تمكن نور الدين من استرداد دمشق دون قتال وذلك بمساعدة نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وتم أسر جوسلين أمـــير الرها . ويبقى أمام نور الدين فتح القدس فخاض عدة معارك استطاع بموجبها إجلاء الصليبيين عن مصر وبذلك دخلت مصر الحرب الصليبية بكل قوتهـا ، وكان صلاح الدين الأيوبى الذى استطاع ببطولته السياسية والحربية أن يجمع العـالم الإسلامى ، وأن يحول الهزائم إلى نصر ، وكان لانتصاره فى حطين ، واستيلائه على بيت المقدس دوى هائل هللت له جنبات العـــالم الإسلامى ، وترددت فى أنحائه أصداء البشائر وتغنى الشعراء ولهج الخطباء .

وقد واصل خلفاء صلاح الدين من ملوك الدولة الأيوبية فى مصر والشام سياسته فى حرب الصليبيين ، وقام الصليبيون من جهتهم وفى عهد آخر ملوك الأيوبيين بغارة قوية على مصر فى عام ٦٤٨ ه عرفت بحملة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد هاجموا دمياط ، ثم تقدموا إلى مدينة المنصـــورة حيث لقيتهم الجيوش المصرية بقيـادة تور انشاه ابن الملك الصالح أيوب ، وتم النصـــر للمسلمين ، وتم كذلك أسر لويس التاسع ، وأودع فى دار ابن لقمان بمدينة المنصورة .



الفصـــل الأول

نهضة الشعر فى عصر الحروب الصليبية

أولا : الأحـــداث السياسية .

ثانيـاً : تشجيـع الحـكام للشعر والشعراء .

ثالثـاً : العنـاية بجمـع الشعر ودراسته .

رابعاً : كثرة عدد الشعراء .

خامساً : الأسباب الدينيـــة .

كما شهد عصر الحروب الصليبية تطورات سياسية واجتماعية شهد كذلك نهضة أدبية حقيقية لأن الأدب جانب من جوانب الحياة ، ومن الصعب أن نتصور تقدم العصر فى جميع الجوانب وركوده وتعثره فى جانب واحد هو الأدب ، ولا شك أن العصر قد أمدته روافد عديدة دعمته دعما وهو دعم نجد آثاره فى النهضة الأدبية تلك التى يمكننا التعرف على بواعثها من النقاط التالية :

أولا : الأحداث السياسية :

إن عصر الحروب الصليبية عصر جدير بأن تحدث فيه نهضة أدبية قوية ، إذ شهد هذا العصر عدة ظواهر جديرة بالتسجيل والدراسة ، وفيه حدثت تطورات سياسية هامة سادت العصر من مبتدئه إلى نهايته ، فالأحداث السياسية فيه والحياة الاجتماعية التى سادت فيه ، كل هذا كان له أثر فى الشعر ، إذ لونته بلون العصر ووسمته بميسمه .

فالأحداث العنيفة التى شهدها العصر ، وقد حل فى البلاد الإسلامية عدو ينشر الفزع والاضطراب ، وهو لا يفتأ يغير على أطراف البلاد العربية وثغورها . وعلى الجانب المقابل كان أهالى البلاد التى غزاها الصليبيون يتحرقون غيظا على أوطانهم التى اغتصبها الصليبيون ، ولذلك أخذوا يجمعون قواهم ، ويوحدون صفوفهم ، ووقفوا لهذا العدو يدفعونه حينا ويغيرون عليه حينا آخر .

كما شهد العصر فى مصر والشام دولا تزول وتنشأ مكانها دول أخرى وملكا يزول ليحل محله آخر ، وعقائد دينية تسيطر ثم لم تلبث أن تنهار لتحل محلها عقائد أخرى . وليس من شك فى أن هذه الأحداث قد انعكست فى الشعر

ويجل وقائعها . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها تثير العواطف ، وتبعث مختلف الانفعالات ، وتدفع إلى نظم الشعر بل إلى الإجادة فيه .

وقد شهد هذا العصر أحداثا سياسية يجل الشعر وقائعها :

فهذا هو الوزير المصرى ، وهذا هو مركزه فى آخر عصر الدولة الفاطمية وقد كان أعداؤه يتربصون به الدوائر لكى يغتصبوا ملكه ، ويسلبوه سلطانه ومنصبه ، والوزير حيال كل ذلك لايتحرج من أن يستخدم كل مافى يده من قوة للفتك بأعدائه . وهذه صورة للشعر تريناً مدى الخصومة بين الوزراء الفاطميين القابضين على زمام السلطان وبين الحانقين عليهم الطامعين فيهم والمنافسين لهم ، والوزراء حيال هذا كله يلجأون إلى استخدام العنف والقسوة للاحتفاظ بسلطانهم .

يمدح القاضى الفاضل(١) بعض وزراء الدولة الفاطمية

---

١) أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف أبى المجد على بن الحسن بن الحسين اللخمى البيسانى . ولد ببيسان عام ٥٢٩ هـ ونشأ بمصر وتعلم ، واشتغل بالدرس والأدب والرسائل ، وكان كاتبا بارعا قديرا ، واستطاع أن يلى بعض المناصب الهامة فى دواوين الفاطميين ، وقد أسند إليه العادل بن الصالح بن رزيك الوزير الفاطمى ديوان الجيش عام ٥٨٨ هـ كما ذكر عمارة اليمنى والروضتين ١/ ١٣٠ طبعة مصر ١٢٨٨ هـ ، وقد تولى الكتابة لصلاح الدين ، وصحبه فى وقعة الرملة ، وغادر مصر إلى الشام عام ٥٨٦ ، وكان أستاذ الكتاب والبلغاء فى عصره وله نظم لكنه لم يرق إلى مرتبة رسائله يقول ابن حجة الحموى عنه : « كان نظم القاضى الفاضل رحمه الله ونثره =

فيقول (١) :

سيقت رؤوس أعاديكم بأرجلهم   مقرب حتفها التقريب والخبب
وما أسدتم على أعداء دولتكم   هذا التأسد إلا بعد ما كلبوا
بلغتموهم منـــاهم فى ترفعهم   والقوم ما ارتفعوا إلا إذا صلبوا
لا يرقبوا فيكم أن تنتاب نائبة   فإن مجدك من أنصاره النوب
لا يحسبوا الملك أمرا أنت كاسبه   فالملك أمر بأمر الله مكتسب
فليســـله كل مغرور فليس له   برغمهم فى ســـوى أوبابه أرب

وكان للخلاف الذى جرى بين خلفـــاء الفاطميين ووزرائهم صداه فى الشعر ، فقد استبد الوزير الفاطمى أبو على بن الأفضل بالسلطان ، واستبد بكل السلطة من الخليفة الفاطمى ، بل إنه اعتقل الخليفة الحافظ ، وأخذت الفتن تتصاعد فى هذا العصر حتى تسببت فى قتل الخليفة الظافر .

يقول الشاعر ابن أبى أسعد ينعى على الوزير نصر بن عباس هذا الفعل الشنيع (٢) :

وأنفق من إنعامهم فى هلاكهم * وأظهر ما قد كان عنه ينافق
ومد يدا قد طولوها إليهم * وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كأس المنايا وما انقضى * له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

= كفرسى رهان ولكنه نثر أكثر مما نظم » ثمرات الأوراق ص ١٥١ طبعة مصر ١٣٠٠ هـ » .

١) ديوان القاضى الفاضل ، تحقيق وشرح وتقديم د / أحمد أحمد بدوى ص ٤٦

٢) الروضتين ١ / ٩٨ مطبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

وحين ولى الوزارة شاور السعدى فى أواخر الدولة الفاطمية نجده يحاول أن ينفرد بكل السلطان فى الدولة ، ويأخذ يستعين بنور الدين محمود لاستعادة مناصبه التى كانت قد سلبت منه ، وما أن تحقق له ذلك حتى أظهر العـــداء لنور الدين ، بل إنه أخذ يستعين بالفرنج على التخلص منه ، وانتهى الأمر بقتله وبتولى أسد الدين شيركوه الوزارة .

وكرد فعل لذلك أقبل بعض الشعراء يهجون شاورا ويصفونه بالغـــدر وبموالاة الفرنج أعداء البلاد . فهذا هو العماد الكاتب (١) يأخذ يرحب بشيركوه وزيرا ، ويستبشر بهذه الوزارة فى النصر على الفرنج واسترداد بيت المقدس .

---

١) أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج محمد بن حامد المعروف بالعــماد الكاتب الأصبهانى صاحب التصانيف والرسائل والشعر . ولد بأصبهان ونشأ بهـا وقدم بغداد فى صباه عام ٥٣٤ فلقى بها الفضلاء وصحب العلماء ، وخرج من بغداد إلى الشام عام ٥٦٢ ونزل فى دمشق عند القاضى الشهرزورى ، وقد لقى أثناء وجوده بالشام نجم الدين أيوب والد البطل السياسى والحـــربى صلاح الدين ، ومدحه هو وأسد الدين شيركوه ، كما أن للعماد فى نور الدين مدائح كثيرة ، وقد اتصل الود بينه وبين القاضى الفاضل ، وأقام العماد بدمشق يكتب للسلطان إذا غاب الفاضل بمصر ، ثم أقامه صلاح الدين مقام الموفق خالد القيسرانى فى ديوان الاستيفاء لجمـــع بين الإشراف والاستيفاء ومنصب الانشاد ، وقد جاء العماد إلى مصر واتصل بأفاضلها وعلمائها ، لكنه سرعان ماخرج منها حين استدعاه صلاح الدين للخروج لغزوة الرملة عام ٥٧٣ لملاقاة الصليبيين فى فلسطين ، وقد لحق العماد =

يقول يهنئ أسد الدين شيركوه (١) :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب

فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ... ميسراً فتح بيت القدس عن كثب

لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا ... في شكرنا ما به الإسلام منك حبي

شكا إليك بنو الإسلام يتمهم ... فقمت فيهم مقام الوالد الحدب

في كل دار من الافرنج نادبة ... بما دهاهم فقد باتوا على ندب

من شر شاور أنقذت العباد فكم ... وكم قضيت لحزب الله من أرب

هو الذي أطمع الإفرنج في بلد الإسـ ... ـلام حتى سعوا للقصد والطلب

وإن ذلك عند الله محتسب ... في الحشر من أفضل الطاعات والقرب

ويقول القاضي الفاضل قصيدة طويلة يصور فيها عودة أسد الدين شيركوه بعد أن أقبل الفرنج إلى مصر لينصروا شاورا، ومنها (٢) :

تلقى العدا بالعدا، حدث به عجباً * أن الهدى خدمت في نصره الصلب

وحين سقطت الخلافة الفاطمية في مصر وعادت مصر إلى الدولة العباسية، كان هذا يعد من أهم الأحداث، وقد أنشأ العماد الكاتب قصيدة يهنئ فيها

= بالسلطان صلاح الدين في دمشق في السنة نفسها وظل يلازمه في تنقله، وبعد وفاة السلطان وتولي ابنه الأفضل الأمر في دمشق أقر العماد على إنشاء الكتب زمنا، وظل يدرس في مدرسته العمادية في دمشق إلى أن توفي بها عام ٥٩٧ هـ. انظر الروضتين لأبي شامة ١/٢٠٠، ٢٠٦، ٢٦٦ و ٢/٢٢٥ طبعة مصر ١٢٨٨ هـ.

١) الروضتين لشهاب الدين ١ / ٥٩، دار الجيل بيروت.

٢) انظر القصيدة في ديوان القاضي ص ٤٦ وانظر أيضا الروضتين ١/١٣٢

نور الدين والخلفاء العباسيين فى بغداد . ومن هذه القصيدة (١) :

قد خطبنـا للمستضىء بمصر * نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنـا لنصرة العضد العاضــد ، والقــاصر الذى بالقصر (٢)
وأشعنا بهـا شعار بنى العبا س فاستبشرت وجـوه النصر
وتركنا الدعى يدعو ثبورا * وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهـاشمى فى أرض مصـــر
ولدينـا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عـــد وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن فى مصر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الـكريم الأغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبـله بين منـكر ومقر
والذى يدعى الامامة بالقـــــاهرة انحط فى حضيض القهر
مايقـام الامام إلا بحـــق * مانحـاز الحسناء إلا بمهـــر
خلفاء الهدى سراة بنى العبا س والطيبون أهـل الطهـر
بهم الدين ظافر مستقيم ظاهر قوة قوى الظهـــر

وما أن يتوفى العاضد حتى يمضى الشعراء يشمتون بالدولة المنقـــرضة ويستبشرون بتوحيد البلاد تحت حـــكم الخلافة العباسية ، ويظل الشعراء الموالون للأيوبيين من جهتهم يذمون رجال الدولة الفاطمية وعهودهـا ، وقد يحدث أن يرد على هؤلاء الشعراء من هو باق منهم على الولاء للفاطميين .

---

١) الروضتين فى أخبار الدولتين ١ / ١٩٨ دار الجيل بيروت .

٢) يريد بالعضد فى البيت وزير بغداد عضد الدين .

وقد أنشد الأحدب بن أبي حصينة بين يدي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين أبياتا يهنئه فيها بسكنى أحد قصور الفاطميين « اللؤلؤة » فقال (١) :

يا مالك لا أرض لك طرفا ... منها وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها ... وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها ... فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا
كان بها صدفا والدار لؤلؤة ... وأنت لؤلؤ صارت لها الصدفا

وقد رد عمارة اليمني (٢) على هذه الأبيات بأبيات قال فيها (٣) :

أنت يامن هجا السادات والخلفا ... وقلت ماقلته في ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة ... والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وإنما هى دار حل جوهرهم ... فيها وشف فأسفاها الذى وصفا

---

١) مختارات من ديوان عمارة اليمنى ص ٢٩٣ طبعة مدينة شالون ١٨٩٧ م مع كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٢) ولد عمارة فى اليمن بين قوم من العرب تعصبوا لبداوتهم وحافظوا على لغتهم وهو يمثل فى شعره الاتجاه إلى القديم ، فشعره جيد رصين ، قوى الأسلوب وهو ينهج فى شعره نهج أبى تمام والمتنبى ، وكان فاطمى الهوى ، وقد رثى الفاطميين بقصائد كثيرة تعد من أروع شعره ، وبعد أن انتهى ملكهم وزالت دولتهم التحق بخدمة تورانشاه وأخذ يمدحه ويحرضه على غزو اليمن له ديوان شعر ضخم يذكرنا بشعراء العصور الزاهرة ، وقد توفى عام ٥٦٩ هـ « راجع الروضتين ١ / ٢١٦ - ٢٢٨ مصر ١٢٨٨ هـ » .

٣) مختارات من ديوان عمارة اليمنى ص ٢٩٢ .

فقال : لؤلؤة عجبا بهجتها ... وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهى بسكانها الآيات إذ سكنوا ... فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه ... من البرية إلا كل من عرفا
لولا تجسمه فيهم لكان على ... ضعف البصائر للأبصار مختطفا
فالكلب يا كلب أسنى منك معرفة ... لأن فيه حفاظا دائما ووفا

والحقيقة أنه يطول بنا المقام لو حاولنا وصف كل ما كان من أثر للأحداث السياسية فى الشعر . . وحسبنا أننا أشرنا إلى أن الشعر فى عصر الحروب الصليبية قد تلون بكل هذه الأحداث السياسية .

ثانياً : تشجيع الحكام للشعر والشعراء :

كان عصر الحروب الصليبية عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية كما كان عصر إحياء أدبى ، وتمثل هذا الإحياء فى نهضة الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة والاهتمام بالأدب والشعر وتقديرهم للشعراء ، والحق أن الشعر فى هذا العصر كان رائدا للناس جميعا ، وقد عكس غيرة الشعراء على أوطانهم ودينهم ، ولذلك لم يبخل عليه الحكام بكل غال أو نفيس ، وأخذوا يشجعون الشعراء ويتسابقون فى تقربهم ، بل إن كثيرا منهم قد سموا إلى أن يكونوا شعراء .

والحق أن العصر الصليبى كان عصرا مواتيا للأدب ، فقد أحب الأدب الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والعلماء . وكان الحكام يزاحمون العلماء والأدباء ويجعلون من مجالسهم حلقات لأرباب المعرفة ، كما حرصوا على اجتذاب الشعراء واتخاذهم ألسنة تنافح عنهم وتدعو إلى مساعدتهم .

وقد حاول كثير من أولئك أن يكونوا من بين الأدباء ، ويمكننا أن نقول إننا لانكاد نجد حاكما من حكام العصر : خليفة ، أو سلطانا ، أو ملكا أو وزيرا لم يفسح صدره للشعر ، ويخلد اسمه ممدوحا فى شعر الشعراء .

يضاف إلى ذلك أن الحكام كانوا يجيزون الأدباء ، وكانوا يزاحمون الشعراء ويجعلون من مجالسهم حلقات ينصتون فيها إلى شعرهم ، وكانوا يغدقون العطايا على الشعراء ، وقد أجروا عليهم أرزاقا ثابتة وجعلوا لهم مرتبات يتقاضونها ، وكانوا يتأثرون بالشعر ويؤثر فيهم ، وكان كثير منهم يقرض الشعر ويعنى بنظمه . وقد نتج عن ذلك أن ازداد اهتمامهم به وبروايته ونقده (١) ، وأخذوا يعقدون مجالس للسمر به فى مجالسهم ، بل إن بطولة بعض الحكام كانت تدفع بالشعراء إلى الالتفاف حولهم التفافا يذكرنا بالعهود الزاهرة للشعر العربى .

فى ظل الخلفاء الفاطميين كان إنشاد الشعر بين أيدى الخلفاء مظهرا من مظاهر القوة والعظمة التى كانوا حريصين عليها ، وكانوا يجيزون على الأدب ويجلسون للشعراء مجالس ينصتون فيها إلى شعرهم وينقدون إنتاجهم ويكافئونهم على مقدار جودتهم ، وكانوا يتأثرون بالشعر ، ويمكن أن نقول إنهم كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية ولنشر مبادئهم والترويج لعقائدهم ؛ بل إن بعض الشعراء كان أشد مايكون حرصا على أن يودع مفاخره فيما أنشأ من شعر ، وقد وجد كثير منهم فى الشعر متنفسا يبوحون فيه ببعض آمالهم ، ويسرون إليه بتطلعاتهم وطموحاتهم ، وكان الوزراء الفاطميون يتخذون

---

١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج٥/١٨٣ طبعة مصر ١٣٣٥هـ ١٩٥٣م

الشعر وسيلة لمناصرتهم والدعاية لهم ، وقد أحاطوا أنفسهم بطبقة من المثقفين المتلذذين في الأدب ، فكان ولا بد أن يأخذ هؤلاء الوزراء أنفسهم بإتقان هذا الفن حتى يجمعوا بين ألوان التفوق .

ومن الشواهد التى نسوقها للدلالة على اهتمام الخلفاء بالشعر وعلى تشجيعهم للشعراء ماحدث فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله من أنه كان يكافىء الشعراء على قدر إجادتهم القول والتبريز فيما ينشدون (١) .

ويحكى عمارة اليمنى صاحب كتاب « النكت العصرية » أنه قد وفد إلى مصر فى ربيع الأول عام ٥٥٠ هـ والخليفة بها آنذاك هو الفائز بن الظافر ، وكان وزيره هو الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وأنه حين أحضر للسلام على الخليفة ووزيره فى قصر الخليفة أنشدهما قصيدة أولها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ٭ حمدا يقوم بما أولت من النعم

ثم يقول إنه قد أفيضت عليه خلع مذهبة من ثياب الخلافة ، وأن الصالح دفع له خمسمائة دينار ، ثم أخرج له خمسمائة دينار أخرى (٢) .

وقد اقتدى وزراء الدولة الفاطمية وولاتها بالخلفاء فى إجازة الشعراء والإغداق عليهم ، ولا سيما أن هؤلاء الوزراء فى العصر الذى جرت فيه الحروب الصليبية كانوا هم الحكام الحقيقيين فى معظم هذه الحقبة من الزمن وكان بعضهم شاعرا يتذوق الشعر ويقرب قائليه ويثيبهم ، وكان منهم من له ديوان شعر .

---

١) انظر خطط المقريزى ٢ / ٣٢٩ .

٢) النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص٣٢ طبعة مدينة شالون ١٨٩٧

ونهج هذا النهج الأيوبيون (١) من بعدهم حين آل إليهم الأمر فى مصر والشام ، فلم يستطيعوا أن يتخلوا عن الأدب والأدباء ، ولا أن يتركوا ما كان عليه حال الأدب من تشجيع فى العصر الفاطمى ، فهم ليسوا أقل قدرا من العرب فى هذا الشأن ، ولم يكونوا راضين عن أن ينظر إليهم على أنهم أقل تذوقا لهذا الفن الجميل من العرب الذين يقدرونه ويعرفون مكانته ، فلا غرابة إذن أن يحرصوا على أن يحيطوا أنفسهم بما اعتاد حكام العرب أن يحيطوا أنفسهم به من أدباء وشعراء ، وأن يعالجوا هذا الفن ويأخذوا أنفسهم بمعاناته وقرضه.. يضاف إلى ذلك أن فى الشعر دعاية يثبتون بها ملكهم وقواعد عروشهم ، وهو وحده كفيل بأن يؤدى الرسالة التى يريدونها من شعوبهم كما أنهم يرون أن الشعر كفيل بأن يغرس فى نفوس رعاياهم الحب والولاء لهم .

ويحدثنا ابن خلكان عن علاقة صلاح الدين بالشعراء فيقول : إن أحد الشعراء أنشد صلاح الدين شعرا يقول فيه :

الله أكبر جاء القوس باريها * ورام أسهم دين الله باريها

فأفيضت عليه عطايا صلاح الدين ، وكان أن أعطاه ألف دينار (٢)

---

١) انظر أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، للدكتور عمر موسى باشا ، والحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، للدكتور عبد اللطيف حمزه ، وانظر كذلك : الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، للأستاذ محمود مصطفى ص ٢٧٤ وما بعدها . نشر دار الكاتب العربى ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

٢) وفيات الأعيان ٢ / ٤٠٥ المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ .

ولم لايكون كذلك ؟ وقد رأى هؤلاء السلاطين حين نصبوا أنفسهم للجهاد ضد الصليبيين أن الشعر الذى يتحدث عن الجهاد إنما هو موقد للحمية فى نفوس المسلمين ، وهو باعث قوى لهم على الاستماتة فى الجهاد واسترداد بلادهم المغصوبة، وكان كبار الدولة يدركون كذلك ما للشعر من أثر بالغ فى النفس فتطرب له ، وتهتز لمعناه .

ومن أثر الشعر فى نفوسهم ما يروى من أن معركة دارت بين صلاح الدين والفرنج بقرب بانياس سنة ٥٧٥ هـ وانتصر فيها صلاح الدين ، وكان ممن أبلى فيها أعظم البلاء عز الدين فروخ شاه ابن أخى صلاح الدين ، متأثرا بالشعر ومدفوعا به . فقد حكى أنه قال : ذكرت فى تلك الحال بيتى المتنبى وهما :

فإن تسكن الدولاب قسما فإنهـا ＊ لمن يرد الموت الزؤام تئول

ومن هون الدنيا على النفس ساعة ＊ وللبيض فى هام الكماة صليل

فهان الموت فى عينى فألقيت نفسى إليه » (١) .

ويذكر التاريخ أن كثيرا من حكام العصر كان لهم نظر فى الأدب وكانوا ينظمون الشعر ويعنون به ، إذ كان للآمر نظام ونظـر فى الأدب ، وكان الأفضل بن بدر الجمالى شاعرا ، وكان بهرام وزير الحافظ شاعرا كذلك . على أن من أعظم وزراء العهد الفاطمى الأخير حظا من الشعر هو طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد ، وكان ضرغام وزير العاضد ينظم الموشحات الجيدة (٢).

---

١) الكامل لابن الأثير ١١ / ٢٠٦ الطبعة الأولى ١٣٠١ هـ .

٢) انظر نماذج من أشعار هؤلاء فى الروضتين ، الجـزء الأول ، والنجوم الزاهرة ، الجزء الخامس ، وخطط المقريزى ، الجزءان الثالث والرابع .

ويروى المقريزى شعراً للآمر يحدثنا فيه عن عزمه على الجهاد والذهاب إلى بغداد كى يوحد الصف ، ويجمع الشمل يقول (١) :

دع اللوم عنى لست منى بموثق * فلابد لى من صدمة المتحقق
وأسق جيادى من فرات ودجلة * وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ويقــــول (٢) :

أما والذى حجت إلى ركن بيتــــه * جراثيم ركبان مقلدة سهبا
لأقتحمن الحرب ، حتى يقال لى : * ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله : عيسى بن مريم * فيرضى بنا صحبا ، ونرضى به صحبا

وقد تشبه حكام ووزراء الدولة الأيوبية بسلفهم من خلفاء ووزراء الدولة الفاطمية ، ويمكننا كذلك أن نقول إن الشعر قد جرى على ألسنة كثير من أبناء الأسرة الأيوبية . إذ كان لبورى بن أيوب « أخو صلاح الدين » شعر بليغ ، وله نماذج كثيرة من شعره أوردها له صاحب النجوم الزاهرة .

وكان صلاح الدين يحب الشعر ، ويستحسن الجيد منه ، وكان يحفظ كثيرا من أشعار الحماسة ، وكان يتغنى بهذه الأشعار فى مجالسه . يضاف إلى ذلك أنه كان يدرك ما للشعر من تأثير فى النفوس ، ولذلك كان يتراسل به مع غيره ، وكان يبدأ به رسائله .

ولعل الذى يدل على تأثير الشعر فى نفس صلاح الدين ماروى من أنه كان يقول فى ملأ من الناس : « لاتظنوا أنى فتحت البلاد بسيوفكم ، ولكنى فتحتها

(١ ، ٢) خطط المقريزى ٤ / ٧٨

بقلم القاضى الفاضل (١) .

ومن ذلك ماروى من أن سيف الإسلام طغتكين أخا صلاح الدين كانت نفسه تتطلع إلى اليمن وبخاصة بعد موت أخيه شمس الدولة ، فأشار إلى ابن الحلبى أن يقرض قصيدة يضمنها هذا الحلم ، وأن ينشدها ويسمعها صلاح الدين ، فأنشأ الحلبى قصيدة كان منها :

جرد لها السيف الصقيل فتنة * فالسيف لايدخر إلا للفتن

شد به أزر العلا ، فإنه * نعم فتى من شرع الجود ، ومن

القائل المسمع فى مقاله * والصادق الندب الأمين المؤتمن

فلما سمع صلاح الدين هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام فى المسير لولاية اليمن (٢) .

وكان للأفضل وغازى « ابنى صلاح الدين » شعر حسن ، وكان فروخ شاه بن شاهنشاه أديبا شاعرا ، وكان شعره جيدا إذا قيس بأشعار الملوك ، وكان لعمر بن شاهنشاه ديوان من الشعر ، وكان بهرام شاه بن فروخ شاه من أشهر الشعراء ، وليوسف بن محمد بن غازى صاحب مملكة حلب « حفيد غازى » شعر جيد فى الخراب الذى لحق بحلب حين مر عليها التتار ، وكان للملك الكامل ديوان من الشعر . . بل إننا إذا استعرضنا كتب « الروضتين » و « النجوم الزاهرة » و « فوات الوفيات » و « خطط المقريزى » لوجدنا أن كبار الأمراء والوزراء فى عصر الدولة الأيوبية كانوا ينظمون الشعر ، وكانوا يدركون

---

١) شذرات الذهب للحنبلى ٤ / ٣٢٧ طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـ .

٢) الروضتين ٢ / ٢٦ مطبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

ما للشعر من أثر بالغ فى النفس ، كما كانوا يجدون فى تغنيهم به معين قوة ومصدر إقدام .

ومن معرفتهم بتأثير الشعر فى النفوس ما رواه ابن الأثير فى الكامل (١) من أن شمس الدولة توران شاه بن أيوب ملك اليمن قدم إلى دمشق ، وحين سمع أن أخاه صلاح الدين قد ملكها استبد به الحنين إليها ، فهى وطنه وملتقى أترابه ، وكان من أثر ذلك أن فارق اليمن وأخذ فى المسير إلى الشام وأرسل وهو فى مسيره إلى أخيه صلاح الدين يخبره بقدومه ، وكان مما كتبه فى كتابه شعر من قول أبى المنجم المصرى يقول :

وإلى صلاح الدين أشكو أننى	من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ، ولم أكن	لولا هواه لبعد دار أجزع
فلأركبن إليه متن عزائمى	ويخب بى ركب الغرام ويوضع
ولأقطعن من النهار هواجرا	قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لايسرى به	طيف الخيال ، ولا البروق اللمع
وأقدمن إليه قلبى مخبرا	أنى بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة	من أفقها صبح السعادة يطلع

ولم يقف حالهم عند حد حب الشعر وتقديرهم لتأثيره فى النفوس ولكنهم كانوا يتذوقونه ويعرفون جيده من رديئه ، وكانوا يعقدون مجالس للاستماع إلى ما أنشده الشعراء فى المناسبات العامة والأحداث الجارية . وكانت

---

١) ١١/١٩٦ الطبعة الأولى ١٣٠١ هـ .

هذه الجلسات تعقد فى المحافل العامة التى تقيمها الدولة (١) .

وكانوا يعقدون مجالس أدبية متنوعة ، ينشدون الشعر ، ويستجيزون من حضر من الشعراء ، وكانوا يطلبون من الشعراء القول فى أغراض ومعان بعينها . ويحكى أن صلاح الدين الأيوبى حين فتح بيت المقدس عقـــد مجلسا وأخذ يستمع فيه إلى قصائد الشعراء التى قيلت فى هذا الفتح العظيم (٢) .

كذلك لم يستطع سلاطين المماليك أن يتخلو عن هـــذا التقليد ، ولعل الأسباب التى دعتهم إلى تشجيع الأدب هى بعينهـــا الأسباب التى دفعت بالأيوبيين إلى هـــذا التشجيع ، فهم بلا شك يتوقون إلى الإشادة بمآثرهم وحاضرهم ، ولهـــذا شجع بيبرس الشعراء ، فالتفوا حوله ، وتغنوا بجهاده وإصلاحاته ، واقتدى به فى ذلك قلاوون وابنه الأشرف خليل .

ومن يستعرض الأحداث الكبرى التى كانت فى عصر المماليك يدرك مدى ما كان للشعر من مكانة مرموقة ، ويقف بنفسه على تلك المجالس التى كان يعقدها الأشرف بن قلاون والتى كان يطارح فيها الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط (٣) .. وجدير بالذكر أن نقول إن بعض ملوك العصر المملوكى وأمرائه قد ألفوا فى الأدب وشجعوا على التأليف فيه (٤) .

---

١) بدائع البدائه للأزدى ص ٢٢٤ مطبعة بولاق ١٢٧٨ هـ .

٢) الروضتين ٢ / ٩٦ مطبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

٣) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، تحقيق الدكتور / محمد مصطفى زيادة ١ / ٧٩١ طبعة القاهرة ١٩٣١ م .

٤) انظر المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ٣ / ١٢٥ المطبعة الحسنية بمصر الطبعة الأولى .

وأيا ما كان الأمر فإن عصر الحروب الصليبية كان عصرا مواتيا للأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة ، فلقد أحب الأدب خلفاؤه ، وسلاطينه ، وملوكه ، وأمراؤه ، ووزراؤه ، وولاته ، وعلماؤه ، بل إن هؤلاء جميعا قد حاولوا بشكل أو بآخر أن يكونوا من بين رجال الأدب .

ثالثاً : العناية بجمع الشعر ودراسته :

لا شك أن إنتاج الشعر في عصر الحروب الصليبية قد غزر وكثر ناظموه وكثرت كذلك في هذا العصر العناية بجمع النصوص الأدبية بصفة خاصة ، وتخير المنتقى من بينها .

وقد رأى بعض الجامعين للشعر أن يتجه إلى اختيار النماذج الرفيعة من التراث القديم ، والتي هي كفيلة بتقويم اللسان وتهذيب البيان . واتجه بعضهم إلى لون من ألوان الأدب والشعر مما يتصل بمكارم الأخلاق والتي هي خليقة بالاقتداء . واتجهت طائفة أخـــرى إلى مختارات من الشعر لشعراء سابقين لتكون هذه المختارات ذخيرة أدبية صالحة لأن تستقى منها المعاني والأفكار من جهة ، ثم للتعريف بالأدباء عن طريق هذه الآثار (١) .

والواقع أن الذين عنوا بجمع شعر التراث القديم قد اقتدوا إلى حد ما بمن سبقوهم في هذا الشأن منذ القرن الثاني الهجري فاختاروا ما رأوه رائعا من دواوين السابقين (٢) . وكان من الذين عنوا بجمع ما تفرق من شعر الشاعر

---

١) انظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ص ٣٦٨ مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ .

٢) انظر وفيات الأعيان ٢ / ١٥٩ وانظر معجم الأدباء لياقوت ، نشر الدكتور / فريد رفاعي عام ١٩٣٦ م ١٥ / ٨

ووضعه فى ديوان مافعله البديع هبة الله بن الحسن المتوفى عام ٣٤٥ هـ، إذ جمع شعر ابن الحجاج ودونه ورتبه على القوافى .

ووقف بعض الجامعين عند حد ماقيل من الشعر ، مثال ذلك كتاب « بدائع البدائه » الذى جمع أخبار الشعراء فى البدائه والارتجال ومحاسن أشعارهم فى مضايق الإسراع والإعجال (١) .

وكما عنى البعض بجمع ماتفرق من شعر الشاعر ووضعه فى ديوان نجد البعض الآخر يقف عند جمع ماقيل من الشعر فى مدح شخص بعينه أو أشخاص بأعينهم ، أو أسرة بعينها ، جمعوا ذلك تخليدا للمفاخر وتسجيلا للمآثر . وكان الذى يختار يقف عند حد اختيار الجزل القوى البليغ . ولعل لاختيار هذه النماذج فى أشخاص بأعينهم أو أسر بعينها دخلا فى اختيارها جزلة واضحة ، فلو أحد من هؤلاء كان يناى بمن اختار عنه هذا الشعر عن أن يكلفه دراسة الغريب الشاذ أو الغامض .

ذلك فى الحقيقة بعض ماقام به الأدباء آنذاك من جهود فى جمع الشعر ، أو ماقام به الشعراء من جهود فى جمع دواوينهم الشعرية . . لدرجة تجعلنا نقول إن هناك العديد من الدواوين الشعرية قد جمعت فى ذلك العصر ، ولو أن هذه الطريقة قد اتبعت عند كل شاعر لما تبدد شعر كثير من الشعراء ، ولما تفرق فى كتب الأدب والتاريخ ، ولأفاد الأدب والتاريخ من ذلك إفادة كبيرة .

وكما عنى الأدباء فى ذلك العصر بجمع الشعر نجد عناية كبرى كذلك بدراسة ماورثوه من أدب ، فظهرت من ثم كتب عديدة ظفرت بالشرح والدراسة

(١) بدائع البدائه للأزدى ص ٣ .

والحفظ . وكان من بين هذه الكتب « الحماسة » لحبيب بن أوس ، إذ كانت له مكانة خاصة فى نفوس الأدباء ، وقل أن نجد أديبا معروفا لم يقرأ الحماسة ولم يحفظ منها كثيرا ، بل كانوا يستشهدون بأبياتها فى كتبهم ورسائلهم .

ويأتى مع الحماسة كتاب ديوان أبى الطيب المتنبى (١) والذى لاشك فيه أنه كان لهذا الديوان النصيب الأكبر من عناية واهتمام الدارسين يومئذ فكان عدة الأدباء وزاد الشعراء يستقون منه كل طريف بديع ، وقد وضعت الشروح والحواشى عليه . ولا غرابة فى ذلك فالمتنبى كان ينظر إليه فى ذلك العصر على أنه شاعر عبقرى ، وكان له أثر أيما أثر فى شعراء ذلك العصر ، ولعل للحروب الصليبية أثرها فى ذلك ، إذ المعروف أن جما غفيرا من شعر المتنبى قيل فى المعارك التى دارت بين المسلمين والروم .

وكان مما اهتم به الناس كتاب « مقامات الحريرى » إذ كان يحفظها الأدباء والعلماء (٢) . ويرجع اهتمامهم بها إلى أنهم كانوا يرون فيها أكمل تعبير عن روحهم ، وكانوا يرونها أرفع نموذج للأدب العربى شعرا كان أم نثرا حسب ذوق العصر ، وكانت المثل الأعلى لكتاب ذلك العصر وخطبائه ، وهى تعتبر مرجعا لغويا ، وتحوى أبوابا فى النحو واللغة والبلاغة ، وقد وجه إليها الشراح همهم ففصلوها بعد إجمال ، وعلقوا عليها ، وزادوا فيها .

وكما كانت هناك عناية بشرح الدواوين ودراستها نجد عناية أخرى بالقصائد المشهورة ، إذ أقبل البعض من علماء العصر على شرح بعض هذه

---

١) انظر وفيات الأعيان ٢ / ٢٩٦ ، ٥ / ١٨٠ طبعة محى الدين ، مصر ١٩٥٢

٢) انظر المصدر السابق ٤ / ٢٣ طبعة محى الدين .

القصائد ، كمقصورة ابن دريد ، وكقصيدة بانت سعاد ولامية العـــرب وغير ذلك .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل مضى طائفة من العلماء تجمع أخبار الشعراء ، وترصد مايتهيأ لها جمعه من آثارها ، أو مايروق لها من تلك الآثار وقد اقتدوا فى ذلك بمن سبقهم من العلماء الذين جمعوا أخبار العلماء ووضعوا طبقاتهم ، وكان أهم ماظهر فى ذلك كتاب « الجوهرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة » لابن "القطاع الصقلى ، وكتاب « المطرب من أشعار أهل المغرب » لأبى الخطاب عمر بن دحية الكلبى ، وكتاب « المجموع فى ذكر شعراء اليمن » لعمارة اليمنى .

ووقف البعض بجمع طائفـة من الشعراء يجمعهم اسم خاص ، كما فعل على ابن يوسف القفطى فى كتابه « المحمدون من الشعراء وأشعارهم » كما وقف البعض الآخر عند جمع الشعراء الذين يجمعهم مذهب واحـد ، وذلك كما فعل يحيى بن حميدة حين جمع شعراء الشيعة فى معجم (١) .

وهناك من وقف فى دراسته عند شخصية واحدة يجمع أخبارها ، ويروى أشعارها ، وينقل خلقه وآراء الناس فى علمـــه ، ويروى عيون شعره فى مختلف الأغراض ، ويقدم بين يدى ذلك كله المواقف والمناسبات التى قيل فيها هذا الشعر . وهناك كذلك من لم يقف فى دراسته عند قطر معين أو عند عصر معين كما هو الحال فى معجم الأدباء لياقوت .

أما فى مجال النقد فقد ظهر كتاب « نظم الدر فى نقد الشعر » وهو لعلى

---

(١) انظر : الفاطميون فى مصر ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٩٩ المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م .

ابن اسماعيل بن جبارة م ٦٣٢ هـ، وظهرت مختصرات للكتب القديمة، كما حدث في «تجريد الأغاني» لابن واصل الحموي، وفي «مختار الأغاني» لجمال الدين بن مكرم.

وينبغي أن نشير أيضا إلى أن من أهم الأعمال الأدبية التي تمت في ذلك العصر هو نقل «الشاهنامة» تلك التي كتبها الشاعر الفارسي الفردوسي عام ٤٠٠ هـ إلى العربية، وكان هذا من أجل الأعمال.

رابعاً : كثرة عدد الشعراء :

امتازت هذه الفترة التاريخية بكثرة ما أنجبت من شعراء في مصر والشام (١) فالذي لاشك فيه أن عدد الشعراء قد كثر في عصر الحروب الصليبية كثرة ملحوظة، بل إن من بين شعراء هذا العصر شعراء كانوا معالم في طريق الحياة الأدبية في مدى قرنين من الزمان، ونحن نتبين في أشخاصهم تطور الحياة الأدبية في هذا العصر، كما أنه كان لظروف العصر أثرها في أنها جعلت الشعر لم يعد قاصرا على شعراء المديح المحترفين، وإنما حولته إليهم بشكل أو بآخر عن روح الجهاد.

ولا أجدني مغاليا إذا قلت إن الحياة الأدبية كانت على أشدها في العاصمتين : القاهرة ودمشق، وأن هاتين المدينتين قد نالتا الزعامة في عصر الحروب الصليبية في مجال كثرة عدد الشعراء، وكانت المراكز العلمية فيهما

---

١) انظر الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، للدكتور أحمد أحمد بدوي، وانظر كذلك الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، للأستاذ محمد سيد كيلاني.

مجالا لذيوع الشعر وتربة صالحة لازدهاره . ليس هذا فحسب بل إن الأقاليم الأخرى قد ظفرت بنصيب لا بأس به من الشعراء ، وقد اجتمع هؤلاء حول حكام هذه الأقاليم الذين كانوا يتشبهون بالسلاطين .

ويمكن أن نقـول إن أعظم الأدباء قد نشأوا فى ذلك العصر ، وكان منهم من ينحدر من العـرب الخلص ، ومنهم من ينحدر من الأتراك أو الأكراد أو القبط ، وقد تعددت ألوان هؤلاء الشعراء واختلفت مذاهبهم . فمن شعراء جعلوا الشعر وسيلة يعبرون بها عما يجول فى نفوسهم من عواطف وأحاسيس لا يطلبون على شعرهم مـالا ولا جزاء ، وهـؤلاء هم الشعراء من السلاطين والملوك والأمراء والوزراء .

وهناك جماعة آخرون من الشعراء اتخذوا الشعر حرفة لهم يعيشون على ما يدره عليهم من رزق قليل أو كثير . وهؤلاء هم الشعراء المداحـون الذين كانوا يمدحون السلاطين والملوك والأمراء ، ومما لا شك فيه أن هؤلاء الشعراء قد اعتمدوا على الشعر للتكسب .

والذى يهمنا أن نشير إليه هنا هو أن هذه الطبقة من الشعراء قد كثرت وتعددت ، وذلك لما رآه الشعراء من السلاطين والرؤساء من تشجيع وإقبال ولعل هذا هو السبب فى أن جماعة من الشعراء قد انقطعوا لهـــذا اللون من الشعر ، وأخذوا يتطلعون إلى الكسب وطلب المال عن طريق المديح ، وشاعت من ثم نغمة الطلب الصريح .

ولنستمع مثلا إلى قول ابن التعاويذى (١) :

أترضون يا أهل بغداد لى ... وعنكم حديث الندى يسند
بأنى أرحل عن أرضكم ... أجوب البلاد وأسترفد
ألا رجل منكم واحد ... يحركه المجد والسؤدد
يقلدنى منه يسترق ... بها حر شكرى ويسترفد
ويغضب لى غضبة مرة ... يعود بها المصلح المفسد
لقد شاننى أدبى بينكم ... كما شين باللحية الأمرد
أما لى فيكم سوى « شعره ... رقيق وخاطره جيد »
يسركم أن يغنى به ... ويطربكم أنه ينشد
وأقسم أن رغيفا لدى ... من قولكم جيدا أجود (٢)

---

١) سبط ابن التعاويذى ، أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن التعاويذى ويسمى سبط بن التعاويذى . وكان كاتبا بديوان المقاطعات ، وكان شاعر العراق فى وقته ، اجتمع به العماد الأصبهانى وصحبه وقتا من الزمن ، ثم انتقل إلى الشام ، والتحق بصحبة صلاح الدين الأيوبى وأخذ يمدحه ، كما اتصل بعون الدين بن هبيرة الوزير العباسى ومدحه ، وشعره متعدد الألوان ، إلا أن المديح غالب عليه ، كما أن أسلوبه يغلب عليه الطابع القديم .

وشعر أبى الفتح غرر ، وديوانه كبير يقع فى مجلدين ، وقد جمعه بنفسه وقد ذكر ابن خلكان أنه توفى عام ٥٨٤ هـ « انظر وفيات الأعيان ، طبعة محى الدين عبدالحميد ، مصر ١٩٥٢ م : ٤ / ٩٠ وانظر كذلك الروضتين » .

٢) ديوان ابن التعاويذى ص ١٢٩ عن : الأدب فى العصر الأيوبى ، =

ونلاحظ فى هذا العصر أيضا أن كثيرا من الناس قد تعلقوا بالشعر ، وصار لهم هواية محببة يلجأون إليه فيودعونه مايريدون التعبير عنه من مكنونات نفوسهم ، أو يتبادلون به التهانى والرسائل ، أو يتخذونه وسيلة للتسلية والمتعة فى مجالسهم وأسمارهم .

وكان من بين من نظموا الشعر فقهاء ، وعلماء ، وجنود ، وقواد ، وأناس من عامة الشعب (١) . بل إن كثيرا من العلماء كان يرى فى التأدب بقول الشعر مايرفع من شأنهم ، ويزيد من قدرهم ، ويرقى بمكانتهم فى أنظار معاصريهم (٢) وبناء على ذلك رأينا طوائف كثيرة من رجال الفكر والمثقفين يقرضون الشعر ، ويحرصون على أن يكون لهم شعر يروى . ومن هؤلاء تاج الدين الكندى ، وابن دقيق العيد .

كما كان من بين الشعراء رجال من العامة طبعوا على قول الشعر ، وكانوا من أصحاب الحرف أو من الجند . ومن كبار شعراء ذوى الحرف فى ذلك العصر أبو الحسين الجزار ، وسراج الدين الوراق .

وإذا كان هذا العصر قد شهد طائفة من الحكام والملوك والسلاطين ، قد توارثوا الملك والسلطان فإنه قد ظهرت أيضا أسر توارث بنوها الشعر كأسرة

= الدكتور / محمد زغلول سلام ص ٢٣٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .

١) انظر مزيدا من ذلك فى : فوات الوفيات « الجـزء الثانى » ، والنجوم الزاهرة ، الأجزاء : ٦ ، ٧ ، ٨ .

٢) انظر الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، للدكتور أحمد أحمد بدوى .

بنى منقـذ فى الشام (١) ، وأسرتى بنى عرام وابن الزبـير فى مصر (٢) ، ليس هذا فحسب بل إن هناك أسرا كانت تفعل فعل الحـــكام والملوك ، فتداول أبناؤها حماية الشعر والشعراء ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، ومن هذه الأسر أسرة بنى الـكنز (٣) .

.. وعلى هذا فليس بعجيب أن يكثر عدد الشعراء فى ذلك العصر كثرة تلفت النظر ، فقد ظهرت أعداد كبيرة من الشعراء ، واحتفظت المراجـع التاريخية والأدبية فى ذلك العصر بالـكثير من الشعر ، وكان لجمهرة غفـيرة من شعراء العصر دواوين شعرية أثبتهـا لهم مؤرخوهم ، لـكن مابقى من هـذه الدواوين ليس يكفى لأن يلقى الضوء الساطع على الحركة الأدبية التى سـادت العصـــر .

خامساً : أسبـاب دينية :

وكان إلى جانب الأسباب السابقة سبب جـــديد ظهر فى عصر الحروب الصليبية ، وهو التعصب للدين الإسلامى ، ذلك التعصب الذى تؤرث ناره تلك الضغينة على الصليبيين الذين دفعهم حقدهم اللامحدود وتعصبهم الدينى المقوت إلى الإغارة على بلاد المسلمين والمبالغة فى أذى السكان والانتقام الفظيع منهم .

---

١) انظر معجم الأدباء ، الجزء الخامس .

٢) انظر الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، لـكمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوى ص ١٩٨ وما بعدهـا . المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٢ هـ .

٣) انظر المصدر السابق ص ١٣ .

وإن من يتتبع دواوين شعراء هذا العصر يجدها زاخرة بالشعر الدينى الذى يحرض على القتال ، ويهنىء بالنصر ، ولم يكن شعراء المسلمين يكتفون بإظهار فرحهم بالنصر ومدح ملوكهم وقوادهم الذين تم على أيديهم ذلك ، بل إنهم أرسلوا بشعرهم إلى النصارى يفتون فى أعضادهم ، ويظهرون بهم الشماتة (١) وكان هذا الشعر يفيض من قلب كل مسلم ، لأنه يحكى انتصارا للإسلام على الشرك ، وحماية للوطن ، وذودا عن أهله (٢) .

وهناك أمر آخر نريد أن ننبه إليه وهو أن هـــذا الشعر قد لبس ثوب الحقيقة ، واتصل بالواقع أتم اتصال ، ولذلك صارت له روعة ، ودبت فيه حياة لم تكن تعهد قبل ذلك فى الشعر العربى .

---

١) انظر حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ص ٤٦ .

٢) انظر ماقاله ابن خلكان فى فتح صلاح الدين لبيت المقدس : الوفيات « الجزء الثانى » .

الفصـــل الثـــانى

موضـــوعات شعر الجهـــاد

أولا : شعر الدعوة إلى الجهاد .

ثانياً : تصوير المعارك الحربية .

ثالثاً : مدح أبطال الحروب الصليبية .

رابعاً : التأسف والتحسر على ما أصاب المسلمين .

خامساً : الفخر والحماسة .

سادساً : الرثاء .

سابعاً : تهديد الأعداء .

ثامناً : الهجاء .

فى الحقيقة نحن لن نتحدث عن أغراض الشعر بصفـــة عامة ، ولكننا سنتحدث عن الأغراض والفنون التى لها علاقة بالحرب والجهاد فى ذلك العصر وهذه الأغراض ترجع دون شك إلى أصل واحد هو الجهاد والحض عليه ، والدعـــوة إلى حماية الإسلام والمسلمين ، وما يتصل بذلك من إبراز فضائل الشجاعة والنخوة ، والبطولة ، والرثاء ، ووصف المعارك وآلات الحــــرب والحصون وما إلى ذلك (١) .

وتتمثل هذه الأغراض فيما يلى :

أولا : شعر الدعوة إلى الجهاد :

مما سبق يتبين لنا أن الصليبيين فى الغرب المسيحى قد أقبلوا بكل جحافلهم وبكل ما أوتوا من قوة إلى بلاد المسلمين لا لشىء سوى الطمع فى غزو تلك البلاد ، واحتلال مقدساتها ، وسلب خيراتهـا ، وقد أدت هذه الحروب إلى ظهور شعر الجهاد .

وليس من شك فى أن الحروب الصليبية التى دامت زهاء قرنين من الزمان قد أحدثت أثرا بارزا فى الناحية الأدبية بصفة عامة ، وفى الشعر بصفة خاصة كما أحدثت آثارا سياسية واجتماعية وغير ذلك .

وشعر الجهاد هو الشعر الذى يحرض على قتال الإفرنج ، ويحث على جهادهم

---

١) ونحن بذلك نخالف الأستاذ محمد سيد كيلانى فى تقسيمه لأغراض الشعر فى عصر الحروب الصليبية وانظر له : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ص ٢٠٨ وما بعدهـا . مطبعة دار الكتاب العربى سنة ١٩٤٩ م ، .

ويستنهض همم المسلمين فى هذه الأوقات الحرجة التى مرت بمصر والشام إلى دفاع العدو .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن شعر الجهاد الذى أثمره الصراع بين المسلمين والصليبيين يعد تراثا ضخما فى أدبنا العــــربى ، وهو - وإن امتدت العوامل الفعالة فى نهضته وازدهاره إلى غيره من العصور السابقة واللاحقة - يعد مرآة لفترة حرجة فى حيــــاة المسلمين ، فترة شهدت صراعا أشد عنفا وأطول مدى . والحق أن هذا الشعر كان عاملا أساسيا وقويا ، وقد قام بدور فعال فى الدعوة إلى الجهاد وتحميس الجيوش ، ورفع الروح المعنوية للمقاتلين الأمر الذى أدى إلى تغيير مجريات تلك الحروب وتحول مسارها ، مما أثر على حيـاة المسلمين وواقعهم .

ولا شك أن قرائح الشعراء فى هذا العصر هى التى هيأت لخدمة هذا الضرب من الشعر ، فالصراع الذى ساد العصر هو الذى دفع الشاعر إلى أن يخوض فى شعر الجهاد ، وقد نبغ فى هذا بفضل القرائح الفذة شعراء فحول استطاعوا أن يفوقوا غيرهم .

وقد واكب شعر الجهاد أحداث الحروب الصليبية وعاش أكثر مراحلها ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذا الشعر قد استمر قويا ومؤثرا حتى انهزم الصليبيون وخرجوا نهائياً من بلاد المسلمين ، وقد حمل شعراء الجهـاد على عواتقهم عبء الدعـوة إلى الجهـاد ، ومقاومة المحتلين ، وتوحيد القوى الإسلامية لمقاومة الغزاة المحتلين وطردهم . . والواقع أن الدعوة إلى الجهـاد كانت لب الشعر فى هذه الفترة ، وكانت المنطلق الذى اتخذه الشعراء بابا لكل

المعانى والأفكار التى عالجوها فى شعرهم .

هذا وتتمثل الدعوة إلى الجهاد فى مظاهر مختلفة منها :

* التذكير بحروب المسلمين السالفة ، والإشادة بما أبلاه المجاهدون فى هذه الحروب من بلاء حسن .

* تثبيت المقاتلين وحثهم على الجهاد ودعوتهم إلى الاستبسال فى القتال .

* مدح العظماء والقواد الذين كان لهم الفضل فى مكافحة الغزاة الصليبيين .

* حث الذين لم يشاركو فى الجهاد على المشاركة ، واغتنام الفرصة وكسب الأجر العظيم فى الجهاد .

* الشعور بالأسى واللوعة لما أصاب المسلمين .

وكان ابن الخياط (١) من أوائل الشعراء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الجهاد وكان يستنهض الهمم لمقاومة الصليبيين ، فحينما بلغه خبر غزو الصليبيين لبلاد المسلمين قال قصيدة طويلة مؤثرة ، خاطب فيها عضد الدولة قائد جيوش دمشق وأخذ يحثه فيها على الجهاد فى سبيل الله ومقاومة المعتدين .

---

١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن على الثغلبى ، ولد عام ٤٥٠ ه بدمشق ، وهو شاعر دمشقى مشهور ، وله ديوان شعرى مطبوع فى دمشق بتحقيق خليل مردم ، وهو من كبار شعراء عصره ، وقد انتقل إلى حماة وحلب ثم طرابلس ليمدح أمراء المنطقة ، وتوفى فى دمشق فى الحادى عشر من شهر رمضان عام ٥١٧ ه ، انظر وفيات الأعيان ، وخريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، وشذرات الذهب لابن العماد ، والعبر للذهبى ، .

يقـــول (١) :

فدتك الصواهل قبـا وجردا   وشم القبـــائل شيبا ومردا
وذلت لأسيافك البيض قضبا   ودانت لأرماحك السمر ملدا
أنوما عـــلى مثل الصفـاة   وهزلا وقد أصبح الأمر جلدا؟
وكيف تنامون عن أعين   وترتم فأسهرتمـوهن حقـداً ؟
بنو الشرك لاينكرون الفساد   ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسـا   ولا يتركون من الفتك جهدا
فـــكم من فتاة بهم أصبحت   تدق من الخوف نحرا وخدا
فحـاموا عن دينـكم والحريم   محاماة من لايرى الموت فقدا
وسدوا الثغور بطعن النحور   فمن حـق ثغر بـكم أن يسدا
فلا بد من حـــدهم أن يفل   ولا بد من ركـنهم أن يهدا
فمـا ينزع اليوم عنـــه الحـديد من رام أن يلبس العز عزا
وأيسر ما كابدته النفـــوس   من الأمر ما لم تجـد منه بدا

وقد استولى الإفرنج على بيت المقدس عام ٤٩٢ ه وارتكبوا عـــلى هذه الأرض المقدسة أفعالا شنيعة ، وحينئذ تأججت عواطف المسلمين ، واشتد الحزن بهم على اقتطاع قطعة من أرضهم هى أولى القبلتين ومسرى نبيهم ﷺ وأخذ شعورهم بالأسى والحزن يقوى ويشتد يوما بعد يوم .

---

١) ديوان ابن الخياط ص ١٨٢ تحقيق خليل مردم ، طبعـة المطبعة الهاشمية بدمشق ونشر مجمع اللغـة العربية فى دمشق عام ١٣٧٧ ه ١٩٥٨ م وانظر كذلك الروضتين ١ / ٥٨ .

وقد عبر الشعراء عن هذا الإحساس ، فقالوا شعرا يقطر بالأسى واللوعة ويفيض بالعبرة ، ويدعو إلى الانقضاض على الغزاة وأخذ الثأر منهم وطردهم عن المدينة واستردادها (١) .

ومن الشعراء أبو المظفر الأبيوردي ، وقد وصف تفرق المسلمين واستيلاء الصليبيين الغـــزاة على القدس الشريف عام ٤٩٢ هـ يقول (٢) في أبيات له :

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرصة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بنى الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم	ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى	توارت حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا	وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة	تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سن نادم

١) انظر أدب الدول المتتابعة عصـــور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، للدكتور عمر موسى باشا ص ٢٩٦ طبع دار الفكر الحديث الطبعة الاولى عام ١٩٦٧ م .

٢) ديوان الأبيـــوردى ٢ / ١٥٦ والكامل فى التاريخ ١٠ / ٢٨٥ والبداية والنهاية ١٢ / ١٥٦ .

ومنها أيضا قوله :

فليتهم إذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم

دعوناكم والحرب ترنو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا غارة عربية تطيل عليها الروم عض الأباهم

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

ومن الملاحظ أن قصيدتي « ابن الخياط » و « الأبيوردي » قد نظمتا في بداية الحروب الصليبية وفي وقت كان المسلمون في وضع لا يحسدون عليه ، فقد تفرقوا أمما وأحزابا ، وانقسم حكامهم واختلفوا فيما بينهم حتى صاروا في أمس الحاجة إلى من ينتشلهم من هذا الوضع المتدني ، ويذكرهم بجهاد السلف الصالح وكيف حملوا على عواتقهم الدعوة إلى الجهاد وتوحيد صفوف المسلمين ..

والحقيقة أن شعراء الجهاد قد أدوا دورهم على أحسن حال ، واستمروا يحرضون المسلمين على الجهاد ويستحثونهم عليه حتى تمكنوا أن يحرروا بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ وكانت لقصائدهم آثار واضحة في إذكاء حمية الجهاد في

نفوس المسلمين .

وكانت انتصارات المسلمين فى المعارك الحربية التى يقومون بها مثار غبطة فى نفوس الأبطال ، ومصدر بهجة لهم ، وكان يسر الأبطال أن يستمعوا إلى تسجيل أفعالهم ، وإلى التغنى بالوقائع الحربية الناجحة ، وإبراز الصفات لأولئك القواد والأبطال لإذكاء روح الجهاد والتضحية فى صدور الجند الذين يذودون عن الإسلام ، ويدافعون عن الديار الإسلامية ، ولتثبيت الأقدام فى المعارك المتصلة فى سبيل الحفاظ على الأرض وعلى الكيان المهدد بجحافل الصليبيين .

ومن الشعراء الأبطال الذين حثوا على مواصلة الجهاد الملك الصالح طلائع ابن رزيك الوزير المصرى (١) ، وأسامة بن منقذ (٢) ، فقد تغنى هذان الشاعرا بانتصارات المسلمين ، وأخذا يستنهضان الهمم فى سبيل دفع العدوان

---

١) هو الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر فى زمن الفائز ، وقد استمر فى وزارته حتى قتل سنة ٥٥٦ هـ وله ديوان شعر ، « انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأحمد بن محمد بن خلكان ، تحقيق الدكتور / إحسان عباس ، طبعة مطبعة الغريب فى بيروت بدون تاريخ ٢ / ٥٢٦ » .

٢) أسامة بن منقذ « ٤٨٨ - ٥٨٤ هـ » هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن منقذ الفارس الشجاع ، والشاعر والمؤلف الشهير . ولد بشيزر « قرب حماه بسوريا » عام ٤٨٨ هـ لأسرة عريقة ، وتربى على الشجاعة والعلم ، ونبغ فى الحرب فكان من القادة العظام ، وله شعر يعد سجلا حافلا بالبطولات ، وقد شارك بشعره كما شارك بسيفه فى مقاومة الصليبيين =

الصليبي ، كما تغنى كل منهما بما كان له من دور فى سبيل صد المعتدين الغزاة .

ومن أروع ما كتبه طلائع بن رزيك مفتخرا فيه بما أحرزه جيشه من انتصارات على جيوش الفرنج ، وقد أرسل طلائع بشعره هذا إلى أسامة بن منقذ لكى يطلع نور الدين عليه ، رغبة منه فى أن يتفق نور الدين معه فى الهجوم على العدو من الشمال والجنوب حتى يتم حصار العدو بينهما .

يقول طلائع (١) :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم	وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طور عزهم	وليس سوى سمر الرماح سلالم

= وله ديوان شعرى ضخم حققه الدكتور / أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد وقد خلف فى التأليف ثروة علمية ضخمة . وهو يمثل المذهب القديم فى الشعر ، وكان القائد صلاح الدين الأيوبى يحب أن يقرأ كثيرا فى ديوانه وقد مدحه بالبيان والشعر والفروسية الشاعر طلائع بن رزيك فقال :

ولك الرتبة العليا فى الأمرين مذ كنت تشب الحروب

أنت فيها الشجاع مالك فى الطعن ولا الضراب يوما ضريب

وإذا ما قرضت فالشعر المغلق فيما تقوله والخطيب

« الروضتين ١ / ١١٨ مصر ١٢٨٨ هـ » وقد توفى أسامه فى دمشق عام ٥٨٤ هـ « انظر ترجمة أسامه فى وفيات الأعيان » الجزء الأول ، وانظرها أيضا فى معجم الأدباء » .

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، الدكتور / أحمد بدوى ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .

وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها ... ويوطا حماها، والأنوف رواغم

ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم ... وإن بذلت فيه النفوس الكرائم

نذرنا مسير الجيش فى صفر ، فما ... مضى نصفه ، حتى انثنى ، وهو غانم

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا ... مفاوز ، وخد العيس فيهن دائم

وناهيك من أرض الجفار إذا التظى(١) ... بجنبيه مشبوب من القيظ جاحم

وصارت عيون الماء كالعين عزة ... إذا ما أتاها العسكر المتزاحم

فما هاله بعد الديار ، ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم

ويقول فى القصيدة نفسها :

خيول إذا ما فارقت مصر تبتغى ... عدا فلها النصر المبين ملازم

جيوش أفدناها اعتزاما ونجدة ... فطاعتنا منهم ، ومنا العزائم

إذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس ... وإن جردوا الأسياف فالثغر باسم

ولما وطوا أرض الشآم تحالفت ... فأضحت جميعا عربها والأعاجم

وواجههم جيش الفرنج بحملة ... تهون على الشجعان منا الهزائم

فلقوهم زرق الأسنة ، وانطووا ... عليهم ، فلم ينجهم من الكفار ناجم

يشبههم من لاح جمعهم له ... بلجة بحر موجها متلاطم

وحسبك أن لم يبق فى القوم فارس ... من الجيش إلا وهو للرمح حاطم

وعادوا إلى سل السيوف فقطعت ... رؤوس ، وحزت للفرنج غلاصم

وتسرى لهم آراؤنا وجيوشنا ... بداهية تبيض منها المقادم

نقتلهم بالرأى طورا ، وتارة ... تدوسهم منا المذاكى الصلادم

---

١) الجفار : أرض بين مصر وفلسطين .

وما الحازم المحمود إلا الذى يرى مع العزم فى أحواله وهو حازم
وقد غرق الكفار منه بقطرة سحاب انتقام عندنا متراكم
فكيف إذا سالت عليهم سيولنا وجاشت لنا تلك البحار الخضارم
وما نحن بالإسلام للشرك هازم ولكننا الإيمان للكفر هادم

ومما كتبه الشاعر أسامه بن منقذ يفتخر فيه بمعاركه التى خاضها ضد الصليبيين، ويتباهى بشجاعته فى ميدان القتال قوله (١) :

سل بى كماة الوغى فى كل معترك
يضيق بالنفس فيه صدر ذى الباس
ينبئوك بأنى فى مضايقها
ثبت، إذا الخوف هز الشاهق الراسى
أخوضها كشهاب القذف يصحبنى
عضب كبرق سرى، أو ضوء مقباس
إذا ضربت به قرنا أنازله
أوحاه عن عائد يغشاه أو آسى

وهكذا كان الصراع الطويل الذى قام بين الصليبيين والمسلمين عاملا قويا فى اتساع آفاق هذا الشعر وفى تعدد مناحيه، حتى جاء غنيا بالمعانى الحربية، ومعبرا أصدق تعبير عن المعارك والوقائع التى شهدها العصر، وإن كان قد جاء فى بعض الأحيان ممزوجا بأغراض شعرية أخرى، حتى صارت جل القصائد ممزوجة بالمدح والفخر والرثاء .

---

١) لباب الآداب، لأسامة بن منقذ ص ١٩٥ طبعة مصر ١٩٣٠ م .

فالصلة إذن بين شعر الجهاد وبين الأحداث السياسية فى هذا العصر صلة قوية ووثيقة بل إنهما متلازمان ، لأن شعر الدعوة شعر يدور حول وصف أحداث العصر ، ويعبر عن الصراع وما يدور فيه من أحداث ووقائع (١) .

وأكبر الظن أن هذا الصراع كان من أقوى العوامل فى نهضة الشعر فى عصر الحروب الصليبية بصفة عامة ، وكان أشد هذه العوامل قوة فى نهضة شعر الدعوة إلى الجهاد بصفة خاصة ، فهو ينبوع ثر له ، ولو لم يكن الصراع لما كان ذلك الضرب من الشعر !! وهذا كله يجعلنا نقول إن شعر الدعوة إلى الجهاد الذى أفرزه عصر الحروب الصليبية يمتاز بأنه وليد مواقف وصراعات حقيقية وقعت بالفعل . وفوق ذلك فهؤلاء الشعراء الذين تغنوا بهذا الشعر كثيرا ما كابدوا الحروب وعانوا شدائدها ، فلم يقولوا الشعر وهم بعيدون عن الحرب ، ولم يسجلوا وقائعها دون أن يكون لهم عهد بها كما كان يفعل معظم شعراء الأمم الأخرى . والشعراء كانوا مدفوعين لهذا الضرب من الشعر بدافع من الروح الإسلامية ، فهم يدافعون عن الإسلام ، ويبتغون فى الدين المثل الأعلى والغاية السامية . يضاف إلى ذلك أن شعر الجهاد فى أغلب أحواله كان يخاطب المشاعر والوجدان ، الأمر الذى يجعلنا نقول إن شعر شعراء العصر قد خرج نتيجة لهذا تعبيرا عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، ولهذا فمن السهل على من يقرأ أشعارهم أن يتبين منها قوة مشاعرهم الدينيـــة ، وأن يرى فى

---

١) انظر البيئة السياسية المصرية فى عصر المماليك وأثرها فى الشعر ، للدكتور محمود رزق سليم « مذكرات غير مطبوعة » ، وانظر كذلك صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه للدكتور أحمد أحمد بدوى .

مجموع شعرهم صورة جند المسلمين المثالية وما تميزوا به من طول جهاد وصبر .

ثانياً : تصوير المعارك الحربية :

لاشك أن عصر الحروب الصليبية عصر ينطوي على أحداث كثيرة وخطوب جسيمة ، فليس في حياة المسلمين في هـذا العصر ساعة تخلو من خطورة أو من تخطيط وحروب ، ولا شك أن هذه الحياة الخطيرة الرهيبة ليست سهلة ولا ميسورة .

ومن أغراض شعر الجهاد وموضوعاته الهامة ما أبدعه شعراء العصر من شعر يصفون فيـه المعارك التي خاضها المسلمون ضد الغزاة الصليبيين . فقد رسموا صورا شعرية نابضة بالحركة والحياة للمعارك الفاصلة ، وتحدثوا كذلك عن مختلف مشاهد القتال ، وبعض الأدوات التي تستعمل فيه ، كما وصفوا سقوط حصون الصليبيين ، وأدوات الحصار ، وتطاحن الجيوش ، ووصفوا كذلك الخطط الحربية ، ووسائل الدفاع والهجوم ، والأسرى ، وما إلى ذلك ، كما وصفوا مدى ما وصل إليه حال المسلمين من بؤس وتدهور في بداية الحروب الصليبية .

ونحن نجد هذا التصوير واضحاً بصفة خاصة في المعارك الكبرى كمعركة حطين ، ومعركة فتح بيت المقدس ، وحصار عكا ، وأسر لويس التاسع في دمياط ، وهو واضح أشد مايكون الوضوح في شعر ابن القيسراني (١) وفي شعر الشاعر الفارس أسامة بن منقذ ، وفي شعر الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير المصري .

---

(١) ابن القيسراني ٤٧٨ - ٥٤٨ هـ ، هو أبو عبد الله شرف الدين محمد بن =

ويحكى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير المصرى كان يكتب القصيدة ويرسلها إلى أسامة بن منقذ فى الشام ، وكان أسامة يرد عليه بقصيدة أخرى تشترك مع قصيدته فى الوزن والقافية ، ويأخذ يصف فيها بعض معارك المسلمين التى انتصروا فيها بقيادة نور الدين زنكى .

ومن هذه القصائد قصيدة يصف فيها جهاد نور الدين ، ويعدد معاركه التى شارك فيها ضد الصليبيين ، وقد نظمها ردا على قصيدة لطلائع بن رزيك طلب منه فيها حث نور الدين على مواصلة الجهاد ، والاستمرار فى استرداد بلاد المسلمين من أيدى الغزاة الصليبيين (١) .

ومطلع هذه القصيدة :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر * لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

= نصر المخزومى المعروف بابن القيسرانى . ولد فى عكا بفلسطين عام ٤٧٨ هـ وانتقل إلى دمشق ، وقد تتلمذ فى الشعر على ابن الخياط ، وأخذ يتنقل فى الشام والعراق يمدح الخلفاء والأمراء والقادة . وقد اتصل بنور الدين محمود وأعجب ببطولته وبيلائه فى الحروب الصليبية ، وقد مدحه وصور أحداث عصره فى شعره ، وشعره سجل حافل بأحداث الحروب الصليبية وقد توفى بدمشق عام ٥٤٨ هـ . انظر ترجمته وشعره فى : وفيات الأعيان ومعجم الأدباء ، والروضتين » .

١) انظر القصيدة فى ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور / أحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد الحميد ص ٢٠١ طبع المطبعة الأميرية بمصر ، ونشر وزارة المعارف العمومية بمصر عام ١٩٥٣ م .

وقد صور الشاعر أسامة بن منقذ (١) فى هذه القصيدة جيش المسلمين بأنه هو المنتصر دائما ، وأنه يسير إلى أعدائه وهو مظلل بالطيور الجارحة التى تبحث عن قوتها وغنائمها التى تجدها دائما فى جثث الأعداء ، وما ذلك إلا رمز للنصر الدائم الذى يلازم جيش المسلمين .

ويأخذ يصف الجيش بعدة أوصاف أخرى كلها تدل على القوة والبأس ، ثم يذكر أن المسلمين بلغوا فى جهادهم درجة جعلتهم يرون الخلود فى الموت ومن ثم فهم يتطلعون إلى هذا من كل قلوبهم ، يقول :

نسير إلى الأعداء والطير فوقنا ... لها القوت من أعدائنا ولنا النصر
فبأس يذيب الصخر من حر ناره ... ولطف له بالماء ينبجس الصخر
وجيش إذا لاقى العدو ظننتهم ... أسود الشرى عنت له الأدم والعفر
ترى كل شهم فى الوغى مثل سهمه ... نفوذا فما يثنيه خوف ولا كثر

ويقـــول عن أسر الجوسلين أحد قادة الصليبيين :

ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن ... ليخشى من الأيام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعـــه ... بمال وكم ظن به يهلك الغر
فلمــا استبحنا ملكه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه نبغى الأجر فى فعلنا به ... وفى مثل ماقد ناله يحرز الأجر

ويذكر العديد من المعارك التى انتصر فيها المسلمون فيقول :

فتحنا الرها حين استباح عداتنا ... حماها وسنى ملكها لهم الختر (٢)

---

١) انظر أسامة بن منقذ ، للدكتور / أحمد كمال زكى ، سلسلة أعلام العرب ٧٩ ، دار الكاتب العربى بمصر ١٩٦٨ م ، ٢) الختر : الغدر والخيانة

ونحن فتحنا تل باشر بعـــدها	وقد عجزت عنه الأكاسرة الغر
وتل عـــزاز صحبته جيوشنا	فلم تحمه عنا الرجال ولا الجدر

وفى عام ٥٤٤ يهاجم نور الدين زنكى حصن حارم ويتمكن من استرداده وقد أظهر نور الدين فى هذه الموقعة قوة وبسالة نادرتين ، إذ قضى على عدد كبير من الصليبيين .

ويمدح ابن القيسرانى نور الدين زنكى فى قصيدة تذكرنا بقصيدة أبى تمام فى مدح المعتصم عندما فتح عمورية والتى مطلعها (١) :

السيف أصدق أنباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب

يقول ابن القيسرانى يصف انتصارات نور الدين ، وكيف كان جهاده ضد الصليبيين (٢) :

هذى العزائم لاما تدعى القضب	وذى المكارم لاما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها	براحـــة المساعى دونها تعب

ثم يقول بعد ذلك :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضى	وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم	طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه	فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاهـا تقر لهـا	قوائم خانهن الركض والخبب

١) ديوان أبى تمام ، شرح التبريزى ، تحقيق محمد عزام ١/٤٥ مطبعة بيروت

٢) انظر القصيدة فى الروضتين ١ / ٥٨ .

والنقع فوق صقال البيض منعقد   كما استقل دخان تحته لهب
والنبل كالويل هطال وليس له   سوى القوس وأيد فوقها سحب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم   فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجتـــه   لاقى العدا والقنا في كفه قضب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب   يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله   فإنما أنت بحــر لجه لجب

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس فخلد الشعراء هذا الفتح . يقول الشاعر أبو علي الحسن بن علي الجويني حين تم هذا الفتح المبين على يد البطل صلاح الدين (١) :

جند السماء لهـــذا الملك أعوان   من شك فيهم فهـذا الفتح برهـان
متى رأى الناس ما تحكيه من زمن   وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما   لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والإسـ   ـلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم   بأمر من هم للعوان معوان
للناصر ادخرت هذي الفتوح وما   سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا   ل الناس داود هذا أم سليمان ؟
في نصف شهر غدا للشرك مصطلما   فطهرت منه أقطار وبلدان
لو أن ذا الفتح في عهد النبي لقد   تنزلت فيـــه آيات وقرآن

---

١) الروضتين ٢ / ١٠٥ .

وبعد معركة المنصورة الثانية التى انتهت بفوز المسلمين عام ٦٤٨ هـ وهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة ، وما تبع ذلك من أسر ملكهم وأمرائه فى المنصورة . بعد هـــذه المعركة قويت شوكة المسلمين ، وأحس فريقهم بالبأس والقوة ، فأخذوا يعتدون بهذه القوة ويزهون بها . ولعل هذا الشعور بالقوة هو الذى أوحى لشعراء المسلمين أن يهددوا ويتوعدوا ، ويروا أن ذلك هو الوسيلة المثلى لتحطيم قوى الصليبيين المعنوية .

فهذا هو الشاعر ابن مطروح (١) يهدد ويتوعد ، ويمتاز تهديده للصليبيين بالسخرية والتهكم وبخاصة حين نما إلى علم المسلمين أن ملك فرنسا يتهيأ لغزو مصر بعد هزيمة المنصورة .

يقول الشاعر (٢) :

قل للفرنسيس إذا جئتـــه   مقال صدق من قئول فصيح

---

١) ابن مطروح هو جمـــال الدين بن مطروح ، ولد بأسيوط عام ٥٩٢ هـ والتقى فى صباه بصديقه الشاعر البهاء زهير ، ومع ذلك فشعره يختلف عن شعر البهاء زهير فى موضوعاته وفى شكله ، وقد ضمهما بلاط أمير مدينة قوص ابن اللمطى ، والحقيقة أن ابن مطروح قد ظهر نجمه فى ميدان السياسة عنه فى ميدان الأدب « النجوم الزاهرة ٧/٢٧ » وكانت له علاقة قوية بالأمير فخر الدين يوسف ، وقد دخل معه دمشق عام ٦٤٥ بعد قتال الصليبيين . وتوفى ابن مطروح قيل فى آخر عام ٦٤٩ أو عام ٦٥٠ هـ « راجع وفيات الأعيان وشذرات الذهب جـ ٥ والنجوم الزاهرة جـ ٧ »

٢) ديوان ابن مطروح ص ١٨١ طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٨ هـ .

آجرك الله علـى مامضى	من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبتغى أخذها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وحت ، وأصحابك أودعتهم	بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفـا لايرى منهم	إلا قتيل أو أسير جـريح
فـردك الله إلى مثلها	لعل عيسى منـكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيـا	فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخـذوه كاهنـا إنه	أنصح من شق لـكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر ، أو لقصد صحيح :
دار ابن لقمان علـى عهدها	والقيد باق، والطواشى صحيح(١)

ويقول الشهاب محمود الحلبى قصيدة بمناسبة استيلاء الأشرف خليل بن قلاوون على مدينة عكا وآخر ما كان بأيدى الصليبيين ، وإلقائه بهم فى البحر عا ٦٩٢ هـ . وقد كان هذا الحدث يعنى نهاية الصليبيين فى البلاد الإسلامية . يقول الشهاب (٢) :

الحمد لله زلت دولة الصلب	وعز بالترك دين النبى العربى
مابعد عكا وقد هدت قواعدها	فى البحر للشرك عند الله من أرب

---

١) الطواشى : خادم كان يقوم على خدمة الملك الأسير .

٢) الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى ، الدكتور / محمد بن على الهرفى ص ٩٤ ، ٩٥ ، النادى الأدبى بالرياض ، « كتاب الشهر العـدد ١٥ » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

لم يبق بعدها للكفر إذ خربت ... فى البر والبحر ماينجى سوى الهرب

يايوم عكا لقد أنسوت ماسبقت ... به الفتوح وما قد خط فى الكتب

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم ... لله أى رضـى فى ذلك الغضب

وأشرف المصطفى الهادى البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

مابعد عكا وقد لانت عريكتها ... لديك شىء تلاقيه عـلى تعب

وهكذا نلاحظ أن شعراء المسلمين لم يفتهم أن يصفوا المعارك الإسلامية الناجحة التى خاضها الجنود المسلمون ضد الغزاة الصليبيين . وقد صور الشعراء تلك المعارك تصويرا رائعا ، كما شمل وصفهم لها وصف ماعليه جيش المسلمين من قوة وصلابة ، الأمر الذى يؤكد أن شعر الجهـاد كان يواكب حركة الفتوحات الإسلامية ، وأنه لم يغفل عنها قط ، وأن الشعراء سجلوا مشاهداتهم وكان كل منهم حريصا على أن يخلد انتصارات المسلمين (١) .

وأغلب الظن أن الشعراء كانوا مسوقين لهـذا اللون من الشعر بدافـع من الروح الإسلامية ، وكان للصراع المحتدم بين المسلمين من جانب والإفرنج من جانب آخر أثره البالغ فى اتساع آفاق هذا الشعر ، وفى تعدد مناحيه ، حتى جاء غنيا بالمعانى الحربية ، ومعبرا أصدق تعبير عن الوقائع التى شهدها العصر وإن كان قد جاء فى بعض الأحيان ممزوجا بأغراض شعرية أخرى ، بيد أن مدار القصيدة كان حـول وصف المعارك سواء أكان مدار القول هو قائد المعركة ، أم كانت حول الجنود وآلاتهم القتالية وما إلى ذلك .

---

(١) انظر أيام صلاح الدين ، للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

فكلما نشبت معركة أو حدث صراع سياسى لأمر ما نجد الشعر يصف تلك المعركة ، ويعبر عن هذا الصراع وما يدور فيه من أحداث ووقائع . . وهذا كله يجعلنا نقول إن شعر المعارك فى عصر الحروب الصليبية يمتاز عن مثيله عند غيرهم ، فهو وليـــد صراعات ومواقف حقيقية وقعت بالفعل ، ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن بعض الشعراء الذين تغنوا بهذا الشعر كثيرا ما كابدوا الحروب وعانوا شدائدهـا ، فلم يقولوا الشعر وهم بعيدون عن الحـرب ، ولم يسجلوا وقائعها دون أن يكون لهم عهد بهـا كما كـان يفعل معظم الشعراء فى المواقف الأخرى .

ويتصل بتصوير المعارك وصف ما يتصل بالحرب وآلات القتال ، ويمكننا الرجوع إلى شعر العصر الصليبى إذا ما أردنا أن نتعرف عـــلى الأدوات المستخدمة فى الحروب آنذاك ، وما كـان فى هذه الحروب من أسباب القتـل والتدمير ، وما كانت تلجأ إليه المدن من وسائل التحصين والدفاع عن النفس وما إلى ذلك .

وينبغى أن نقول إن شعراء العصر الصليبى لم يحبطـوا بأوصاف السلاح وآلات الحرب ، ولم يجيدوا وصف هذه الآلات ، ولم يكثروا من العناية بتصويرها وتصورها لدرجـة تجعلهم يلمون بأشكالها ودقائقها كما كان قبل . إذ المعروف أن الشعراء فى العصر الجـاهلى ، وكذلك فى العصرين الأموى والعباسى ، كانوا يكثرون من تصوير آلات الحرب كـثرة جعلتهم يلمون بدقائقها وأشكالها ، ويستنبطون التشابيه فى ذلك .

والحـق أن ماقاله الشعراء فى وصف آلات الحرب وعدة القتال فى هـذه

العصور يعد تراثا أدبيا يشغل الحياة الأدبية ، وكان كثير من شعراء العصرين الأموى والعباسى يتمثل بتشابيه السابقين فى القتال والنزال ، ووصف آلات الحرب ، كما تشابهوا معهم فى المعانى . وأى شعر فى الحرب وأدوات القتال أشد قيدا ، وأبعد أثرا من شعر الجاهليين ؟ فقصائدهم فيه تمتاز بدقة التصوير وبراء الوصف ، ومتانة الديباجة .

ومما جاء فى وصف الأسطول قول المهذب بن الزبير (١) :

وكأن بحر الروم خلق وجهه　　وطفت عليه منابت المرجان

ولقد أتى الأسطول حين غزا بما　　لم يأت فى حين من الأحيان

---

(١) أبو على الحسن بن على بن الزبير الغسانى ، الأسوانى الأصل ، الملقب بالقاضى المهذب . من الشعراء المشهورين ، جاء إلى القاهرة هو وأخوه أحمد بن على القاضى الرشيد ، فلزم هو الصالح بن رزيك الوزير الفاطمى واختص به ، وقربه الصالح منه ، وأغدق عليه من ماله ، وقد أبدع المهذب فى مدح الصالح ، ووصف مواقعه مع الصليبيين بالشام وعلى الحدود المصرية الشرقية . وكان من كثرة ملازمة المهذب لابن رزيك يتهم بأنه يصنع للوزير شعره ، وإن كان المهذب يثنى على شعر الوزير ويصفه بالبلاغة . واشتهر شعره بالإتقان والجودة ، وكان كاتبا أيضا ، مليح الخط جيد العبارة ، وله كتاب فى الأنساب فى عشرين مجلدا قال عنه ياقوت : « وهو غاية فى معناه لامزيد عليه » « إرشاد الأريب لمعرفة الأديب ٣ / ١٥٨ طبعة الدكتور فريد الرفاعى » سافر من مصر إلى اليمن ، وتوفى عام ٥٦١ هـ .

أحبب إلى بها شوانى أصبحت ... من فتكها ولها المداة شوانى
شبهن بالغربان فى ألوانها ... وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها عدد القتال فقد غدت ... فيها القنا عوضا من الأشطان
فأتتك موقرة بسبى بنيــه ... أسرام مغلولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا ... فى كل بكر عندم وعوان (١)

ويصف القاضى الفاضل أسياف صلاح الدين فيقول (٢):

ماضيات على الدوامى : دوامى ... هى النصر ، نجــدة الإسلام
فى يمين السلطان ، إن جردتها ... أشبهتها صــواعق فى غمام
تنثر الهام كالحروف : فما أشـ ... ـبه هذى السيوف بالأقلام
فى محاريب حربه البيض صلت ... وركوع الظبا سجود الهام

والحقيقة أن الشعراء قد أكثروا من وصف الجيوش وصفا يرينا صليل السيوف ، والتهاب نيران المعركة . وقسوة اللقاء بين المسلمين والكفار .

ومن ذلك قول ابن الساعاتى (٣) :

---

١) خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، قسم شعراء مصر ، تحقيق أحمد أمين وزميليه ص ١١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م .

٢) الروضتين . مطبعة وادى النيل ٢ / ١٢١ .

٣) أبو الحسن على بن رستم بن هردوز . أصله من خراسان . وولد فى دمشق وبها نشأ ، ونهل فيها على يد جماعة من علمائها فى القرن السادس ، كما قرأ كثيرا من دواوين شعراء العرب القدماء جاهليين وعباسيين . واستوعب كثيرا من قصائدهم حفظا . وقد غادر دمشق إلى مصر عام ٥٨٥ هـ =

فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه ... رجال كآساد الشرى وهى ترجف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف ... وأبيض هندى ، ولدن مثقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجف

والواقع أن القصائد التى نظمها شعراء العصر فى وصف المعارك الحـــربية لا تعتبر فى مجموعها مثلا أعلى فى شعر الحرب ، لأن الشعراء لم يشغلوا أنفسهم من أول بيت فى القصيدة إلى آخر بيت فيها بصميم المعارك ، ولكنهم خرجوا فيها عن جادة الموضوع من قريب أو بعيد ، فحاولوا أن يفخروا أو أن يهجوا الأمر الذى يحملنـا نقول إن شعرهم فى الحرب يقصر عن شعر المتنبى فيهـا ، لضعف مستواهم عن مستوى المتنبى فى هـذا الفن الذى تخصص فيه وبلغ فيـه

= حيث قضى بقية عمره ، وعاش فى مصر مع جمـاعة من الشعراء والأدباء المذكورين فى ذلك العصر ، وكان ابن الساعاتى فى أول حيـاته ساخطـا متشائما ، كثير التبرم والهجـوم على حساده والكائدين له من الأعداء ، ولعل ذلك يرجع إلى أن حياته فى دمشق كانت حياة يغلب عليها العوز وشكوى الحاجة . أما حين سافر إلى مصر فإن الحـال قد انقلب به ، إذ تيسرت له سبل العيش ، وصار له بعض الثراء والغنى مما جعـــله يرضى ويكـف عن الشكوى . قال عنه ابن خلـكان « شاعر مبرز فى حلبـة المتأخرين ، له ديوان شعر أجاد فيـه كل الإجادة » « وفيات الأعيـان ٣ / ٧٣ طبعة محي الدين ، مصر ١٩٥٢ م » والأبيات المذكـورة له فى الروضتين ٢ / ١٢ مطبعة وادى النيل .

حدود الذروة (١) فهو - أى المتنبى - أستاذ هذا الفن من الشعر الحـــربى ومبتدعه، وقصائده فى الحرب على درجة رفيعـة فى التصوير من حيث الدقة والبراعة، وإظهار الدقائق من المشاعر التى يدق وصفها ويعز تناولها على كثير من الشعراء النابهين.

فالمتنبى ينقل المعركة نقلا حيا بكل ما فيها من عنف وشدة، وتقتيل ودماء وفر وكر، وانتصارات وهزائم، وغير هذا وذاك مما يجعل المعمعة تحت نظر القارىء حتى يظن نفسه مشتركا فيها أو على الأقل مشاهدا لها.

وربما أن هذا بعينه هو الذى كان وراء فرط إعجاب ابن الأثير بحربيات المتنبى حين قال عنه: «إنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا» (٢).

وأيا ما كان الأمر فشعراء العصر الصليبى معذورون كل العذر، فمستواهم الفنى لا يتلاءم مع ذلك الفن العنيف، وأغلب الظن أنهم ساروا فى هذا الطـــريق بدافع من الروح الإسلامية، ويبدو أن تعصبهم للعقيدة الإســـلامية جعلهم لا يتركون المعارك الإسلامية التى خاضها المسلمون ضـــد الغزاة الصليبيين، ويبدو كذلك أن انتصار قادة المسلمين فى هذه الحروب كان مثار غبطة فى نفوسهم، فحاولوا الإشادة بجهود هؤلاء الأبطال والابتهاج لانتصاراتهم.

---

١) انظر موضوع «شعر الحرب» من كتاب «فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين» تأليف الدكتور مصطفى الشكعة.

٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ص ٣٠٢ طبعة مصر عام ١٣١٢ هـ.

وليس يخفى أن الحرب فى هذا العصر كانت سجالا بين المسلمين والصليبيين إلى أن تم النصر للمسلمين ، وليس يخفى كذلك أن قادة المسلمين وأمراءهم فى هذه الفترة من الزمان كانت لهم أرومة فى الشجاعة ، ومهارة فى الحروب وبراعة فى الكر والفر ، وقد عشقوا الحرب وهاموا بها ، وقد عاشوا جميعا يقودون الجيوش ، ويخوضون المعامع ، ويتعقبون الصليبيين فى كل مكان .

فإذا كانت هذه طبيعتهم من حب للحرب وعشق للشجاعة وفناء فى المعارك وذلك بالإضافة - كما سبق أن قلنا - إلى ما عرف عنهم من الإكرام للشعراء ، أدركنا أنه من الطبيعى أن يصف الشعراء معاركهم ، فإذا ما انتصر القائد المسلم وصف الشعراء المواقع التى انتصر فيها ، كما وصفوا التحام الجيوش واقتحام الصفوف ، وتخريب المدن (١) وإذا ما انهزم القائد حاول الشعراء من جانبهم أن يخففوا من وطأة الهزيمة ، وأن يلتمسوا له الأعذار .

ومجمل القول فى هذا الباب أن الشعراء قد ساروا فيه على منوال من سبقوهم من الشعراء غير أنهم لم يكثروا فى هذا الفن إكثار المتنبى ، ولم يجعلوه فنا مستقلا إلا فى النادر ، وإنما خلطوه بأشعارهم فى الفخر ، وهم وإن كانوا قد شاركوا فى هذا الفن إلا أنهم لم يرتفعوا إلى مصاف كل من أبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، على أن ذلك لا يمنعنا من أن نقول إن الشعر العربى قد أضيفت إليه بقصائد هؤلاء جميعا قصائد حربية وصفت الحرب وأدواتها ومواقعها ، وهذه القصائد وإن هبطت فى مستواها عن أخواتها من شعر المتنبى

---

(١) راجع مقدمات العدوان الصليبى ، للدكتور / عمر كمال توفيق ص ١٦٦ وما بعدها ، الاسكندرية ١٩٦٦ م

وغيره من الشعراء الفرسان ، إلا أنها وبما أتت بجديد فى تعدد الصور والأهداف والأفكار .

ثالثاً : مدح أبطال الحروب الصليبية :

وهذا غرض آخر يتصل بشعر الجهاد ، وقد أبدع فيه شعراء العصر وليس من شك فى أنه قد دارت معارك عنيفة بين القواد الصليبيين و بين القواد المسلمين، وكان انتصار قادة المسلمين فى الحروب والمعارك مثار غبطة فى نفوسهم . ومن الأشياء التى كانت تفرح هؤلاء الأبطال أن يستمعوا إلى تسجيل أفعالهم و إلى التغنى بهذه الأمجاد .

وإشباعا لهذه الرغبة فى نفوسهم نجدهم يظفرون من المدح بأوفى نصيب وقد تجمع حولهم عدد كبير من الشعراء ، وأخذ هؤلاء الشعراء يشيدون بجهود هؤلاء الأبطال وجهادهم ، كما يخلدون فى القصائد مآثرهم ، ويسجلون انتصاراتهم ، ويبتهجون طربا بما يذيعون من أنباء نصرهم ، ويحملون بشرى فتوحاتهم إلى أبناء الشعب . ولم لا ؟ ! وهؤلاء الأبطال كافحوا الفرنج كفاحا مجيدا ، واستردوا ما بأيديهم من أراضى مغتصبة ، فلا بد وأن يظفروا من المدح بأوفى نصيب ، وأن يشيد الشعراء ببطولاتهم وقوتهم وسلطانهم ، وأن يغرقوا فى الثناء عليهم ، ويبرزوا سمة الشجاعة والإقدام من بين صفاتهم حتى صار مثلا الحديث عن الشجاعة والتفنن فى وصفها عنصرا من عناصر المدح .

وفى هذا الغرض تمجيد للبطولة والأبطال ، وتخليد للمشهورين من القادة وبيان لما يتحلون به من صفات . وقد كثر هذا الشعر كثرة تلفت النظر فى هذا العصر ، يضاف إلى ذلك أن هذا الشعر يمتاز بأنه مديح صادق ، إذ لم يكن

الدافع إليه فى الغالب طلب المال والعطاء، وإنما الإعجاب بالبطولة والشجاعة فهو مدح يهدف إلى إبراز الممدوح فى صورة المدافع عن ممتلكات المسلمين، الساعى إلى استرداد بلادهم.

والمتتبع لهذا الشعر يجد أن الشعراء لم يضنوا بشعرهم على من حارب الإفرنج من القادة والأبطال، كبيرا كان أم صغيرا، نجح فى معركته أم أخفق فيها، قائدا فى البحر أو فى البر، فقد أقدم الشعراء على مدح كل أولئك فى أعقاب كل معركة يخوضونها وينتصرون فيها، وأخذوا يحيطونهم بهالة من التمجيد والإكبار والإجلال، وكانوا يمدحون هؤلاء القواد فى أعقاب المعارك التى لم يحرزوا فيها انتصارات، وكانوا يقدمون اعتزازات عنهم وما ذلك إلا لكى يقووا عزائمهم للاستمرار فى الجهاد

أما أبطال الفتوح الذين نالوا اهتمام الشعراء، وحظوا بتخليد أشعارهم لأعمالهم الجليلة، فأهمهم عماد الدين زنكى، وابنه نور الدين محمود، والظاهر بيبرس، والأشرف خليل بن قلاوون، ولعل البطل الذى كان أوفاهم نصيبا من ذلك، ونال فى هذا المجال ما لم ينله غيره إنما هو صلاح الدين الأيوبى(١) فقد تبارى الشعراء فى مدحه، وفى بيان شجاعته وما له من أمجاد، وكيف كان سعيه الدؤوب فى سبيل الإسلام. ولم لا وقد يسر الله له فتح بيت المقدس واستطاع أن يضعف شوكة الصليبيين، وأن يمهد لمن جاء بعده الطريق لطارد الصليبيين طردا لا عودة بعده.

---

١) انظر صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه للدكتور أحمد أحمد بدوى.

أما الصفات التى أطلقها الشعراء على الممدوح فكانت تتماق بالجهاد وما يتطلبه من صفات البطولة والشجاعة والتضحية والبذل والعطاء والسماحة وغير ذلك من الأمور التى كان لها أثر على حياة المسلمين وجهادهم . وكان الشعراء يرقبون عن كثب أحداث الحروب الصليبية وأحوال رجالها فيحيطونهم بأجود مايملكون من شعر إذا ظفروا وانتصروا ، ويهنئونهم إذا رجعوا منتصرين ، أو إذا خرجوا من شدة ، أو إذا نجحوا فى سياسة أو خطة وامتلأت صفحات الكتب والدواوين بهذه المدائح وتلك التهانى ومضى الشعراء مبتهجين يذيعون أنباء النصر فى أرجاء العالم الإسلامى ويحملون بشرى الفتوح إلى الخلفاء والولاة والأمراء ، ليذيع ذلك بين أبناء الشعب فتقوى الروح المعنوية فيه ، ويشتد من ثم ساعده فيسدد سهمه إلى المعتدين ، ويحاول أن يقضى عليهم القضاء الأخير .. والحقيقة أن الشعر حين يحيط هؤلاء الأبطال بحبه إنما يجد فيهم أولى ما يجد تكريسهم الجهود لخدمة المسلمين وصيانة الإسلام ، ويشيد بما لأعمالهم من جليل الآثار .

وعماد الدين زنكى من القواد الذين استطاعوا أن يوحدوا صف المسلمين ويزيدوا من حماستهم للجهاد فى سبيل الله ؛ وقد بذل فى سبيل ذلك قصارى جهده ، وتمكن من أن ينتصر على الصليبيين فى أكثر من موقع واستولى على حصون عديدة كانت تشكل خطورة كبيرة على المسلمين كما استولى على مدينة الرها ، الأمر الذى جعله يعيد الثقة لصفوف المسلمين .

ولم يقف عماد الدين عند حد مقاومة الصليبيين ولكنه أخذ يسترجع منهم ما ملكوه شبرا شبرا .

ويذكر المقدسي (١) أنه في سنة ٥٣٢ قد حوصرت قلعة شيزر بواسطة الإفرنج وما أن خرج إليهم عماد الدين وأخذ يتهددهم ويتوعدهم حتى انسحبوا خوفا وفزعا.

وفي هذا الموقف يمدح الشاعر ابن قسيم الحموي عماد الدين بقصيدة طويلة وقد أعجب بما له من سمات البطولة والإقدام، كما صوره لنا بطلا عظيما سله الله ليقضي به على الكفر والطغاة.

يقول منها (٢):

بعزمك أيها الملك العظيم … تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما … تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا … كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه … فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس … تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشا … فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور … توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى … وليس سوى الحمام له حميم
يؤمك أن تجود بها عليه … وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج منك عفوا … وأنت بقطع دابرهم زعيم

---

١) الروضتين ١ / ٣٢.

٢) الروضتين ١ / ٣٢ والكامل في التاريخ ١ / ٥٨ والخريدة، قسم شعراء الشام، ١ / ٤٧٠.

وكم جرعتها غصص المنايا ... بيوم فيه يكتهل الفطيم

ولما أن طلبتهم تمنى الـ ... ـمغية جو سلينهم اللئيم

أقام يطوف الآفاق حينا ... وأنت على معاقله مقيم

فسار وما يعادله مليك ... وعاد وما يعادله سقيم

إذا خطرت سيوفك فى نفوس ... فأول ما يفارقها الجسوم

فالشاعر يمدح عماد الدين مدحا تقليديا يقترن بالفضائل والصفات المعروفة ، وكان مديحه له مرتبطا بفكرة الجهاد والنضال وبما كان لعماد الدين من دور فى تقليص نفوذ الصليبيين وفى كسر شوكتهم .

ويمدح ابن منير الطرابلسى (١) عماد الدين زنكى على ما قام به من فتح حصن

---

(١) هو أحمد بن منير الطرابلسى ، ولد ونشأ بطرابلس الشام ، وتعلم القرآن واللغة والنحو ، وحفظ الشعر ، وهو شاعر موهوب اللسان ، عارف بفنون وأوزان العروض ، وكان والده ينشد الأشعار ويغنى فى أسواق طرابلس ، وهو شاعر قريب فى روحه من روح الأبيوردى ، وقد أخذ عن والده صنعة الشعر وبرع فيه ، وقد مثل مذهب الشعراء القدماء فى الشام ، وإن كان يأتى فى شعره أحيانا بألوان البديع . وأهم ما اشتهر به ابن منير الهجاء ، وهو الطابع الذى يميزه ساعده على التفوق فيه سرعة خاطره وبلاغته . أقام بحلب وقد لزم أمراء شيزر من بنى منقذ والملك بورى بن طغتكين صاحب دمشق ، ثم السلطان نور الدين محمود ، والتقى ابن القيسرانى فى حلب ، وكانت بينهما مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وظلا مقيمين زمانا بحلب ، وهو يقلد أبا تمام فى قصائد كثيرة أوردها له =

بارين فى عام ٥٣٤ هـ وقد تأثر فى قصيدته بقصيدة أبى العتاهية التى أولها :

أتتـه الخــلافة منقادة إليه تجــرر أذيالها

يقول الطرابلسى (١) :

فدتك الملوك وأيامهــا ودام لنقضك إبرامهــا
وذلت لعيشــك أقدامها وزال لبطشك إقدامهــا
أيا محي الدين لما نما ء أيامى الهرايا وأيتامهــا
ومستنقذ الدين من أمة أزال المحاريب أصنامهــا
دلفت لهــا تقتفيك الأسو د والبيض والسمر آجامها
جزرت جــزيرتها بالسيو ف حتى تشاءمها شامهــا
وصارت عـوارى أكنافه متى شئت أرخص مستامها

وعماد الدين زنكى هو بطل الرها ، وقد سقطت فى يده فى جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ من يد جوسلين الثانى البطل الإفرنجى . وبسقوطها فى أيدى المسلمين أبيدت إمارة من إمارات الإفرنج ، وترجع أهميتها إلى موقعها الجغرافى الممتاز ، وقد تلا سقوطها سقوط ما يخضع لها من مدن وقرى ، فهى أول مدينة كبيرة ذات أهمية تسقط فى أيدى المسلمين ، وقد أثار سقوطها فى نفوسهم الآمال فى استعادة ما فقدوه .

= صاحب الروضتين ، وقد توفى فى حلب عام ٥٤٨ هـ وراجع ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ١٣٩ طبعة محي الدين مصر ١٩٥٢ م ، وفى أعلام النبلاء الجزء الرابع .

١) الروضتين ١ / ٣٥ .

وقد مدح ابن منير الطرابلسى عماد الدين ، وأشاد بفتحه المبين للرها وأعجب بما له من بطولة وإقدام فقال (١) :

صفات مجدك لفظ جل معناه فلا أستزد الذى أعطاكه الله
يا صارما ، بيمين الله قائمه وفى أعالى أيادى الله حداه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه
فداك من حاول مسعاك همته
جهلا ، وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادى : ألا موتوا به كمدا
فالله خيبكم ، والله أعطاه

ملك تنام عن الفحشاء همته تقى ، وتسهر للمعروف عيناه
مازال يسمك ، والأيام تخدمه فيها ابتلاء ، يؤدى ماتوخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره قدرا ، وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا وأين عما رووه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج مقطوبة بفتيق المسك رياه
فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتر مبسمه ، واهتز عطفاه
يهدى بمعتصم الله فتكته حديثها نسخ الماضى ، وأنساه

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام للدكتور / أحمد بدوى ص ١٣٧ .

إن الرها غير عمورية ، وكذا ... من رامها ، ليس مغزاه كمغزاه

أخمع الكواكب عزا ما بغى ، أحد ... من الملوك لها وقــــا ، فواتاه

حتى دلفت لها بالعــــزم يشحذه ... رأى ببيت فويق النجم مسراه

مشمرا وبنو الإسلام فى شغل ... عن بدء غرس لهم أثمار عقباه

يامحيي العدل إذ قامت نواد به ... وعامر الجود ، لمــــا ع مغناه

يانعمة الله يستصفى المزيد بها ... للشاكرين ، ويستقنى صفاياه

أبقاك للدين والدنيا تحوطهما ... من لم يتوجك هـذا التاج إلا هو

واقتفى أثر عماد الدين ولده نور الدين محمود ، ذلك الذى تعددت معاركه ضد الفرنج ، وصار شبحا مخوفا أمامهم ، وهو دون شك أحد كبار أبطال الحروب الصليبية .

ومن أعظم القصائد التى قيلت فى نور الدين ، ورسمت صورته وجعلته مطاعا لدى جيشه ، ويعيش الناس فى ظله فى أمن ودعة ، تلك القصيدة التى أنشأها العماد الكاتب . ومنها (١) :

لازلت نور الدين فى فلك الهدى ... ذا غرة للعالمين بها إلهها

يا محيي العدل الذى فى ظلمه ... من عدله رعت الأسود مع المها

محمود المحمود من أيامه ... لبهائها ضحك لزمان وقهقها

مولى الورى ، مولى الندى ، مُعلى الهدى ... مردى العدا ، مسدى الجدا ، معطى اللهى

آراؤه بصوابها مقرونة ... وبمقتضاها دائر فلك النهى

---

١) الروضتين ١ / ١٥٠ مطبعة وادى النيل .

متلبس بصلاحة وحصانة ... متقدس عن ثوب مكر أودها
يا من أطاع الله فى خلواته ... متأوبا من خوفه متأوها
يا من تقدم فى المعاش لوجهه ... عملا يبيض فى المعاد الأوجها

والحقيقة أن القصيدة التى منها هذه الأبيات قصيدة طويلة ، وقد عكست معظم ما يتحلى به نور الدين من صفات ، وكلها صفات تجعله محببا إلى رعيته ، مطاعا لدى جنده ، عظيما فى أعين الناس ، وكان على رأس هذه الصفات صفة العدل ، تلك التى جعلت الناس يعيشون فى ظل هذا البطل فى أمن ودعة .

وقد جمع الله لنور الدين من الصفات ماجعله يتمكن من إضعاف الصليبيين ، وتقليم أظافرهم ، واسترداد كل ما اغتصبوه من بلاد المسلمين ، فهو دون شك شديد اللداد ، وهو أريب بعيد النظر ، وقد منحه الله سبحانه وتعالى رأيا ثاقبا وصفينا ، وعقلا راجحا متينا ، وتقوى لله فى السر والعلانية ، حتى تمكن من أن يسود فى عصره ، وينتصر على عدوه (١) .

والحقيقة أن الوقت قد اتسع أمام نور الدين ، ولذلك نراه يحظى بعناية الأدباء بصفة عامة والشعراء بصفة خاصة ، فكان الشعراء يتغنون بوقائعه ويشيدون بجلالها ، وله فى عقب كل معركة مع الفرنج قصيدة أو قصائد منهم تمجد انتصاره ، وتذيع حميد جهاده ، وتشدو بخلاله وبطولته ، ولبعض الشعراء فيه قصائد طويلة النفس .

---

(١) انظر مقالا للدكتور عماد الدين خليل « نور الدين محمود الطريق إلى فلسطين » ، مجلة العربى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ .

فهذا هو ابن منير الطرابلسي ، يمدحه بقصيدة يقول فيها (١) :

أيا نور دين خبا نوره ومذ شاع عدلك فيه اتقد
رآك الصليب صليب القناة أمين العثار متين العمد
تهم فتسلبه ما اقتنى وتدنى فتشكله ما احتشد (٢)
زبنتهم أمس عن صرخد ففضوا كأن نعاما شرد
ويوم العريمة أقبلتهم عراما يثعلب منه الأسد
حبست مليكهم فى الصفاد وعفوك عنه أعم الصفد
وقبل ازرتهم فى الرها موازق مزقن جرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزمان قياما لأبنائه إن قعد
تثقف من زيغه ما التوى وتصلح من طبعه ما فسد

وفى هذه الأبيات يقول ابن منير إن نور الإسلام قد خبا وذلك لضعف أبنائه وقعودهم عن نصرته والدفاع عنه ، ولكن هذا الدين سرعان ما عاد إلى ماضيه الأول حيث القوة والنصر ، وذلك كله بفضل جهاد وصلابة نور الدين ذلك القائد الذى رآه الصليبيون قويا لا يفل ، وصارما لا يهتز ولا يلين . لقد كنت لهم مصيبة ، إذ مكنك الله من استرداد ما ملكوا من أراضى ، واستطعت أن تلحق بأبنائهم القتل والهلاك ، ويضرب لذلك مثلا بما فعله فى الصليبيين فى صرخد ، حيث أجلاهم عنها ، وجعلهم يتفرقون كالنعام الشارد ، أو بما فعله بهم يوم العريمة حين استطاع أن يحبس مليكهم ثم يطلقه كرما

١) الروضتين ١ / ٢١ .
٢) تدنى : تراوغ .

وتفضلا وعفوا، وبعد هذا كله تمكن نور الدين من تفريق جمع الصليبيين فى الرها . . إنها انتصارات عظيمة خالدة .

ومما أنشأه ابن منير يمدح فيه نور الدين أيضا قوله (١) :

ما فوق شأوك فى العلا مزداد ... فعلام يقلق عزمك الإجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا ... فالشهب أطناب لها ، وعماد
أنت الذى خطبت له حساده ... والفضل ما اعترفت به الحساد
زهرت لدولتك البلاد ، فروحها ... أرج المهب ، ودوحها مياد
وإذا العدا زرعوا النفاق وأحصدوا ... كيدا ، فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها ... جن الملا ، وكأنها أطواد
يهدى النواظر فى دجنة نقعها ... بدر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يانوره ... عزاله فوق السها إسناد
مازلت تسمكه بجياد القنا ... حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه ... عدد يراع به ، ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلما ... حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة ... فلهم إلى المرعى الوبى معاد
ماق بأطراف الفرنجة كلكلا ... طرفاه : ضرب صادق ، وجلاد
حاموا ، فلما عاينوا حوض الردى ... حاموا بانش كيدهم أو كادوا
ورجا البرنس ، وقد تبرنس ذلة ... حرما بحاوم ، والمصاد مصاد

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، الدكتور أحمد أحمد بدوى ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

ضحت ثعالبه ، فأخرس جرسها بيض تناسب فى الحديد حداد
وسواعد ضربت بهن وبالقنا من دون ملة أحمد الأسداد

ويصفه بعض الشعراء بقوله (١) :

ياساهد الطرف والأكفان هاجعة
وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب ، وانحطت بها الصلب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة ماسمت ، والليل معتكر
إلا تمزق عن شمس الضحا الحجب
كنا نعد حمى أطرافنا ظفرا
فلكتك الطبا ماليس نحتسب

---

١) الروضتين ١ / ٥٩ .

عمت فتوحك بالعدوى معاقلها
كأن تسليم هذا عند ذا جرب

لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق
كما التوى بعد رأس الحية الذنب

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب
يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب

وائذن لموجك فى تطهير ساحله
فإنما أنت بحـــر لجـــه لجب

والشاعر هنا يصوره قائدا متمكنا قديرا ، فهو بطل من أبطال الجهاد على رأس جيش قوى كل همه هو إعزاز دين الله ، وهو حاكم يعيش الجميع فى ظله فى أمن ودعة ، ولا يعكر صفو حياة رعيته ظلم ولا خوف ضعافا كانوا أم أقوياء ، وهو قوى شجاع لايهتز أمام الشدائد ، ولا يضطرب أمام مجربات الأحداث والخطوب ، وقد ألهمه الله التوفيق فى حروبه ضد الإفرنج ، فنالهم بكل فتك وتدمير ، وأخذ يجاهدهم ويفتح الفتوح التى يرنو إليها الجميع .

وفق ذلك كله فهو قائد شجاع مثابر ، كانت كل آمال المسلمين قبله أن يحثوا على اجتياز الأزمات . وأن يهونوا من أمرها ، ويشدوا العزائم على التغلب عليها والصبر لها ، حتى تمر وتنقضى ، وكانت أعـــز أمانى المسلمين قبله أن يحافظوا على ما بقى تحت أياديهم من أرض وقفت جنود الفرنج عند حدودها أما هو فقد أعز الله به الإسلام ، وفتح بسيفه الفتوح ومضى إلى ما بقى تحت يد الفرنج من بلاد ، فانقض عليها وقضى على قواها . وحاول أن يستردها إلى

أيدى المسلمين ، وليست فتوحه التى يقوم بها سوى تمهيد لغاية كبرى جليلة ولذلك وضع المسلمون آمالهم فيه أن يوفقه الله فيفتح بيت المقدس ، ويطهر المسجد الأقصى ويرده إلى أيدى المسلمين .

أما صلاح الدين الأيوبى فكان له الحظ الأوفى من الشعر والعدد الأغزر من الشعراء من بين أبطال المسلمين جميعا فى الحروب الصليبية ، وذلك لطول جهاده وكثرة فتوحه ، وضخامة الجهد الذى بذله فى قتال العدو الذى حشد له الجمع وجلب له الامداد .

وقد فاز بقصب السبق فى هذا المجال ، وحقق الله على يده الكثير من الانتصارات وأروعها . واستطاع أن يوحد بين مصر والشام والجزيرة تحت لوائه ، وكان ذلك التوحيد فاتحة عهد جديد فى سبيل استرداد البلاد المغتصبة ولم يكن يوحد البلاد تحت لوائه حتى أرسل إلى جميع أجـــزاء إمبراطوريته يستنفر الناس لقتال الفرنج ، ويحثهم على الجهاد ، ويأمرهم بالتجهز له . وكانت هذه الوحـــدة بين المسلمين سببا فى استنهاض المسلمين . وفى دفع الحماس فى صدور الجند . فأقبلوا من كل حدب يريدون أن يستأصلوا وطنا طال اغتصابه .

ومضى صلاح الدين على رأس جيشه فالتقى بالفرنج عند حطين ، ودارت هناك معركة مضى الإفرنج عـــلى إثرها بين أسير وقتيل . وكان من حنكة القائد صلاح الدين أنه لم ينتظر حتى يجمع العدو شمله المبدد . ولكنه مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط فى يده مدينة تلو الأخرى . وما أن سقطت البلاد المحيطة بالقدس حتى مضى يشمر عن ساعد الجد . وذهب

إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وما كان من العدو إلا أن طلب الأمان وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين فى السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ هـ وهكذا من الله عليه بهذا الفتح .

وحسب صلاح الدين أنه فاتح القدس الشريف . وقد سجل الشعراء مواقف صلاح الدين التى سبقت فتح القدس ، كما صوروا نبضات القلوب تجاه هذا الفتح . وتحدثوا كذلك عن معركة حطين . وبينوا أهميتها الكبرى للمسلمين . فهى المعركة التى ردت إلى المسلمين كرامتهم وأعادت إليهم مسجدهم وقدسهم . ولا غرابة أن يتسابق الشعراء فى مدح صلاح الدين والثناء عليه وتسجيل انتصاراته وأن يتباشروا بهذا الفتح .

ومن جملة الشعراء العماد الأصفهانى . يقول فى هذه المناسبة يمدح صلاح الدين . ويذكر معاركه فى حطين ويعبر عن سروره واغتباطه بمدحه للقائد الذى أنقذ مقدسات المسلمين (١) :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

وقيل لنا فى الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسا

---

١) الروضتين ٢ / ١٠٢ ومعجم الأدباء ٧ / ٨٨ .

جنودك أملاك السماء وظنهم
أعاديك جنا فى المعارك لا إنسا

تحبت على الأرض ردنا من القنا
ردينية ملدا وخطية ملسا

ونعم مجال الخيل حطين لم تكن
معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا

كسرتهم إذ صح عزمك فيهم
ونكستهم من بعد أعلامهم نكسا

بواقعة رجت بها أرض جيوشهم
ومارت كما بست جبالهم بسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض أن تكون لها رمسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذى كشف اللبسا

جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

وتدل هذه الأبيات على المعنى الذى قصد إليه عماد الدين فى سلامة ووضوح ، ودلت كذلك على ما كان فى نفس عماد الدين من أمانى ، وقد عبر

عن كل ذلك من خلال مباركته لخطوات صلاح الدين .

ومما قيل فى تمجيد بطولة صلاح الدين ماقاله الشاعر ابن الساعاتى يصف فيه فتح صلاح الدين للقدس ، يقول (١) :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا * فلقين طودا لاتخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما * طالت ، فما وجد الشفاء شكاته
أمشتت الأعداء وهى جحافل * عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزما فى الحروب مسددا * لازيفه يخشى ولا هفواته
أحسنته بالبيت العتيق ويثرب * ولك الفعال كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه * لبكائهن تبسمت حجراته

وممن مدحوا صلاح الدين الشاعر أسامة بن منقذ ، فله قصيدة فيه جرت مجرى قصائد الشعراء الآخرين ، حيث وصفه بناصر الدين فى الوقت الذى تخاذل فيه الكثيرون عن نصرته .

يقول يمدحه ويبشر بفتحه للقدس (٢) :

ياناصر الإسلام حين تخاذلت * عنه الملوك ومظهر الإيمان
بك قد أعز الله حزب جنوده * وأذل حزب الكفر والطغيان

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، الدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٤٤٥ .

٢) خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، للعماد الأصفهانى ، قسم شعراء الشام ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل ١ / ٥٣٠ المطبعة الهاشمية بدمشق ، الطبعة الأولى ، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٨ ﻫ ١٩٦٨ م .

وغضبت لله الذى أعطاك * الحكم غضبة ثائر حران

ويمضى الشاعر فى مدحه للقائد فتراه يطرق أشياء جديدة لم يسبق إليها ، إذ يمدحه بما قام به من بذل الأموال الطائلة ليجهز الجيوش ، وليجعلها على أهبة الاستعداد ، حيث كانت الأموال قبل الفاتح العظيم صلاح الدين مخزونة فى خزينة المال لا يستفاد بها فى تجهيز الجيوش .

يقول (١) :

وبذلت أموال الخزائن بعدما * هزمت وراء خواتم الخزان
ومن جمع كل مجاهد ومجالد * ومبارز ومنازل الأقران
من كل من يرد الحروب بأبيض * عضب ويصدر وهو أحمر قانى
ويخوض نيران الوغى وكأنه * ظمآن خاض موارد الغدران

ومن مدحوا صلاح الدين الأيوبى وسجلوا وقائعه وانتصاراته الشاعر ابن سناء الملك (٢) .

---

١) المصدر السابق والصفحة نفسها .

٢) من شعراء مصر الأعلام فى عصر صلاح الدين وخلفائه ، وهو ابن القاضى هبة الله بن الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك السعدى ، ولد سنة ٥٥٠ هـ وهو من أصحاب البديع فى مصر ، وقد أخذ عن القاضى الفاضل طريقته فى النظم ، وأخذ الحديث عن الحافظ السلفى ، وكان له فضل ذكاء وحب للأدب وطبع فى الشعر ، نظم الشعر قبل العشرين من عمره ، له ديوان شعرى ، وله أيضا ديوان موشحات سماه « دار الطراز » ، قال عنه ابن حجة الحموى : « وتلاعب فى التورية باختراعات يسكنها فى طرر =

وله قصيدة طويلة يشيد فيها بفضل صلاح الدين بتوحيد مصر والشام، لما أعادته للإسلام من قوة وعزة ، وفى القصيدة نفسها يصف الشاعر جيش صلاح الدين والحق أن لابن الساعاتى أكثر من قصيدة يصف فيها جيش صلاح الدين.

يقول من قصيدة له يصف صلاح الدين ويشيد بجهوده فى حرب الصليبين (١) :

ملكت أقاليم الملوك، وإنما * سهرت ، وأملاك الأقاليم نوم
طلعت عليهم بالصباح من الظبا * يحيط به ليل من النقع مظلم
فساء صباح المنذرين ، لأنه * صباح به زرق الأسنة أنجم
وجيش به أسد الكريهة غضب * وإن شئت عقبان المنية حوم
إذا قاتلوا كانوا سكوتا شجاعة * ولكن ظبام فى الرقاب تكلم
ضربت بهم قوما نياما جهالة * فلا نائم إلا وأيقظه الدم

= أبياته ، « خزانة الأدب ص ٢٤٤ طبعة مصر ١٣٩٤ هـ » وقال عنه ابن خلكان : « واتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها . . وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم » « وفيات الأعيان ٥ / ١٢٢ ، طبعة محى الدين ، مصر ١٩٥٢ » وقد مدح صلاح الدين وأخاه تور انشاه والقاضى الفاضل ، وكانت بينه وبين الأخير مراسلات ، وتوفى عام ٦٠٨ هـ .

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

ألفت ديار الكفر غزوا ، فقد غدا * جوادك إذ يأتى إليها يحمحم

وما يعصم الكفار عنك حصونهم * ولا شىء غير الله بعدك يعصم

ولم يمدح الشعراء صلاح الدين الأيوبى فحسب ، وإنما مدحوا كثيرا من أبناء أسرته وغيرهم ممن خاضوا الحروب ضد الفرنج . وأكبر هؤلاء الأبطال هو تقى الدين عمر بن شاهنشاه الذى ظفر بإعجاب عمه صلاح الدين فكان ينيبه عنه حاكما فى مصر ، وقد أذاق الفرنج أقسى ألوان القتال ، بل إنه كان يجاهرهم ولا يأخذهم قط على غرة .

وممن مجدوا بطولة تقى الدين الشاعر ابن الساعاتى . يقول يصف شخصية تقى الدين ويسجل بسالته ومكانته فى جيشه (١) :

لولا بسالته لما ظمئت * أسل الفرنج إلى دم بسل

سل عنه إذ دلف القناة غداة الـ * ـمد منه بساعد عبل

وأعاد يومهم كأمس ، وليث الغـ * ـاب لايغضى على ذحل

أبقى لقى أسد اللقاء ، فما * أبقى وفلل حدة الفسل

حتى كأن ديارهم خلقت * مذ كن أطلالا بلا أهل

كم طعنة لك فيصل حدثت * آثارها ، ومقالة فصل

يثنى رباط الجيش منك ربيط الجـ * ـأش ماضى العقد والحل

يلقى أعاديه بجاهرة * ويعيذ سطوته من الختل

يخشى، ويرجى، سطوة وندى * ويهاب فى جد وفى هزل

---

(١) ديوان ابن الساعاتى ، تحقيق أنيس المقدسى ٢ / ٢٠ المطبعة الأمريكانية ١٩٣٨ م .

ومنهم كذلك العادل أخو صلاح الدين . وقد مجد بسالته فى القتال أكثر من شاعر . يقول ابن سناء الملك منه (١) :

إن نام أمرا عظيما ساقه قدر * إليه ، أو جاءه يسعى على قدر
ويا أعاديه ، لايغرركم مهل * منه ، فإنكم منه على غرر
ألم يذقكم على رغم بواتره * وكل درع عليكم قد من دبر
يرمى الشجاع ، وإن أضحى وبينهما * نقع يفرق بين الشخص والبصر
ويعشق الورد ، والأبطال صادرة
والموت فى الورد والمنجاة فى الصدر
تقلد الدين سيفا منه ، مابرحت
سيوفه البيض حمرا من دم هدر
لله موقف حرب كنت قائمه
وقائم النصر فيـــه غير منتظر
صدمت فيه جموع الشرك فانفطروا
إن الزجاج لاتقوى على الحجر

* * * *

وحين انتهت دولة الأيوبيين وجاءت بعدها دولة المماليك أخذ الملوك على عواتقهم مقاومة الصليبيين الغـــزاة ، ونهضوا بعبء قتالهم والقضاء عليهم واسترداد البلاد من أيديهم . وقد استطاع هؤلاء الحكام أن يحققوا حلم الأمة الإسلامية فى طرد الصليبيين عن أرض المسلمين .

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

والحقيقة أن الشعراء قد التفوا حول ثلاثة من سلاطين هذه الدولة وهم : « بيبرس » و « قلاوون » و « الأشرف خليل بن قلاوون » ، فمجدوا بطولتهم ، وأشادوا بمجدهم ، وسجلوا خطواتهم فى الحرب ، مقترنة بالإكبار والتعظيم والإجلال والإعجاب .

فيما أثنى به على جهود بيبرس فى حرب التتار ، وما جاء فى وصف جيشه قول أبى محمد الواسطى (١) :

فملى الأفق للغمام ملاء * طرزتها البروق بالإيماض
وكأن الرعود إرزام نوق * فصلت دونها بنات المخاض
أو صهيل الجياد للملك الظا * هر تسرى بالجحفل النهاض

والمنصور قلاوون من الملوك الذين أبلوا بلاء حسنا فى حرب الصليبيين ، وقد مضى الشعراء المعجبون بفتوحاته يصوغون له المدح عقودا . ومن هؤلاء شهاب الدين محمود الذى يقول فيه (٢) :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر * لأنك للإسلام ياسيفه ذخر
ومنا لك الإخلاص فى صالح الدعا
إلى من له فى أمر نصرتك الأمر
ولله فى إعلاء ملكك فى الورى
مراد ، وفى التأييد يوم الوغى سر
ألا هكذا ياوارث الملك فليكن
جهاد العدا لاماتوا لى به الدهر

---

١) فوات الوفيات ٢ / ١٢٩ . مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

٢) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٣ . طبعة مصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .

ومما قيل فى المنصور قلاوون (١) :

تهب الألوف، ولا تهاب لها • ألفا إذا لاقيت فى الصف
ألف وألف فى ندى ووغى • فلأجل ذا سموك بالألفى

وحين فتح قلاوون حصن المرقب عام ٦٧٨ ﻫ نجده يفتح حصنا مشهورا بالمنعة والحصانة . وقد أقبل الشعراء عليه يمجدون جهاده و يشيدون ببطولاته ومن بين الشعراء شهاب الدين محمود ، يقول (٢) :

الله أكبر ، هذا النصر والظفر
هـذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذى كانت الآمال إن طمحت
إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر واملك الدنيا فقد نحلت
شوقا منا براها وارتاحت السرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك
فطـال عنه وما فى باعـــه قصر
وكيف تمنحـــه الأيام مملكة
كانت لدولتك الغراء تدخـــر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن
إسعاده منجداك : القدر والقدر

---

١) فوات الوفيات ٢ / ٢٣ .
٢) النجوم الزاهرة ٧ / ٣١٧ .

غر العدا منك حلم تحته همم

لأشقر البرق من تحجيلها غرر

لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى

معنى العواصف لا تبقى ولا تذر

وظفر الأشرف خليل بن قلاوون بتقدير الشعراء كذلك ، فضوا يصورون بسالته وشجاعته ، ولم لا وقد استولى على آخر أملاك الصليبيين فى المشرق وهو ثغر عكا؟!.

يقول شاعر فى ذلك (١) :

فإن رمت حصنا سابقتك كتائب

من الرعب أو جيش تقدمه النصر

ففى كل قطر للعدا وحصونهم

من الخوف أسياف تجرد أو حصر

فلا حصن إلا وهو حصن لأهله

ولا خشب إلا لأرواحهم قبر

ويقول بعضهم فيه (٢) :

ماقدموا مثل تقاه ، ولا * مثل الذى خلفه خلفوا

فيه على الأملاك فخر بما * نلت ، فأنت الملك الأشرف

* * * *

---

١) فوات الوفيات ١ / ١٥٥ .

٢) نهاية الأرب ، للنويرى ٢٩ / ٥٠ طبعة دار الكتب المصرية .

وهكذا نجد الشعراء الأبطال ، وأشادوا بجهدهم وجهادهم ، وخلدوا فى القصائد مآثرهم . والحق أن ثناء الشعراء على الأبطال لم يقف عند كبار الأبطال فحسب ، ولكنهم مجدوا كل من دافع عن البلاد ضد الإفرنج ، أو مد أياديه لاستنفاذ البلاد المغتصبة ، وإن لم يتحقق له من النجاح مثل ذلك الذى تحقق للأبطال العظام ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على ما كان يتجاوب فى نفوس المسلمين يومئذ من رغبة ملحة فى استرداد مافقده المسلمون من بلاد (١) .

ولا يفوتنا أن نقول إن الشعراء فى عصر الحروب الصليبية كانوا يتابعون المعارك التى تدور بين المسلمين والإفرنج ، وكانوا يتابعون أيضا تطـــورها وكانوا يقومون بواجبهم خير القيام ، فيمدحون القواد والأبطال ويستنهضون الهمم ، بيد أن مدحهم كان كسابقه ، فالممدوح دائم الانتصار على أعدائه يعز الإسلام ويرفع رايته .

ومع ذلك فيمكن أن نقول إن شعرهم يتميز بصدق العاطفة وحرارتها ، فهم حين يقولون شعرا لم يقولوه من منطلق الطمع فى العطاء ، أو انتظـــار هدايا وما إلى ذلك ، وإنما كانوا يلقونه بدافع من إيمانهم ورغبتهم الصادقة فى نصرة الإسلام ، واسترداد مقدسات المسلمين . ومن ثم بعدت قصائدهم كل البعد عن التكلف ، فالمناسبة التى نظم الشاعر فيها قصيدته كانت تتطلب منه التعبير عن الفرحة والسرور لما حققه المسلمون من انتصارات عظيمة ، ومن

---

١) انظر الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العـــربى فى مصر والشام للأستاذ / محمد سيد كيلانى .

ثم كان على الشاعر أن يقدم قصيدته بوحى من عاطفته الصادقة دون أن يتكلف .

ومن الملاحظ أيضا أن المعانى التى شاعت فى المدح بالبطولة والتى تطرق إليها الشعراء فى قصائدهم كانت تدور حول الشجاعة وشدة البأس ، والحلم ، والأناة والحكمة والعدل وتشفيع ذلك كله بالحديث عن قيام هؤلاء القواد بنصرة الإسلام وتصميمهم على إلحاق الهزائم بالصليبين . . فكل هذه الصفات تتعلق دون شك بطبيعة الموضوع الذى يتحدث عنه الشاعر وهو الجهاد ونصرة دين الله .

وهناك ملاحظة أخرى ينبغى أن نشير إليها ، وهى أن شعراء المديح فى هذه الفترة كانوا يربطون بين ممدوحيهم وبين الشخصيات الإسلامية العظيمة التى كان لها نصيب فى جهاد المشركين ، وقد ربطوا بين المعارك الصليبية وبين المعارك الإسلامية الكبرى كموقعة بدر وغيرها ، والهدف من ذلك كله إنما هو شحذ الهمم واستنهاضها ، والحث على مواصلة الجهاد ، والصبر عليه ، مهما كانت النتائج ، ومهما كانت التضحيات .

وهكذا نجد الشعراء أبطال الحروب الصليبية الذين صرفوا معظم جهودهم فى إضعاف الصليبيين وتقليم أظافرهم واسترداد ما استطاعوا استرداده مما اغتصبوه من البلاد ، كما استطاعوا أن يرسموا سمات هؤلاء الأبطال . ويبدو أن هؤلاء الأبطال قد تشابهوا فى أهدافهم تشابها جعل الشعراء يخلعون عليهم كل مايعرفونه من صفات مثالية ، فهم جميعا دون استثناء أبطال شجعان ، أتقياء كرماء ، وهم زينة العصر وجمال الدنيا .

وقد يصعب ـ نتيجة لهذا التشابه ـ أن نميز بين بطل وآخر ، أو أن نلمح

فروقا دقيقة بينهم ، الأمر الذى يصعب معه تمييز أحدهما عن صاحبه . ولولا السمات التاريخية التى تربط الملك من الملوك ، أو السلطان من السلاطين بموقعة من المواقع ، أو بانتصار من الانتصارات ، أو بهزيمة من الهزائم ؛ لولا ذلك لأمكن لكل واحد أن ينقل شعرا قيل مثلا فى عماد الدين ويزعم أنه إنما قيل فى نور الدين محمود ، أو فى صلاح الدين الأيوبى .

والشعراء مع كثرة مانظموه من شعر لم يستطيعوا أن يتركوا لنا صورة مبينة المعالم ، واضحة القسمات لكل بطل من أبطال الحروب الصليبية على حدة وربما كان للتقليد الذى سار عليه شعراء المدح العرب أثر فى ذلك ، ولو أن شعراء العصر الصليبى كانوا على درجة تجعلهم ينظمون الشعر الملحمى والقصصى والتمثيلى لأمكن لهم أن يميزوا بين بطل وآخر .

رابعاً : التأسف والتحسر على ما أصاب المسلمين :

لم يقف الشعراء عند حد تصوير المعارك ومدح أبطال الحروب ، ولكنهم راحـــوا يرصدون ما أصاب قلوب المسلمين من تحسر ، كما يصورون أسفهم وأساهم على ما أصـاب المسلمين من فتن وتخـاذل ، وما نزل بهم من نوازل وما دب فى صفوفهم من تفرق .

والحقيقة أن ظروفاً كثيرة قد مرت بالمسلمين ، وكانت تثير الألم وتبعث الحسرة والندامة ، فهـذه بلاد المسلمين تسقط واحـدة تلو الأخرى فى أيدى الفرنج ، وهذا هو الخوف يتملك الشعراء نتيجة لهذا التخريب الذى أحدثته أيدى الإفرنج فى بلاد المسلمين ، بل إن المسلمين أنفسهم قد اضطـــروا إلى تخريب بعض البلاد بأيديهم هم حتى لاتقع فريسة فى أيدى الفرنج ، وغـير هذا وذاك مما له وقع أليم فى نفوس المسلمين وفى نفوس شعرائهم .

وقد حدث أن خرب الإفرنج معرة النعمان ، ونتيجة لهذا الفعل السىء نجد الأسى يعم المسلمين ، وتمتلىء قلوبهم بالحزن والأسف ، وقد بكاهـا شاعر من الشعراء وتأسف على ما لحق بها من خراب فقال (١) :

هذه صاح بلدة قد قضى الله عليهـا ، كما ترى بالخراب

وقف العيس وقفة وابك من كان بها : من شيوخها والشباب

واعتبر إن دخلت يوما إليها * فهى كانت منازل الأحباب

وحين سقطت مدينة دميـاط فى أيدى الأعداء ، وأصبح من ثم الطريق

١) النجوم الزاهرة ٥ / ٢٠٠ طبعة مصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .

مفتوحاً إلى مقدسات المسلمين . هنا خاف المعظم عيسى على بيت المقدس وأخذ نتيجـــة لذلك يخرب المواضع التي من الممكن أن يتقوى بها الفرنج في حالة احتلالهم لبيت المقدس . وكان لهذا الحدث وقعه الأليم ، كما كان باعثاً على الحسرة والندامة ، فهذه بلاد المسلمين تحطم وتخرب في غير رحمة .

وفي ذلك يقول شهاب الدين أبو يوسف بن المجاور (١) :

أعيني لاترقى من العبرات ... صلى بالبكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها ... توقد مافي القلب من الجمرات
وياقلب ، أسعر نار وجدك كلما ... خبت ، بادكار يبعث الحسرات
ويافم ، بح بالشجو منك لعله ... يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره ... على موطن الإخبات والصلوات
على سلم المعراج والصخرة التي ... تفاخر مافي الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها ... صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبنى للخـير بناة
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله ... الرفيع العماد العـالى الشرفات
عفا بعدما قد كان للخير موسما ... وللبر والإحسان والقـربات
يوافي إليـه كل أشعث قانت ... لمـولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لايمل مقيمها ... توشح بالآيات والسـورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ... فمن بين نواح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٠٥ مطبعة وادى النيل .

لتبك عليها مكة فهى أختها ... وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ماحل بالقدس طيبة ... وتشرحه فى أكرم الحجرات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ... وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ... وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ... لهم عظم ماوالوا من الغزوات
فمن لى بنواح ينحن على الذى ... شجانى بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعى قاله ... يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات

والحقيقة أن هناك أشعارا كثيرة تعكس الأسى والحسرة على ما أصاب المسلمين من كوارث ، وما انتابهم من نوائب ، وما لحق بهم من ضعف فى هذه الفترة من الزمان ، وهناك أشعار أخرى تتحسر من هؤلاء المتخاذلين الذين آثروا القعود وعدم الخروج لمكافحة الإفرنج ، وقد وصل الشعر فى تعبيره عن الأسى والحسرة حين يوازن بين أعداد جند المسلمين وأعداد جند الكفار الإفرنج ، وربما يتخذ الشاعر من هذه الموازنة ذريعة لاستنهاض همم المسلمين وحثهم على التضحية والفداء .

وقد تحولت الحسرة فى بعض الأشعار إلى ذريعة تعكس الخوف والرعب اللذين يعمان البلاد ويملآن القلوب ، ومثل هذه الأشعار تتحدث فى الغالب الأعم عن تجهيزات العدو ، وما يترتب على هذه التجهيزات من عنف وقسوة وتدمير وتخريب ، والشاعر يتخذ من هذا ذريعة للدعوة إلى اجتماع الكلمة ، وتوحيد الصفوف ، وتضافر القوى .

ومن ذلك قول عمارة اليمنى (١) :

يارب إنى أرى مصرا قد انتبهت
لها عيون الأعادى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية
واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير به
من فتنة يتلظى جمر وقدتها

وهذا شاعر آخر يعدد أعمال الإفرنج الذين بالغوا فى ارتكاب الجرائم وانتهاك الحرمات ، والتوسع فى احتلال المدن والإغارة الدائمة عليها ، الأمر الذى جدد على العالم الاسلامى ألمه وحزنه .

يقول (٢) :

أحل الكفر بالاسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح	وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا	ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل	لطفل فى عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر	وعيش المسلمين إذا يطيب

(١) مختارات من ديوان عماره اليمنى ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ .

أما لله والاسلام حـــق ... يدافع عنه شبان وشيب ؟
فقل لذوى البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

ويزداد التأسف ويقوى التحسر حينما يفقد المسلمون بطلا من أبطال كفاحهم أمام الافرنج ، فيكون رثاء الشعراء لهذا البطل بمثابة صرخة حزن تصور أسى الناس وبكاءهم على من فقدوا من فرسان وأبطال .

فهذا العماد يقول فى موت نور الدين (١) :

الدين فى ظلم لغيبة نوره ... والدهر فى غم لفقد أميره
فليندب الاسلام حامى أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار فى أخطاره ... إذ كان هذا الخطب فى مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من ... قرت نواظرهم بفقد نظيره
ما أغوص الانسان فى نسيانه ... أو ما كفاه الموت فى تذكيره
من للمساجد والمدارس بانيا ... لله طوعا من خلوص ضميره
من ينصر الاسلام فى غزواته ... فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهدى يبغى فكاك أسيره
أو ما وعدت القدس أنك منجز ... ميعاده فى فتحه وطهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدا ... وتقدس الرحمن فى تطهيره

---

١) الروضتين ١ / ٢٤٤ .

خامساً : الفخـــر والحماسة :

ليس من شك فى أن الانتصارات فى الحروب والمعارك التى دارت بين المسلمين والصليبيين كانت مثار غبطة واستبشار فى نفوس المسلمين بصفة عامة وفى نفوس الأبطال والقادة بصفة خاصة ، ومن المحبب إلى هؤلاء الأبطال أن يستمعوا إلى تسجيل أفعالهم ، والتغنى بأمجادهم ، فالتف حولهم نتيجة لذلك عدد كبير من الشعراء ، وأخـــذ هؤلاء الشعراء يتحمسون فى أشعارهم ويفتخرون بانتصارات هؤلاء الأبطال .

ومن هؤلاء الشعراء طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ ، فقد تحمس كل منهما فى شعره وافتخر . ومن أروع ما كتبه طلائع بن رزيك يفتخر فيـــه بغارات جيشه على الفرنج ، وما أحرزه جيشه من نصر ، تلك القصيدة التى أرسلها إلى أسامة بن منقذ لكى يخبر بها نور الدين حين رغب الصـــلح فى الاتفاق مع نور الدين فى مقاومة العدو والهجوم عليه .

ومن هذه القصيدة قوله (١) :

خيول إذا ما فارقت مصر تبتغى * عدا فلها النصر المبين ملازم
جيوش أغزناهـا اعتزاما ونجـدة * فطاعننـا منهم ومنـا العزائم
إذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس * وإن جردوا الأسياف فالثغر باسم
ولما وطوا أرض الشآم تحالفت * فأضحت جميعاً عربها والأعاجم
وواجهم جمع الفرنج بحملة * تهون على الشجعان منها الهزائم
فلقوهم زرق الأسنة وانطووا * عليهم فلم ينجم من الكفار ناجم

---

١) انظر الأبيات فى : « أولا : شعر الدعوة إلى الجهاد » .

ولم يكتف أبطال المسلمين الذين أبلوا بلاء حسنا فى الحروب ضد الصليبيين بما يحمله لهم الشعراء من قصائد تمجد بطولاتهم ، وتشيد ببلائهم ، فراحوا من جهتهم يطلبون من الشعراء أن ينظموا على ألسنتهم شعرا يسجلون فيه معاركهم ويصورون فيه تضحياتهم .

فهـذا هو نور الدين محمود ، نراه يطلب من الشاعر البطل أسامة بن منقذ أن يقرض قصيدة على لسانه ، يتحدث عن فتوحاته ، ويفتخر فيها بأمجاده ، فكان أن أنشأ أسامة فى ذلك قصيدة طويلة بلغ مجموع أبياتها تسعين بيتا .

يقول فى مطلعها (١) :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر • لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخـــدمنا الأيام فيما نرومه • وينقاد طوعا فى أزمتنا الدهر
وتخضع أعنـاق الملوك لعـزنا • ويرهبها منا على بعدنا الذكر
وما فى ملوك المسلمين مجـاهد • سوانا ، فما يثنيه حـر ، ولا قر
جعلنـا الجهاد همنـا واشتغالنـا • ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر

ومنها أيضا قوله :

بنا أيد الإسلام ، وازداد عـزه • وذل لنا من بعد عزته الكفر
قتلنـا البرنس حين سار بجهـله • تحف به الفرسان والعسكر المجر
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن • ليخشى من الأيام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعـــه • بمال ، وكم ظن به يهلك الغر

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، الدكتور / أحمد بدوى ص ٥٠٣ وديوان أسامة بن منقذ ص ٢٠١ وما بعدها .

فلما استبحنا ملكه وبلاده ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه نبغي الأجر في فعلنا به وفي مثل ماقد ناله يحرز الأجر

وحدث أيضا أن طلب نور الدين محمود من العماد الكاتب أن ينظم قصيدة على لسانه يفتخر فيها بجهاده ضد الصليبيين ليرسلها إلى بغداد ، فأنشأ العماد قصيدة يقول فيها (١) :

من ذا الذي سار سيري في ولائكم
غداة قال العدا : لاسير عند عصا
قد نال عبدك محمود بها ظفرا
مازال يرقبه من قبل مرتبصا
من خوف سطوته أن العدو إذا
أم الثغور على أعقابه نكصا

هذا وينبغي أن نشير هنا إلى أن شعر الفخر والحماسة الذي أفرزه العصر الصليبي يختلف اختلافا كبيرا عن شعر الفخر والحماسة الذي قاله الشعراء العرب في الجزيرة العربية ، ولعل السبب في ذلك إنما يرجع إلى الباعث في الحالتين ، فباعث شعر الفخر والحماسة عند العرب إنما كان مرده إلى العصبية القبلية ، أما الباعث على هذا الشعر في عصر الحروب الصليبية فإنما هو الدين وليس شيئا آخر .

ومن شعر أسامة بن منقذ الذي يفتخر فيه بشجاعته وبأسه قوله (٢) :

---

١) الروضتين ١ / ٢١٨ مطبعة وادي النيل بمصر .

٢) ديوان أسامه بن منقذ ص ٢٠٩ .

أنا تاج فرسان الهياج ومن بهم
ثبتت أواخى ملك كل متـــوج
قوم إذا لبسوا الحديد حسبت من
بحـــر تدافع فى لظى متوهج
صبر إذا ماضاق معترك القنـــا
فرجت سيوفهم مضيق المنهـــج
وإذا رجـــوتهم لنصر صدقوا
بعظـــيم بأسهم رجاء المرتجى

وقـــوله (١) :

إن يحسدوا فى السـلم منــ زلتى من العز المنيف
فبما أهـــين النفس فى يوم الوغى بين الصفوف
فلطالما أقدمت إقـــدام الحتوف عـلى الحتوف
بعزيمة أمضى عـــلى حد السيوف من السيوف

ويعلل لشجاعته ، ويوضح سر إقدامه فيقول (٢) :

يجهل فى الإقدام رأيى معشر • أراهم إذا فروا من الموت أجهلا
أيرجو الفتى عند انقضاء حياته • وإن فرعن ورد المنية مزحلا
إذا أناهبت الموت فى حومة الوغى • فلا وجدت نفسى من الموت موئلا
وإنى إذا نازلت كبش كتيبة • فلســت أبالى أينا مات أولا

---

١) الديوان ص ٢١٢ .

٢) الديوان ص ٢١٨ .

سادساً : الرثاء :

وكان الرثاء من بين أغراض الشعر يومئذ ، ونعني به رثاء الشعراء لأبطال الحروب الصليبية . والرثاء هنا مثل المديح ، فهو تمجيد للبطولة في القائد الذي رحل ، وبيان للصفات الحميدة التي كان عليها ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإنما هو يمثل اللوعة والحرقة على فقد هؤلاء الأبطال الذين واصلوا الجهاد ، ودعوا إليه ، وأخذوا يقاومون الصليبيين ، ويصمدون في قتالهم ، فصدقوا بذلك ماعاهدوا الله عليه . . والشعراء في بكائهم على هؤلاء الأبطال حينما ينزل بهم الموت إنما يعتقدون أن الخسارة فيهم ليست خسارة في فرد .

وقد ظهرت في عصر الحروب الصليبية بعض الشخصيات الإسلامية العظيمة ، تلك التي قادت المسلمين ، وحققت لهم الكثير من الانتصارات الباهرة ، وجمعتهم بعد التفرق والتشتت ، ومكنت المسلمين من استعادة المقدسات التي أخذت منهم . وواجب الشعر أن يقف نادبا عندما يهوى بطل من هؤلاء الأبطال ، وأن يسجل له ماقدمه في حياته ، مما يخلد ذكره ويضعه أمام الخلف قدوة صالحة ، وليس بغريب على شعراء المسلمين أن يظهروا الأسى واللوعة على هؤلاء الأبطال ، وأن يتحسروا عليهم ، ويذكروا مآثرهم بعد موتهم ، لأنهم بذلك إنما يصورون آلام المسلمين ، ويعكسون لوعتهم على فقد مثل هؤلاء الأبطال .

ومن الشخصيات العظيمة التي رثاها الشعراء « عماد الدين زنكي » ذلك الذي اتسع سلطانه ونفوذه على حساب حصون الصليبيين ، وقد استطاع أن يستولي على معاقلهم وحصونهم ، وقد استشهد ليلة الأحد السادس من شهر

ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ ، وعقب وفاته أخذ الشعراء ينظمون فيـه أشعارا تقطر بالأسى واللوعة .

وفى رثائه يقول أبو يعلى القلانسى (١) :

وكم معقـل قد رامه بسيفـه * وشامخ حصن لم تفته غنائمـه
ودانت ولاة الأمر فيها لأمره * وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمن من فى كل قطر بهيبـة * تراع بهـا أعـرابه وأعاجمـه
وظالم قوم حين يذكر عدله * فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وكم ثغـر إسلام حماه بسيفه * من الروم لما أدركته مراحمه

وبعد وفاة عمـاد الدين يأتى بعده ابنـه نور الدين الذى كان يتوقد حماسة وشجاعة ، وقد أوقف حياته كلها على هدف واحـد هو إخراج الصليبيين من بلاد الإسلام .

والحقيقـة أن ملك نور الدين قد اتسع ، وكان له فضل توحيد الجبهـة الإسلامية ضد الصليبيين ، وقد حقق خطوات عسكرية ذات أهميـة فى تاريخ الحروب الصليبية ، وكانت ذات أثر فى تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى بين المسلمين .

ويمضى نور الدين إلى رحمة الله فى شهر شوال من عام ٥٦٩ هـ بعد جهـاد طويل حقق فيه الكثير من الانتصارات ، وقد خلده الشعراء بقصائد عديدة وأخذوا يبكونه ويتألمون لفقده . ومن الشعراء الذين رثوه العماد الأصفهانى

---

(١) ذيل تاريخ دمشق للقلانسى ص ٢٨٦ ، والروضتين ١ / ٤٥ مطبعة وادى النيل .

فقد قسم فى رثائه له قصيدة أظهر فيها التفجع والتوجع لما لحق بالمسلمين من بلاء عقب وفاته ، ثم بين فضله فى محاربة الصليبيين ، وأشار إلى الفـــراغ الكبير الذى تركه بموته فى حياة المسلمين .

يقول (١) :

الدين فى ظـــلم لغيبة نوره   والدهر فى غم لفقد أميره
فليندب الإسلام حامى أهله   والشام حافظ ملكه وثغوره
من ينصر الإسلام فى غزواته   فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها   من للهدى يبغى فكاك أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها   من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولا أبكارها   برواحه فى غدوه وبكوره
أنت الذى أحييت شرع محمد   وقضيت بعـــد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلما   هو مذ غبت معرض لدثوره
كم قد أمرت بحفر خندق معقل   حتى سكنت اللحد فى محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسوة   إرواء بيض الهند من تاموره (٢)
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر بلاده وسبيت أهل قصوره

وفى دمشق وفى السابع والعشرين من صفر عام ٥٨٩ هـ ينتقل موحـــد البلاد الإسلامية صلاح الدين الأيوبى إلى الرفيق الأعلى ، ويودعه العـــالم الإسلامى والعربى ودعائه ، وكان موته دافعا قويا للشعراء لأن يبكوا

---

١) الروضتين ١ / ٢٤٤

٢) التامور : النفس أو دم الوريد .

مصاب الأمة الإسلامية ، كما كان كارثة أليمة على الأمة الإسلامية ، فلقد مات ولم يبلغ الستين من عمره ، ولم يدع له هذا الموت السريع الفرصة ليؤسس دولته وليضع لها النظم فى الحكم والادارة .

وقد رثاه الشعراء بقصائد باكية ، ومن هؤلاء العماد الأصفهانى الذى يقـــول (١) :

من للعلا من للذرى من للهدى يحميه من للبأس من للنائل ؟
طلب البقاء الملك فى آجل إذ لم يثق ببقاء ملك العاجل
بحر أعاد البر بحـــرا بره وبسيفه فتحت بلاد الســـاحل
من كان أهل الحق فى أيامه وبعزه يردون أهـــل الباطل
وفتوحه والقدس فى أبكارها أبقت له فضلا بغير مساجل
فسقاك رضـــوان الإله لأننى لا أرتضى سقيا الغمام الهاطل

ومن الملاحظ أن الشاعر يتسم فى رثائه هذا بالموضوعية والواقعية ، ذلك لأنه يلتزم فى الأبيات بالمضمون الحقيقى الذى كان فى حياة القائد صلاح وقد عبر عن حزنه العميق وأساه الأليم لهذه الفاجعة التى أصابت المسلمين .

وبعد أن انتهت الدولة الأيوبية جاءت بعدها دولة المماليك (٢) واستمرت هذه الدولة تحارب الصليبيين ، وتحاول القضاء عليهم ، حتى استطاعوا فى النهاية أن يحققوا حلم الأمة الإسلامية بإجلاء الصليبيين عن بلاد الشام .

وكان للملك المنصور قلاوون دور كبير وباع طويل فى الجهـــاد ضد

---

١) الروضتين ٢ / ٢٧ .

٢) انظر عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى د / محمود رزق سليم .

الصليبيين ، وقد أبلى فى الحـــروب معهم بلاء حسنا ، وقد انتصر عليهم فى أكثر من معركة ، واستطاع أن يفتح حصن المرقب بالأمان سنة ٦٨٤ هـ وكان هذا الحصن يعد من أقوى معاقل الصليبيين وأشدها ، ليس هذا فحسب بل إنه قد تمكن من طرد جنود الصليبيين عن ساحل الشام ، الأمر الذى جعل عددا كبيرا من الشعراء يعجبون بأفعاله ، ويمدحونه على ماقام به من جهود فى جهاد الصليبيين الغزاة .

وحين توفى المنصور قلاوون رثاه الشاعر شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبى بقصيدة طويلة منها (١) :

ملك مضى لسبيله وســـبيله ... فى نصرة الإسلام حكم يقتفى
سل يوم حمص عن الأيوبى وقد سطا ... فى شملها هل بعد ذاك تألفا ؟
وانظر تجد تسعين ألفا منهم ... ذهبوا ، كما حكمت صوارمه خفا
وغدوا وطاء للورى فلكم ترى ... من حافر قد داس خدا مترفا
والمرقب العالى الذى سامى السما ... فغدا على نهر المجـــرة مشرفا
وافى إليه بعـــزمة جاءت به ... يوم الاباء مسلما مستعطفـــا
وكذا طرابلس التى لم يرجها ... ملك سواه إذا تنبـــه أو غفا
ولـكم أباد عـدا وكم أبدى يدا ... وندى وجدد رسم مكرمة عفـا

ومن الملاحظ أن رثاء الشعراء للبطل من أبطال الحروب الصليبية لم يتجاوز تصوير ماقدمه هذا البطل فى حياته ، مما يخلد ذكره ، ويجعله قدوة فى الجهاد يقتدى بها ، ويلاحظ كذلك أن الروح الدينية تسرى فى هذا اللون من

---

(١) الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى ، د / محمد الحرفى ص ٨١ ، ٨٢

الشعر ، فالمرثو كان حاميا للاسلام ، وهو نجم أفل من نجوم الاسلام ، هذا بالاضافة إلى ماسجله الشعر لهؤلاء من صفات كنفاذ العزيمة ، ومضاء الرأى وسداده .

ولم يقتصر دور الشعراء على رثاء العظماء والقواد ، والبكاء على فراقهم ، فهناك منهم من بكا المدن الاسلامية التى استولى عليها الصليبيون وسقطت فى أيديهم ، وأظهر الأسى لما أصاب هذه المدن من الخراب والدمار . فكما تحدث الشعراء عن العظماء نجدهم يتحدثون عن المدن ، وكما تحدثوا عن أفراح المسلمين وانتصاراتهم نجدهم يتحدثون عن أحزانهم ومآسيهم ، ومن هذه الأحزان ما قام به الملك المعظم عيسى صاحب دمشق عام ٦١٦ هـ بتخريب بيت المقدس حينما بلغه أن الافرنج عازمون على دخوله ، الأمر الذى أوقع فى هذا البلد المقدس ضجة عظيمة(١) وأثر بدوره على كثير من الشعراء ، فألهب عواطفهم وأجج الحزن فى نفوسهم .

وحين حاصر الصليبيون بيت المقدس ، واضطر المدافعون عنه إلى التسليم تحت ضغط الحصار وانقطاع المدد ، اندفع الغزاة تضطرب نفوسهم بالحقد ، وتلعب بعقولهم نشوة الانتصار المؤقت ، فذبحوا كل من كان فى قوة من المسلمين نساء وأطفالا وشيوخا .

وقد أنشد الأبيوردى قصيدة يبكى فيها حال القدس وأهله ، يقول ٢) :

---

١) النجوم الزاهرة ٦ / ٢٤٥ وزارة الثقافة والارشاد القومى بمصر .

٢) انظر الأبيات فى « أولا : شعر الدعوة إلى الجهاد » .

حرجنا هناء بالدموع السواجم * فلم يبق منا عرضة للتراجم

وهذه أبيات للفاضل شهاب الدين أبى يوسف يعقوب بن المجاور يبكى القدس والمسجد الأقصى ، ويعبر عن حادثة تخريب القدس فيقول (١) :

أعينى لا ترقى من العبرات ... صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفى فيضها ... توقد ما فى القلب من جمرات
وياقلب أسعد نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويافم بح بالشجو منك لعله ... يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره ... على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحى والهدى ... على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى ... أنافت بما فى الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التى اتجهت لها ... صلاة البرايا فى اختلاف جهات
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهى أختها ... وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه فى أكرم الحجرات
فمن لى بنواح ينحن على الذى ... تجانى بأصوات لهن شجيات
يرددن بيتا للخزاعى قاله (٢) ... يؤبن فيه خضيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات

---

١) الروضتين ٢ / ٢٠٦ .

٢) المقصود بالخزاعى هو دعبل الخزاعى .

وحين استولى الصليبيون على معرة النعمان فى بداية غزوهم لبلاد الشام نجد الشعراء يأسفون لهذا الحدث الأليم ، ويرثيها وجيه بن عبد الله التنوخى بأبيات حزينة باكية ، ويأخذ يأسف على ضياعها وعلى ما أصاب أهلها من خراب ودمار فيقول (١) :

هـــذه بلدة قضى الله ياصا * ح عليها كما ترى بالخـــراب

فقف العيس وقفة وابك من كا * ن بها من شيوخها والشـــباب

واعتبر إن دخلت يوما إليها * فهى كانت منـــازل الأحباب

ونختم الكلام هنا بملاحظة وهى أن الشعراء فى رثائهم للقادة والأبطال إنما كانوا يلتزمون الحقيقة والموضوعية ، فهم يذكرون الصفات الحقيقية التى كانت للمرثى ، ويذكرون ماتحلى به من صفات وغيرها مما يتعلق بموضوع الجهاد والذب عن حياض المسلمين ، وما يتعلق كذلك بدوره فى استرجاع البلاد التى استولى عليها الصليبيون . كما أننا نلاحظ أن بكاء الشعراء على القادة والعظماء فى هذه الفترة من الزمان لم يكن مبعثه أن زعيما مسلما قد مات فحسب بل كان مرده إلى أن قائدا عظيما قد فقدته ساحة الجهاد ، وأن هذا القائد قد ترك برحيله فراغا كبيرا فى صفوف المسلمين ، ومن ثم كان الرثاء ، وكان البكاء وكانت الحسرة واللوعة .

---

١) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، لشمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ج ٨ قسم ١ ص ٣٤ . مطبعة حيدر أباد ، الطبعة الأولى ، ونشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٧٠ هـ .

سابعاً : تهديد الأعـــداء :

من المعروف أن للشعر رسالة أساسية فى الحروب الصليبية ، ولعل الأمراء الذين كانوا على رأس الجيوش قد أدركوا أثر الشعر فى الحروب فأحاطوا الشعراء بالتكريم والتقدير ، مما ساعدهم كثيرا على أداء رسالتهم ، والقيام بما يناط بهم من مهام .

ومن مهام الشعر فى هذه الفترة إضعاف الأعداء والمحاولة التأثير فى قوتهم المعنوية ، ومن هنا كان تهديد الأعداء موضوعا من موضوعات الشعر فى عصر الحروب الصليبية ، فهو من جهة له أثر بالغ فى استنهاض هم المسلمين ومن جهة أخرى كان معول هدم فى صفوف الأعداء ، وغرسا لعامل اليأس فى نفوسهم عن القتال .

والحقيقة أن الشعر قد بدأ التهديد والوعيد مع أولى المعارك التى خاضها المسلمون وحققوا فيها أعظم الانتصارات . فهذا هو القيسرانى يخلد معركة حصن بارين فى عهد عماد الدين زنكى ، ولا يفوته أن يهدد ويتوعد الأعداء ، ويبعث اليأس فى نفوسهم ، ويضيق أمامهم سبل النجاة يقول (١) :

حذار منا وأنى ينفع الحذر ٭ وهى الصوارم لاتبقى ولا تذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ٭ من خيله النصر لا بل جنده القدر

سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها ٭ صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا

---

١) الروضتين ١ / ٨٩

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم * فى مأزق من ثناه يبرق البصر
ولوا تضيق بهم ذرعاً مسالكهم * والموت لا ملجأ منه ولا وزر

وبعد فتح الرها على يد زنكى يقول (١) :

وهل يمنع السور من طالع * يشايعه القدر النازل
شققتم إليها بحار الحديـ * ـد ملتطماً موجه الهاطل
وخضتم غمار الردى بالردى * وعن نفسه يدفع القاتل
أرى القس يأمل فوت الرما * ح ولا بد أن يضرب الشاكل
يقوى معاقله جاهداً * وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف يضبط بواقى الجها * ت من فات حسبته الحاصل

وفى المناسبة نفسها يقول (٢) :

فإن يشكل ما الإبرنز فيها حياته * وإلا فقل للنجم كيف سهاده
وبلت سرايا القمص تقمص دونها * كما تتنزى عن حريق جراده
إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها * لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر * يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى لو أن عزمه * رمى سد ذى القرنين أصمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها * ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح أيتها الدجى * فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده * فأية أرض لم تطأها جياده

---

١) خريدة القصر للعماد الكاتب الأصفهانى ص ١١٠ .

٢) الروضتين ١ / ٩٨ .

وقد يأخذ التهديد طابع السخرية فى بعض القصائد ، ومن ذلك قصيدة ابن مطروح والتى كانت بعد هزيمة لويس والإفرنج فى معركة المنصورة وأسره فى دار ابن لقمان .

يقول (١) :

قل للفرنسيس إذا جئته * مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما مضى * من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغى أخذها * تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم * ضاق به عن ناظريك الفسيح

* * * *

وقل لهم إن أضمروا عودة * لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها * والقيد باق والطواشى صبيح

---

١) ديوان ابن مطروح ص ١٨١ .

ثامناً : الهجاء :

والهجاء في هذه الفترة يمتاز بأنه يخدم الجهاد ومقاومة الصليبيين الغزاة . وقد تحدث شعراء هذا العصر عن الصليبيين فذكروا صفاتهم السيئة وأكثروا من الحديث عن هذه الصفات ، والشعراء في كل هذا إنما يقصدون التهكم بالصليبيين المعتدين ، ويرمون إلى الحط من شأنهم .

والهجاء إما هجاء للمعتدين الصليبيين كما سبق القول ، وإما هجاء للمتعاونين معهم ، أو هجاء للمتخاذلين عن القتال ، والشعراء يرمون من وراء ذلك كله إلى أهداف بعينها وهي التقليل من شأن الصليبيين ، وتهوينهم في أعين المسلمين ، وإظهارهم بمظهر الضعف والذلة والهوان ، هذا من جانب ومن جانب آخر تحذير المسلمين من أخطار تعاملهم مع الصليبيين المعتدين .

ويلاحظ في هجاء الشعراء للصليبيين أنهم إنما كانوا ينظرون إليهم على أنهم قوم متخلفون ، لا يعرفون إلا صفات الخسة التي اشتهروا بها كالخداع والنفاق ، والجبن ، والهلع ، والفرار من المعارك والفزع ، كما يلاحظ أن في هذا الهجاء قدراً من الجدل الديني الذي يبرز الشعراء فيه محاسن الإسلام ومدى انخراط الصليبيين في الجهل وانحرافهم عن الملة الصحيحة .

وفي قصيدة لابن منير الطرابلسي نراه يمدح فيها القائد نور الدين ، وفي المقابل يهجو العدو الصليبي ويصفه بالنفاق والكيد للمسلمين .

يقول (١) :

وإذا العدا زرعوا النفاق وأحصدوا * كيدا فعزمك ناقض حصاد

---

١) الروضتين ١ / ١٠١ .

ثم يصفهم بالغدر الذى تمثل فى قائدهم ، جوسلين ، فيقول (١) :

مازال يغدر ثم يغدر قادراً * حتى أتاه بجامح أصابه

ويهجو ابن قسيم الحموى الروم بقصيدة قال فيها (٢) :

وما جاء كلب الروم إلا ليحتوى * حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة * وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب
وما ذم فيها العيش حتى صد منه * فمال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها * نجوم عليه بالمنيـــة تنصب

ومن صفات الإفرنج التى لا يستطيعون التخلص منها صفة الغدر ، وكثيرا ماهاجم المسلمون الصليبيين بسبب نقض الآخرين للعهود . يقول أحد الشعراء يهجو الإفرنج ويذكر غدرهم بالمسلمين ، وعدم وفائهم بما عاهدوا عليه (٣) :

نقضوا هدنة الصلاح بجهل * بعد تأكيدها بحسن الوفاء
ولقوا بغيهم بما كان فيه * من فساد بجلهم واعتداء
لاحمى الله شملهم من شتات * بمواض تفوق حد المضاء
لجزاء الكفور قتل وأسر * وجزاء الشكور خير الجزاء
فلرب العباد حمد وشكر * دائم مع تواصل النعماء

ويهجو شعراء المسلمين العدو الصليبى بكل ما من شأنه إضعاف سلطانهم

---

١) الروضتين ١ / ١٠١ .
٢) المصدر السابق ١ / ٣٣ .
٣) ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢ .

وتعريضهم للمهانة . فيوم أن أسرت جنود الإفرنج وسيق بها مع القتلى إلى دمشق ، وجد الشاعر العربي الفرصة كي يهجوهم ، ويستبشر بهذه البهجة الشاملة يقول (١) :

ما رأينا فيما تقـــدم يوما * كامل الحسن غاية فى البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم * ذلة الأسر والبلاء والفناء
وبراياتهم عـــلى العيس زفوا * بين ذل وحسرة وعناء
بعد عزلهم وهيبة ذكر * فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هلاك الأعادى * عند شن الإغارة الشعواء
لاحمى الله شملهم من شتات * بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر * وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمـــد وشكر * دائم مع تواصل النعماء

* * * *

وكما هجا شعراء المسلمين الصليبيين نجدهم يهجون كذلك المتخاذلين من المسلمين الذين يقعدون عن القتال ، وأخذوا ينتقدونهم بشدة ، كما يعكسون من جهة أخرى أن هؤلاء إنما يصرفون أوقاتهم فى أمور اللهو وفى جمع الأموال وتبذيرها فى طرق الفساد .

ويمدح ابن أسعد الموصلي القائد صلاح الدين لانتصاره على الإفرنج عام ٥٧٦ هـ فى حصن المناقير ، ويخلص من مدح صلاح الدين إلى هجاء المتخاذلين

١) الروضتين ١ / ١٠٨ مطبعة وادى النيل .

المبتعدين عن الجهاد فيقول (١) :

ليفد حياء وجهك كل وجه ... إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم ... وشغول بلهو أو مزاح
إذا ماجالت الأبطال ولى ... ويقدح نحو جائله الوشاح
يرى الإنفاق فى الخيرات حسرا ... وأنت تراه من خير الرباح
همو جمعوا وقد فرقت لكن ... جمعت به الرجال مع السلاح
وبون بين مالك بيت مال ... ومالك رق أملاك النواحى

وحين سقطت بعض بلاد الشام فى أيدى الصليبيين ، وتخاذل أمراء المسلمين ولم يتحمسوا لنصرة إخوانهم وانتشالهم مما حل بهم ، نجد الشاعر أبا المظفر الأبيوردى يهجوهم بقصيدة يقول منها (٢) :

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
دعونا كم والحرب تدنو ملحة * إلينا بألحاظ النسور القشاعم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

---

١) مضمار الحقائق وسر الخلائق ، لمحمد بن تقى الدين الأيوبى ، تحقيق الدكتور / حسن حبشى ص ٤٤ مطبعة دار الهنا بمصر ، الطبعة الأولى نشر عالم الكتب بدون تاريخ .

٢) الكامل فى التاريخ ١٠ / ٢٨٤ نشر دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .

الفصـــل الثالث

خصائص شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية

أولا : الحماسة المتدفقة وحـــرارة العاطفة .

ثانياً : بروز روح الجهاد والقوة والمعانى الإسلامية .

ثالثاً : تسجيل الأحداث الكبرى .

رابعاً : الصدق الفنى فى نقل التجـربة .

خامساً : خصائص عامـــة .

ونعنى بالخصائص السمات العامة التى يتسم بها شعر الجهاد فى جملته ، والتى يتميز بها عن غيره من الشعر .

وقد يتفق شعراء العصر فى هذه السمات أو بعضهـا مع غيرهم من الشعراء الآخـــرين ، لكن الذى يلفت النظر أن شعراء العصر الصليبى لهم حياتهم الخاصة ، ولهم أساليبهم التى خاضوا بها تلك الحياة ، والتى أثرت فى نفوسهم ومشاعرهم ، ومما يوضح ذلك التميز أن شعر الشعراء فى جملته لايتجاوز بأى حال من الأحوال تصوير مشاعرهم ونفسياتهم .

والحقيقة أن الحروب الصليبية قد تركت آثاراً ظاهرة فى الشعر العربى نتبينها واضحة فيما أنتجــــه الشعراء ، وهذه السمات العامـة التى برزت فى شعر تلك الفترة إنما كانت ناتجة فى المقام الأول عن الحروب والصراع الذى كان بين المسلمين وأعدائهم الصليبيين ، وقد قامت فى جانب كبير منهـا على أساس من الأدب العربى الموروث ، إذ أن لها مشابها فى الشعر العربى الذى كان قبل الحروب الصليبية ، فالشعراء فى العصور الإسلامية لم يقصروا قط فى تمجيد أبطال الحروب الإسلامية .

ويمكننا أن نقول إنه على الرغم من أن أسس هذه المظاهر وتلك الخصائص كانت متأصلة فى الشعر العربى الذى كان قبل الحروب الصليبية ، فإن الشعر فى عهد الحروب الصليبية يمتاز بمظاهر معينة طبعته بطابع خاص ، ويمكن اعتبارها لدى الناقد الدقيق الحس من أهم العوامل التى تميز شعرهم عن شعر من عداهم ممن سبقوهم بصفة عامة .

وأبرز هذه الخصائص وتلك السمات مايلى :

أولا : الحماسة المتدفقة وحرارة العاطفة :

العاطفة عنصر هام من عناصر الأدب ، وركن أساسى من أركانه ، بل هى عماده ، وهى التى تمنحه صفة الخلود (١) .

والعاطفة هى التى توجه خيال الشاعر ، وتدفعه إلى انتقاء الألفاظ واختيار صور القول ، ثم هى التى تجعل الشعر صورة صادقة لنفس الشاعر وقطعة من حياته ، وتكشف عن تجربته بوضوح ، بل إن أول مايتميز به الشعر القوى الصادق أنه تعبير عن عاطفة تجيش بنفس الشاعر . أما الشعر الضعيف فهو الذى لا ينبع من عاطفة ، وهو شعر يأتى كله زائفا تعوزه الحرارة .

والشاعر الحق هو الذى تتضح فى نفسه تجربته ، ويقف على أجزائها بفكره ، ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر فى الكتابة ، والتجربة الشعرية يستغرق فيها الشاعر لينقلها إلينا فى أدق مايحيط بها من أحداث العالم الخارجى فتتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التى تتمثل فى النفس أو الفرد إزاء الأحداث التى تحيط به ، (٢)

وفى الشعر يقول الأستاذ أحمد الشايب : « وخلاصة مايقال فيه أن يكون تعبيراً صادقا عن العقل والشعور ، حتى يستطيع نقل مافى نفس الشاعر إلى نفس القارىء ، ويضمن بذلك التهذيب والتأثير ، (٣) .

---

١) النقد الأدبى ، أحمد أمين ١ / ٢٢ ، النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة .

٢) النقد الأدبى ، الدكتور / محمد غنيمى هلال ص ٣٨٤ ، دار النهضة .

٣) أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ص ٣٠٢ ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣ م .

والحقيقة أن العهد الإسلامي لم يعرف حروبا كانت بمثابة مجازر جماعية مثل تلك التي شهدهـا في عصر الحروب الصليبية ، إذ كان خطر الصليبيين خطرا داهما ، وكانت جيوشهم بمثابة عـــدو انقض بكل ما أوتى من قوة للاستيلاء على كل البلاد الإسلامية ، وقد أظهروا في غزوهم ما أظهروا من ضروب الوحشية وألوان القسوة والجبروت ، ولم لا وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إلى جيوش الصليبيين من كل فرقة طائفة ، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة .

وكل هذه الأحداث أوحت بشعر تدفقت الحماسة في أرجائه ، وبعاطفة حارة تبعث فيه الحيـــاة والقوة ، الأمر الذي يبين مدى ما كان يعتمل في نفوس الشعراء يومئذ من اضطرام نار الألم لاغتصاب أراضي المسلمين من جهة ولمـا أصاب البلاد التي دخلها الإفرنج من تشريد ، وضيم ، وترويع للآمنين وتحكيم السيف في رقابهم ، واستباحة كل حقوقهم وأعراضهم .

وقد تلون الشعر في هذا العصر ألواناً شتى : بين فرح وحزن ، وحسرة وبهجة ، وبين قوة وإقدام ، أو خوف وذعر ، إلى غير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات التي ألمت بالأمة الإسلامية في تلك الفترة من الزمان

وليس يخفى أنه قد تأثر في جميع صوره بالصراعات الموجودة بين المسلمين والصليبيين ، فقد تسلط هذا الصراع على الشعر ، ودفعت الفكرة الدينية الشعراء إلى أن ينظموا شعرا في الدعوة إلى الجهاد ، وقد التزم كل الشعراء بهذا فلم يحيدوا عنه إلا نادراً .

يقول الدكتور / أحمد أحمد بدوى : « ومما هو جدير بالذكر أن فكرة

الوطنية والقومية لم يظهر هنـاك أثر ما فى شعر هذا العصر ، فلم يكن ملوك هذا العصر وسلاطينه يحاربون الفرنج على فـكرة أن هناك وطنا لهم مغتصبا فمعظمهم لا ينحدر من أصلاب أهـــل البلاد ، وإنما كانت الفـكرة السائدة يومئذ هى الفـكرة الدينية ، وهى الفكرة التى سادت نفوس الشعراء فى ذلك العهد ، فلم يكن الخوف من سقوط دمياط مثلا فى يد الفرنج أن جـــزءا من أرض الوطن المصرى أو العربى ، سيقع فى يد العدو ، ولـكن لأن المصحف سيحل محله الإنجيل ، والآذان سينسى ويأتى بدله الناقوس .

وإذا كنا قد رأينا بعض شعراء ذلك العصر يشتاقون إلى دمشق ، أو إلى القاهرة فلم يكن ذلك منبعثا عن شعور وطنى ، أو فـكرة قومية ، ولـكن عن عاطفة شخصية مبعثها ما وجده الشاعر من سعادة هنا أو هناك ،(١) .

والحق أن هذا الشعر قد أثار ثورة وانفعالا فى نفوس مستمعيه من غـير المحاربين ، لأنه شعر واقعى يقوله الشعراء فيما يعيشونه ويفعلونه ، لا فـــيما يتصورونه ويتخيلونه ، فهو يدور حولهم ، ويصور إيمانهم ، ويفخـــر بانتصاراتهم ، وهذا يشير إلى أنه ينبعث عن إيمان قوى وانفعال عميق ، وغيرة بالغة . ويتصف كذلك بتصوير الحال تصويرا يبلغ من نفس المستمع ماينشده الأدب من إثارة نفسه ، وتدفق عواطفه ، ولذلك فليس غريبا أن نقول إننا نقرأ أشعار شعراء الحـــروب الصليبية فنحس كأننا نراهم ونرى حياتهم وظروفهم ، ونلمس بحواسنا البواعث التى ساقتهم إلى هذا اللون من الشعر .

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ١١٨ .

والحقيقة أنه كان لهذا الالتزام الذى أخذ به الشعراء أنفسهم ، ولهــذا الطابع من الحماسة المتدفقة وحرارة العاطفة ، كان لهذا كله أثر واضح فى تشابه شخصيات الشعراء من جانب ، وفى خلق التشابه والتكرار فى شعرهم من جانب آخر حتى أشكلت نسبة كثير من شعر الشعراء إلى أصحابه الحقيقيين واختلفت الروايات حول نسبة بعض الشعر لشاعر أو لغيره .

ولعل السبب فى خلق التشابه والتكرار فى شعرهم ، وإشكال نسبة من هذا الشعر إلى أصحابه الحقيقيين ، أن أكثر ما عبر عنه الشعراء آنذاك محدود مشترك بينهم جميعا ، فهم يتغنون بعاطفة واحدة ، وينزعون فى الغالب الأعم إلى هدف واحد ـ وفى رأيى أن مثل هذا التشابه وذلك التكرار لا ينقص بأى حال من الأحوال من شأن هؤلاء الشعراء ، ومن شأن شعرهم ، كما لا ينقص من درجة الصدق والإخلاص فيه ، لأنه ليس تكرارا بالتقليد ، أو استدعاء لنموذج شعرى غالب ، لخيانهم التى عاشوها قد وفرت لهم مادة غزيرة لفنهم استلهموها ولم يشتغلوا بغيرها .

والحقيقة أن الخطر الصليبى كان بلا حدود . يروى ابن تغرى بردى أن الفرنج حين توغلوا فى أراضى المسلمين واستولوا على بيت المقدس ، وأصابوا فيه السكان ما أصابوا من تشريد وذبح وتقتيل خرج المستنفرون من دمشق ووصلوا الى بغداد ، وأخذوا يبكون ويستغيثون ويستنجدون ، وكان معهم قاضى دمشق « زين الدين أبى سعد الهروى » فقام القاضى فى الديوان وأتى بكلام أبكى الحاضرين .

وقد أنشأ القاضى الهروى فى ذلك قصيدة مؤثرة ومنها (١) :

أرى أمتى لايشرعون إلى العدا * رماحهم ، والدين واهى الدعائم

وليتهم إذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإذ زهدوا فى الأجر إذ حمى الوغى

فهلا أتوه رغبة فى الغنائم

وتزداد الحماسة وتقوى العاطفة فى ذلك الشعر الذى قيل فى أوقات المحن التى مرت بمصر والشام وهما ينهضان بأعباء هذه الحروب . ومن الطبيعى أن يستنجد أهل الإسلام بعضهم ببعض ، ويستنهضوا من يمكنه المساعدة ، ومن ثم رأينا رسائل الاستنجاد تكثر ، وكان كاتبها يبث فيها مايبعث فى المرسل إليه الغضب وحب الانتقام ، فيعد من ثم العدة ، حتى لاتنزل بأراضى المسلمين الكوارث . وقد تضمنت تلك الرسائل وصفا للفرنج ، وبيانا لمخاطرهم وخطر تجمعهم ، كما وصفت هذه الرسائل إقبال الصليبيين على الحروب فى حماسة وغيرة .

وقد أرسل صلاح الدين الأيوبى وهو عند عكا يكابد الحرب مع الصليبيين برسالة إلى بغداد ، كما أرسل برسالة أخرى إلى رجال أطراف الدولة الإسلامية ، وقد تضمنت هذه الرسائل شرحا لما لاقاه المسلمون فى حصار عكا من ويلات ، وتضمنت كذلك طلب العون والنجدة . . كل ذلك بهدف تحفيز المسلمين للإقبال على الجهاد والنفرة فى سبيل الله ، وتقديم الغالى

---

١) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ ، ١٥٢ .

والرخيص في سبيل طرد الافرنج واجلائهم عن ديار المسلمين (١) .

ولم تكن هذه هي كل رسائل صلاح الدين ، بل إنه قد أرسل برسائل عديدة يحذر فيها من تمادى الافرنج في الاستيلاء على بلاد المسلمين ، فقد أرسل برسالة إلى المغرب ، كما أرسل برسائل أخرى إلى أخيه سيف الاسلام يستقدمه إليه وكثيراً ما كانت هذه الرسائل تفتتح بأبيات حماسية من الشعر ، تحرك الهمم وتدعو الى اجتماع الشمل على قتال الافرنج ، وتعاون كل أفراد المسلمين على لقاء العدو الذى أخذ يجمع شمله المبدد بعد معركة بيت القدس ، ومن ثم فلا بد من الاعداد له والتأهب لرده ، ومنازلة ما بقى فى يده من أرض مغتصبة .

ومن الذين كتبوا الكتب وأرسلوا الرسائل المعظم عيسى ، فحين حاصر الفرنج الطور نجده يرسل كتابا الى بغداد يستنهضها ، ويطلب منها النجدة ، ويحذر الخليفة من تمادى الافرنج فى الاستيلاء على الأراضى الاسلامية ، وقد صدر المعظم كتابه هذا ببيتين من الشعر قيل إنهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي وهما (٢) :

قل للخليفة لا زالت عساكره * لها إلى النصر إصدار وإيراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا * لا يغفلن ، فحصن الطور بغداد

وفى البيتين طلب الاسراع بالنجدة ، لأن تأخـــرها يضعف من قوى المسلمين بقدر ما يزيد فى قوة الافرنج ، كما أن فى البيتين تحذيرا من عاقبة التقاعد

---

١) انظر الروضتين ٢ / ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٨٨ .

٢) ذيل الروضتين ، لعبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (أبي شامة) ص ١٠٣ الطبعة الأولى ١٩٤٧ م .

عن تقديم العون والنجدة ، وما يستتبع ذلك من عواقب وخيمة ، وأشد ألوان الضرر .

وحين حاصر الفرنج ميناء دمياط اضطربت بها الأمور ، وبلغ الضيق مبلغه بالنفوس ، فقد قلت الأقوات ، واشتد غلاء الأسعار ، وكثرت الأمراض ، وبدأ الجوع يفعل فعله فى أهالى المدينة ، واشتد الأمر كثيرا على الملك الكامل لأنه رأى الامدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين ، ولذلك كتب من وقتها رسالة إلى أخيه الملك الأشرف موسى يستنهضه ويطلب منه أن يسرع فى الوصول إليه ، وقد أقبل الملك الأشرف دون إبطاء وتعاون مع أخيه فى وجه العدو ، والتأم شمل الأسرة واتحدت كلمتهم على نحو لم يحدث منذ عهد صلاح الدين .

وأثناء هذه الظروف القاسية التى واجهت مدينة دمياط كتب الأمير جمال الدين الكنانى أبياتا يشكو فيها حال دمياط وتحطم قوى سكانها معنويا وقد توجه بهذه الأبيات إلى الملك الكامل ، وقد أحدثت هذه الأبيات أثرها فى نفس الملك لدرجة جعلته ينادى بالجهاد العام .

ومن هذه الأبيات (١) :

يا مالكى ، دمياط ثغر هدمت	شرفاته ، كادت تجث أصوله
يقريك من أذكى السلام تحية	كالمسك طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد ، وانك سامع	حتى كأنك جاره ونزيله
يا أيها الملك الذى ما إن يرى	بين الملوك شبيهه وعديله

١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ١ / ١٩٩ .

هذا كتاب موضح من حالى ... ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت إليه طريقه ... والبحر عز لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه ... وحنينه ، وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأم بابك لائذا ... لكنه سدت عليه سبيله
فقد انتهت أدواؤه وتحكمت ... علاته ، ونحا عليه نحوله
وبقى له رمق يسير ، يرتجى ... أن يشتفى لما دهاك عليله
فاحرس حماه بعزمة تشفى بها ... داء بمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ... ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر فى نصر الإله ودينه ... ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محدق ... ما إن يمل من الدموع همول
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت ... صلبانه ، وتلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أوجائه ... وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله ... حقا ، وجملته ، وذا تفصيله
وكفاك يا ابن الأكرمين بأنه ... أضحى عليك من الورى تعويله
حققت رجاء فيك ، يامن لم يخب ... أبدا لراجى جوده تأميله
وادخر ليوم البعث فعلا صالحا ... الله ضامن أجره وكفيله

وفى الأوقات العصيبة التى تستدعى تحريض الشعب واستنهاضه للقتال ، وحثه على الجهاد ، كان الشعراء يقبلون على من يتوسمون فيهم من الملوك

حب الجهاد ، يشدون من عزمهم ، ويباركون خطواتهم . ولا شك أن الشعراء يعلمون ما للشعر من تأثير فى النفوس ، فتأنقوا فى نظمه ، وأخذوا يعبرون فيه عن آمال البلاد والعباد ، ويستحثون الهمم على مواصلة الجهاد حتى الظفر والانتصار .

وحين أصاب المسلمين ما أصابهم وجد الشعراء فى صلاح الدين الأيوبى أمنيتهم المنشودة ، فأحاطوا به وأخذوا يباركون خطواته ويشجعونه على تحقيق أمانيه ، تلك التى من أعزها وعلى رأسها استخلاص القدس من أيدى الغزاة الصليبيين .

ونلمح فى أبيات العماد الكاتب الرغبة الملحة فى تحقيق تلك الغاية ، يقول (١) :

ويوسف مصر بغير التقى * وبذل الصنائع لم يوصف

فسر ، وافتح القدس ، واسفك به * دماء متى تجرها ينظف

وخلص من الكفر تلك البلا * د يخلصك الله فى الموقف

وحين فتحت القدس على أيدى صلاح الدين مضى الشعراء من جهتهم يطالبونه بالمضى إلى ما بقى من البلاد تحت يد الفرنج ، فيحاول استردادها .

يقول العماد الأصبهانى فى ذلك (٢) :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من

يمشى على الأرض ، أو من يركب الفرسا :

---

١) الروضتين ١ / ٢٦٩ مطبعة وادى النيل .

٢) المصدر السابق ٢ / ١٠٢ .

من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى

صور ، فإن فتحت فاقصد طرابلسا

أثر على يوم أنطرسوس ذا لجب

وابعث إلى ليل أنطاكية العسا

وأخل ساحل هذا الشام أجمعه

من العداة ومن فى دينه وكسا

ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا

فإنهم يأخذون النفس والنفسا

ثانياً : بروز روح الجهاد والقوة والمعانى الإسلامية :

لقد وقف شعر الجهاد فى الأزمات التى مرت بالمسلمين أثناء الغزو الصليبى وأخذ يحث على اجتيازها ، ويهون من أمرها ، ويشد العزائم على التغلب عليها والصبر لها حتى تمر وتنقضى . كما صور تلك الشدائد ؛ وصور كذلك نبضات القلوب عندها ، وارتجاف الأفئدة من شدتها ثم وقوفه يحفز على التغلب عليها . . والحق أن الشعر قد جرى على ألسنة بعض أبطال الحروب الصليبية يستمدون من معانيه القوة ويستلهمون معانى الفداء والتضحية .

ولعل من أشد الأوقات الحرجة ضيقا حصار عكا عام ٥٨٥ هـ ، وقد نطقت أشعار الشعراء فى هذا الموقف بما كان يعانيه المسلمون آنذاك من حرج وضيق ، لجند الإسلام قد طال بهم المقام . وقد وصف الشعر كل ذلك وأخذ يشجع على الثبات ويحث على النصر .

كما مضى يمجد الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأبلوا فيها بلاء حسنا وأخذ من ثم يسجل أسماءهم ويحيطوهم بهالة من الإعجاب والتقدير ويخلدهم فى صورة محببة إلى النفس يزينها الإيمان ويجملها اليقين .

وقد ترك لنا الشعر كثيرا من صور هؤلاء الابطال . فهذا هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، إنه أحد كبار أبطال الحروب الصليبية وقد خلف لنا صورا مشرقة تغنى بها الشعراء وأشادوا فيها ببطولاته وأمجاده .

وقد صوره لنا الشاعر ابن منير الطرابلسى إنسانا شجاعا لايتوانى عن تحطيم قوى الشرك واستباحة حماه ، وفوق ذلك فهو إنسان عالى الهمة لا يملكه غيظ ولا غضب وهو ملك جواد يجد المضطر عنده الأمن والحماية .

يقول الطرابلسى (١) :

فداك من صام ومن أفطرا ... ومن سعى سعيك أو قصرا

وما الورى أهلا فتفدى بهم ... وهل يوازى عرض جوهرا

عدل تساوى تحت أكنافه ... مطافل العين وأسد الشرى

يانور دين الله كم حادث ... دجا وأسفرت له فانشرى

وكم حمى للشرك لايهتدى الوهـ ... ـم له غادرته جـزرا

ياملك العصر الذى صدره ... أفسح من أقطارها مصدرا

لله أصل أنت فـرع له ... ما أطيب الجنى ! وما أطهرا !

لا عدم الإسلام من كفه ... كهف لمن أرهق أو أحصرا

كأنما سـاحته جنة ... أجرت بها راحته كوثرا

تصرم الشهر الذى كنت فى ... أوقاته من قدره أشهرا

جهاد ليل فى نهار غـزا ... إذ كنت فيه الأصبرا الأشكرا

ولعل صلاح الدين الأيوبى هو أعظم بطل فى الحروب الصليبية نال من اهتمام الشعراء ما لم ينله غيره (٢) ، وظفر بتقديرهم وإعجابهم ، فأحاطوا به يشيدون بأمجاده وبطولاته ويسجلون كل ما قام به من حركات مباركة فى سبيل مجد الإسلام .

والحق أن عدد الشعراء الذين تضافروا على رسم بطولة صلاح الدين يجل عن الحصر ، وكانت أبرز الصفات فى مدحهم له شجاعته ومقدرته على قيادة

---

١) المرجع السابق ١ / ٥٧ .

٢) انظر صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ، د / أحمد أحمد بدوى .

الجيوش المظفرة ، وهنا تتجلى روح العصر التي تجد مثلها الأعلى في إجادة أسباب القتال ، والتبريز في ميادين الحرب ، وتكاد لا تخلو قصيدة من القصائد التي مدحت صلاح الدين من الإشادة بهذه الصفة وتمجيدها .

وصلاح الدين في شعر الشعراء بطل من أبطال الجهاد في سبيل إعزاز دين الله ، وهو قائد قدير على رأس جيش قوى مدرب ، وهو حاكم يسهر على أمن الناس وراحتهم ، وهو فوق ذلك كله مقدام على حرب الفرنج ، فكم من مرة ألحق بهم الهزائم ، وكم نالهم بفتكه وتدميره ، وقد صرف معظم جهوده لإضعاف الصليبيين وتقليم أظافرهم واسترداد ما استطاع استرداده مما اغتصبوه من البلاد .

فهذا هو الشاعر سبط بن التعاويذى ، يرسم صفات القائد صلاح الدين ، تلك التي جعلته عظيما مهابا في أعين الناس .

يقول (١) :

ملك ترفع عن ضريب قدره * فإليه أكباد الرواحل تضرب
أدرى له الأعداء جد غالب * وحمى الممالك منه ليث أغلب
يدجى ويرهب بأسه ، والماجد المفضال من يرجى نداه ويرهب
ثبت إذا غشى الوغى والزاغبيـة شرع والأعوجية شزب
مخضـرة أكنافه لوفوده * والعام محمر الذوائب أشهب
أروض بروض المكرمات أريضة * وثرى بنوار الفضائل معشب

---

١) ديوان ابن سبط التعاويذى ص ٢٢ ، تحقيق مرجليوت ، مطبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣ م .

صب بتشديد المآثر متعب • فيها ومن شاد المآثر يتعب
ملكت بحاياه القلوب محبة • إن الكريم إلى القلوب محبب
كف تكف الحادثات وراحة • ترتاح للجدوى وقلب قلب
وندى يهش إلى العفاة تكرما • ومواهب بالطارقين ترحب
وصرامة كالنار شاب ضرامها • خلق أرق من المدام وأطيب
تغريه بالعفو الجناة كأنما الجانى إليه بذنبه يتقرب
فيرى لهم حقا عليه ، ولم يكن • ليبين فضل العفو لولا المذنب
بك ياصلاح الدين يوسف أكب الـ • نائى ورق المقشعر المجدب
ذلت أخلاق الزمان لأهله • فأطاع وهو الخالع المتعصب
ونهضت للإسلام نهضة صادق العزمات ترأب من ثأاء وتشعب (١)
وغضبت للدين الحنيف ولم تزل • فى الله ترضى مذ كنت وتغضب
غادرت أهل البغى بين مجدل • لقى الحمام وخائف يترقب
أو هارب ضاقت عليه برحبها الـ • أرض الفضاء وأين منك المهرب
فأصبح بلاد الروم منك بغارة • للنصر فيها رائد لا يكذب
احسم بحد ظباك داء حسمه • ودواؤه بعد التفاقم يصعب
فالعدل ليس بناجع ، أوتلتقى • وغرار فصلك بالنجيع مخضب
لاتعفون إذا ظفرت بمجرم • منهم فرب جريمة لاتوهب
فلتشكرنك أمة تحنو على • ضعفائها حدبا كما يحنو الأب

---

١) الثأى : الإفساد .

هذه أهم الصفات البارزة التى وصف بها ابن التعاويذى الحاكم البطل صلاح الدين الأيوبى ، كما تخيله أهل ذلك العصر . فابن التعاويذى يجد فى نفسه إعجابا قويا بصلاح الدين ، وقد عبر عن هذا الإعجاب بخير مافى وسعه من الشعر ، فقد اختار صوراً واضحة بينة ، وأتى بشعر كل مافيه من تعابير واضحة ، وهو سليم فى دلالته على معناه ، لا غموض فيه ولا التواء فى دلالته .



ثالثاً : تسجيل الأحداث الكبرى :

إن شعر الجهاد كان سجلا حافلا بالأحداث التى مرت بالأمة الإسلامية ، ففيه حديث مفصل عن الانتصارات وعن النكبات ، ومن مجموعه يمكننا أن نؤلف أحداثا تاريخية مفصلة عن العصر ، فهو مرجع تاريخى مهم لدراسة العصر لدرجة تجعلنا نقول إنه من المستطاع اتخاذ هذا الشعر مفسراً لأحداث التاريخ ، فقد اتخذ حقائق التاريخ ميدانا جال فيه فسجلها وسجل شعور الناس بها ومن مجموعه كذلك يمكننا أن نرتب ملحمة شعرية خالدة تصور هذا العصر بكل دقة وجلاء .

والواقع أنه كان للحياة التى شهدها العصر أثر كبير فى إثراء شعر الجهاد ، إذ المعروف أن الحياة فى هذا العصر تختلف فى جميع صورها عن الحياة فى أى عصر آخر ، فعصر الحروب الصليبية بما فيه من حروب وفتن ، كل ذلك كان رافدا يغذى الشعر بالمعانى ، فتكثر من ثم فيه الأخيلة ، وقد ساعدت ظروف العصر أصحاب القرائح فى خدمة هذا الضرب من الشعر ، فنبغ شعراء كثيرون وصفوا المعارك ، وتحرك الجيوش ، والتحام السيوف واشتجار القنا ، كما وصفوا رحلة الحرب نفسها منذ تحرك الجيوش ، وقد زاد بعضهم فوصف ماتسفر عنه المعارك من انتصارات أو هزائم فيصف من ثم روعة الانتصار ، كما يصف ذل الهزيمة وما يلحق بالمهزومين من عار .

وقد سجل شعر الجهاد بداية الحروب الصليبية ، كما سجل الحملات الصليبية ، وسجل كذلك الجهاد ضد الصليبيين ، وما دار فى العصر من معارك طاحنة ، كما سجل المعارك التى تم النصر فيها للمسلمين ، وأشاد بمن شاركوا فى هذه المعارك .

وقد استطاع الصليبيون أن يكونوا إمارات صليبية فى بلاد الشام كان على رأسها إمارة « الرها » وإمارة « أنطاكية » وإمارة « بيت المقدس » وكانت كل إمارة من الإمارات مقرا لمعارك شديدة بين المسلمين والصليبيين .

أما معركة الرها فكان بطلها عماد الدين زنكى . وعماد الدين أول بطل كبير للحروب الصليبية ، وكان جديرا بأن يشق الطريق أمام خلفه ، وأن يوضح لهم النهج المستقيم . وقد استولى عماد الدين على الرها فى جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ وبذلك كانت أول مدينة كبيرة تسقط فى أيدى المسلمين . وليس هذا فحسب بل إن سقوطها قد أثار فى نفوس المسلمين الآمال فى استعادة ما فقدوه ، كما زرع فى نفوسهم الثقة ، وجعلهم يحسون أنهم على درجة تمكنهم من طرد الصليبيين من ديار المسلمين ، وباستيلاء المسلمين على الرها أمكن لهم أن يستولوا على مايتبع هذه الإمارة من مدن وقرى .

يذكر القيسرانى أثر النصر الذى أحرزه عماد الدين فى الرها ، وكيف رفع شأن الإسلام وأعلى مجده ، وكيف أحل الأمن محل الخوف ، وكيف توطدت به دعائم الأمن ، واستقرت أركان الإسلام فيقول (١) :

ليهن بنى الإيمان أمن ترفعت * رواسيه عزا ، واطمأن مهاده

وفتح حديث فى السماع حديثه * شهى إلى يوم المعاد معاده

مدينة إفك منذ خمسين حجة * يفل حديد الهند عنها حداده

تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها * ترقت إليها خان طرفا سواده

وجامحة عز الملوك قيادها * إلى أن ثناها من يعز قياده

---

(١) الروضتين ١ / ٣٧ مطبعة وادى النيل .

فأضرمها نارين : حربا ، وخدعة * فما راع إلا سورها وانهداده

فياظفرا عم البــلاد صلاحه * بما كان قد عم البلاده فساده

فلا مطلق إلا وشـــد وثاقه * ولا موثق إلا وحل صفاده

ولا منبر إلا ترنخ عـــوده * ولا مصحف إلا أنار مداده

ويمضى الشاعر فيتحدث عن مدينة الرها ، وما كانت تتصف به من حصانة ومناعة ، وما أصاب البلاد فى عهد عماد الدين فيقول :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدهـا * لقد ذل غاويكم وعز رشاده

رويدكم ، لامانع من مظفـــر * يعاند أسباب القضاء عناده

مصيب سهام الرأى ، لو أن عزمه

رمى سد ذى القرنين أحمى سداده

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها * ممالكها إن البلاد بلاده

كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى

فياطالما غال الظـــلام امتداد

ومن كان أملاك السموات جنده * فأية أرض لم ترضها جياده

وأما معـــركة حطين فما هو معروف أن بيت المقدس قد وقع فى أيدى الصليبيين عام ٤٩٢ ، وكانت معركة حطين عام ٥٨٣ ، وتعد هذه المعركة أعظم معركة حدثت بين المسلمين والفـــرنج ، وكان صلاح الدين الأيوبى هو بطل هذه المعركة .

وقد وقف الشعر يصور هـذه المعركة ويتغنى بانتصاراتهـا .

يقول العماد الأصفهاني يخاطب القائد صلاح الدين (١) :

حططت على حطين قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

غداة أسود الحرب معتقلو القنا
أساود تبغي من نحور العدا نهسا

أتوا شكس الأخلاق ، خشنا فلينت
حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا

بواقعة رجت بها الأرض جيشهم
دمارا ، كما بست جبالهم بسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

وطارت على نار المواضي فراشهم
صلاء فزادت من خموسهم قبسا

وقد خشعت أصوات أبطالها ، فما
يعى السمع إلا من صليل الظبا همسا

سبايا ، بلاد الله مملوءة بها
وقد شريت بخسا ، وقد عرضت نحسا

يطاف بها الأسواق ، لا راغب لها
لكثرتها ، كم كسرة توجب الوكسا

---

١) الروضتين ٢ / ٨٣ مطبعة وادي النيل .

ويتحدث ابن الساعاتى عن هذه المعركة فيشيد بها ، كما يتحدث عن نتائجها ويصور بهجة المسلمين بهذه النتائج فيقول (١) :

أعيـا وقد عاينتم الآية العظمى
لأية حال تذخـر النثر والنظـما

وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما

تحل به الأضداد ، واللفظ واحد
فكم سر قلبا فى الأنام ، وكم غما

حبـا مكة الحسنى ، وثنى بيثرب
وأطرب ذياك الضريح وما ضما

فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السهم من يوسف أصمى

وقد أوتى الفتحين : مالا ، وبلدة
فلم يبق نصرا ماحواه ، ولا غنما

ففى لهوات الشرك أرسلها شجى
وفى جبهـة الأيام غادرها وسما

ومـا كان إلا الداء أعيـا دواؤه
وغير الحسام العضب لا يعرف الحسما

---

١) ديوان ابن الساعاتى ٢ / ٣٨٥ .

سلوا الساحل المخشى عن سطواته
فما كان إلا ساحلا صادق اللمسا

تجاوزت ما أعيا الجبـــال مناله
فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما

* * * *

أما معركة دمياط فكانت عام ٦١٥ هـ ، وقد وصل الصليبيون إلى دمياط طمعا في الاستيلاء عـــلى مصر كي يحولوا بينها وبين مساعدتها للشام ، وقد فرضوا حصاراً شديدا على المدينة واستطاعوا دخولها في شعبان عام ٦١٦ هـ . وكان لسقوطها أثر بالغ في نفوس المسلمين من ناحية وفي نفوس الشعراء بصفة خاصة من ناحية أخرى ، وذلك لما للمدينة من أثر يهدد العالم الإسلامي كله .

وحين استرد المسلمون المدينة من أيدي الصليبيين في رجب عام ٦١٨ هـ ، وجدنا الشعراء يستبشرون بهذا ، ويحتفون احتفاء شديدا بعودة هـذه المدينة إلى الحظيرة الإسلامية ، بل إن هـذا النصر قد هز شاعرية عدد كبير من الشعراء .

وعلى رأس الشعراء الذين باركوا عودة دمياط إلى المسلمين الشاعر بهـاء زهير (١) ، فقد نظم قصيدة طـــويلة ، وقام بإهدائهـا إلى الملك الكامل ،

(١) ولد البهاء زهير بمكة المكرمة عام ٥٨١ هـ ، ثم انتقل مع والديه إلى قوص حيث نشأ وتعـــلم . وقد أحب مصر كثيرا ، والتقى بأدبائها المرموقين ، وتلقى الروح المصرية وتشربها ، والتقى بالأمير مجـــد الدين اسماعيل بن اللمطي الذي تولى عام ٦٠٧ هـ وعمل كاتبا له فترة من الزمن ، وقد =

وامتداحه فيها ، ويجل ما له من دور فى معركة دمياط ، وما كان له من أثر فى نفوس المسلمين . وقد استهل القصيدة بالتعبير عن فرحة المسلمين باسترداد المدينة فيقول (١) :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة
يقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شيء من النذر

ثم يقول إن هذا الفرح الذى تم بعودة دمياط إنما هو فرح للعالم الإسلامى جميعه .

وما فرحت مصر بذلك وحدها *	لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم تقم لله حق قيامه *	لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية *	لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة *	ويثرب ، ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله : إن سميه *	حمى بيضة الإسلام من نوبة الدهر

= اتصلت أسباب الشاعر بالأمير فى قوص وأخذ ينظم فيه المدائح ، وشعره يمتاز بالسهولة وباعتماده على الروح الشعبية فى التعبير واستعارة اللفظ والصور . وقد توفى عام ٦٥٦ هـ .

١) ديوان البهاء زهير . ص ٥٢ طبعة مصر ١٢٩٧ هـ .

وبعد أن يتحدث عن طول هذه المعركة وما أبداه الملك الكامل فيها من صبر وثبات ، وما فعله أفراد الأسرة الأيوبية حين اتحدوا وصاروا جبهـــة واحدة ، ومدى تأثير ذلك على محاصرة العدو واضطراره الى الاستسلام .

وبعد ذلك يتحدث عن قيمة وأهمية مدينة دمياط فيقول :

كفى الله دمياط المكاره إنها — لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر

وما طاب ماء النيل إلا لأنه — يحل محل الريق من ذلك الثغر

ويتحدث عن الفتح العظيم باسترداد مدينة دمياط فيقول :

فلله يوم الفتح يوم دخولها — وقد صارت الأعوام منها على وكر

لقد فاق أيام الزمان بأسرها — وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر

وياسعد قوم أدركوا فيه حظهم — لقد جمعوا بين الغنيمـة والأجـر

والذى لاشك فيه أنه كان للشعور الدينى أثر كبير فى هذه القصيدة ، فمن هذا الشعور اقتبست القصيدة كثيرا من أفكارها وأخيلتها . وليس ثمة غرابة فى أن تتخذ القصيدة الدين ينبوعا لها ، إذ المعروف أن المناسبة التى بعثت على إنشائها مناسبة دينية قوية ، ولذلك فنحن نرى الدين مهـــتز العطف فى حلل النصـــر .

وبعد أن استسلم الفرنج فى دمياط نراهم يطلبون من الملك الكامل الأمان وكان هذا سببا فى حدوث خلاف شديد بينه وبين إخوته وأمرائه ، ومع ذلك فقد رأى أن يعطيهم الأمان على أن يسلموه المدينة ويغادروا مصر ، وقد فعل الملك ذلك حسما للدماء وصيانة للأرواح ، ورغبة منه فى أن يحقق أهدافه من غير إراقة دماء .

وقد عنى الشاعر ابن عنين (١) بهذه الوقفة التى وقفها الملك الكامل ، فأخذ يوازن بين ماعليه حال المسلمين وما عليه حال الفرنج ، يقول (٢) :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا * إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

غداة لقينا دون دمياط جحفلا * من الروم لايحصى يقينا ولا ظنا

فقد اتفقوا رأياً وعزما وهمة * وديناً وإن كانوا قد اختلفوا لسنا

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت * جموع كأن الموت لهم سفنا

---

١) هو محمد بن نصر الله بن الحسين ، كوفى الأصل . ولد فى دمشق ونشأ ودرس على جماعة من علمائها ، كابن عساكر وقطب الدين النيسابورى والشهرزورى قاضى دمشق ، ثم ارتحل إلى بغداد فأتم علمه هناك . وقد ابتدأ قول الشعر عام ٥٦٠ هـ ، وعاصر دولة صلاح الدين الأيوبى منذ نشأتها ، وحين هجا صلاح الدين صدر أمر بنفيه عن دمشق فأخذ من ثم يطوف بالشام والعراق وغيرهما من المناطق ، وقد أوغل فى المشرق ونظم هناك شعرا يتشوق فيه إلى دمشق ، وقد بلغ تعصبه للعروبة مبلغه . وقد عاد من رحلاته فى الهند إلى اليمن فالتقى هناك بأميرها سيف الإسلام العزيز طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين ومدحه بقصائد تعد من خير شعره فى المدح ، وقد أقام فى مصر مدة طويلة واتصل بجماعة من شعرائها وبعد أن أتيحت له فرصة العودة إلى دمشق عاد إليها وظل فيها إلى آخر حياته من عام ٥٩٧ هـ إلى عام ٦٣٣ هـ وهو عام وفاته . وقد خلف ديواناً من الشعر ، وشعر الهجاء عنده هو عماد شاعريته .

٢) ديوان ابن عنين ، تحقيق خليل مردم . مطبعة دمشق ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .

عليهم من الماذى كل مفاضة
دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا

وأطمعهم فينا غـــرور فأرقلوا * إلينا سراعا بالجيـــاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم * بأطرافها حتى استجاروا بنامنا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى * وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا * طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا * فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية * توارثها عن صيد آبائنا الإبنا
منحنا بقاياهم حيـــاة جديدة * فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا * ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنا
فكم من مليك قد شددنا إساره * وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا * لما ركبوا قيدا ولا سكنوا سجنا

ويتغنى ابن النبيه (١) بالانتصار فى دمياط ، ويعده مقدمة لاسترداد الشام

---

(١) على بن محمد ، مدح القاضى الفاضل والعادل ، ومدح وزيره : صفى الدين ابن شكر ، لم يل عملا فى ديوان الإنشاء بمصر ، ولكنه كتب الإنشاء للملك الأشرف موسى بن العادل ، وكان الأشرف موسى أكبر من اتصل به ابن النبيه وأكثر من أثنى عليـــه ، وقد مدحه فى قصائد كثيرة . غادر أرض مصر ، ووجد فى ظلال الأشرف الحياة الهادئة المطمئنة .
وشعر ابن النبيه فى جملته يدل على نفس مرحـــة تريد أن تستمتع بالحياة وبمباهجها ، وكان لهذا أثره فى نفسه وفى إجادته لشعر الوصف ، وكان =

وطرد الصليبيين منها ، يقول مخاطبا الأشرف موسى (١) :

عكا وصور إلى رؤياك عاطشة * فانهض فقد أمكنتت منهن خلوات
واستنجد الريح عنها ، إذ تسيره * إليك فهو سلام أو تحيات
الله أكبر أن تمسى مزامرهم * تتلى ، وتنسى من القرآن آيات
وأن يخور على القرآن عجلهمو * جهرا ويخفى أذان أو تلاوات
ما كل من طلب العلياء أدركها * ووافقت سعيه فيما سعادات

هذا وقد حرص الحكام على تسجيل كل تلك الأحداث التى شهدتها المعارك ، وحرصوا كذلك على أن يسجلوا دورهم فى هذه المعارك ، حتى يضم هذا الدور إلى المعارك الخالدة فى تاريخ الحروب الطويلة التى دارت بين المسلمين والصليبيين (٢) .

* * * *

أما معركة عكا فهى تعد آخر المعارك التى دارت بين المسلمين والفرنج ،

= للحروب الصليبية أثرها فى ابن النبيه عندما خاض الملك الأشرف مع أبناء الأسرة الأيوبية معركة دمياط ، فما كان من ابن النبيه إلا أن قام بتسجيل الدور الذى قام به الملك ، كما سجل دور جيشه فى القتال . يمتاز شعره بالسهولة والرقة والقصد فى استعمال المحسنات البديعية وإن كان يجارى الطريقة السائدة فى عصره ، الأمر الذى جعل شعره متكلفا الى حد ما . وتوفى عام ٦١٩ هـ .

١) ديوان ابن النبيه ص ٥٦ تحقيق عبد الله فكرى ، مطبعة عبد الغنى فكرى.

٢) انظر النجوم الزاهرة ٦ / ٢٤١ . طبعة مصر ١٣٥٣ هـ .

وبانتهاء هذه المعركة عادت البلاد جميعها إلى سلطان المسلمين كما كان الحال قبل الغزو الصليبي للبلاد . والمعروف أن بطل معركة عكا هو الأشرف خليل بن قلاوون .

وكان لهذه المعركة صداها في الشعر العربي ، ويطول بنا المقام إذا أردنا استعراض القصائد التي أشادت بموقعة عكا ، وما تمتاز به هذه المدينة من حصانة ومنعة ، وما يتسم به جيش المسلمين الذي حارب في عكا .

وقد تحدث شهاب الدين محمود في قصيدة له عن فتح عكا ، وعما تحقق فيها من آمال كان ينظر إليها على أنها بعيدة المآل (١) ، وهي قصيدة طويلة تحدث في مستهلها عن تحقق حلم المسلمين بهذا الفتح العظيم ، وكيف أنسى هذا الفتح ماسبقه من فتوح ، كل ذلك لعظمة نتائج هذا الفتح وضخامة أهدافه .

ويصف الشاعر أحوال عكا وما كانت عليه من مناعة ، ثم يمجد الأشرف خليلا بن قلاوون وجنده البواسل ، وبعد ذلك يصف آثار هذه المعركة التي شهدتها عكا فيقول :

يا يوم عكا لقد أنسيت ماسبقت
به الفتوح ، وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حق الشكر فيك ، فما
عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام عن أمم
والحمد لله شاهدناك عن كثب

---

١) الروضتين ١ / ١٨٢ مطبعة وادي النيل .

أغضبت عباد عيسى ، إذ أبدتهم

لله أى رضـــا فى ذلك الغضب

وأطلع الله جيش النصر ، فابتدرت

طلائع النصر بين السمر والقضب

وأشرف المصطفى الهادى البشير على

ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

فقر عينا بهـذا الفتح وابتهجت

بفتحه الكعبة الغراء فى الحجب

وسار فى الأرض سير الريح سمعته

فالبر فى طرب والبحر فى حرب

ثم ينتقل إلى وصف معركة عكا وما أسفرت عنه من نتائج طيبة للمسلمين وعما لحق الصليبيين فيها من خزى وعار فيقول :

وخاضت البيض فى بحر الدما ، وما

أبدت من البيض إلا ساق مختضب

وغاص زرق القنا فى زرق أعينهم

كـأنها شطن تهوى إلى قلب

توقدت وهى تروى فى نحـورهم

فزادها الرى فى الأشراف واللهب

أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم

فراح كالراح إذ غـرقاه كالحبب

وذاب من حرها عنهم حديدهم
فقيدتهم بها زعء يد الرهب
كم أبرزت بطلا كالطود قد بطلت
حواسه فغدا كالمنزل الخرب
كأنه وسنان الرمح يطلبه
برج هوى ووراه كوكب الذنب
بشراك ياملك الدنيا لقد شرفت
بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها
لديك شيء تلاقيه على لغب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدت إليك نواصيها بلا نصب
كم قد دعت وهي في أسر العدا زمنا
صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت
منه لسر طواه الله في اللقب
وجئتها بجيوش كالسيول على
أمثالها بين آجام من القضب
وحطتها بالمجانيق التي وقفت
إزاء جدرانها في جحفل لجب

مرفوعة نصبوا أضعافها فغـدا
للكسر والحطم منها كل منتصب
ورضتها بنقـوب ذللت شمها
منهـا وأبدت محيـاها بلا نقب
وغنت البيض فى الأعناق فارتقصت
أبراجها لعبـا منهن باللعب
وخلقت بالدم الأسوار فابتهجت
طيبا ولولا دماء القوم لم تطب
ظنوا بروج البيوت الشم معقلهم
فاستعقلتهم ولم تطـق ولم تهب
فأحرزتهم ولكن للسيوف لكى
لا ينجى أحـد منهم إلى هرب
وجالت النـار فى أرجائها وعلت
فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
وأفلت البحر منهم من يخبر من
يلقـاه من قومه بالويل والحرب

وهكذا سجل الشعر أحداث العصر ، وكان صورة لما عبر مراحل الحروب الصليبية ، كما سجل ماتم للمسلمين من انتصار ، وما نكبوا به من هـزائم ، وقد خلد الشعر ماجره الغزو الصليبي على بلاد المسلمين من خراب ودمار ، وخلد

كذلك فى أبياته مفاخر الأبطال الكبار وانتصاراتهم ممن تصدوا للغزاة الفرنج ، وقد حظى هؤلاء الأبطال بالشعر الغزير ، وذلك لما قاموا به من أعمال جليلة .

ومع كل هذا فيمكننا أن نقول إن المتتبع للشعراء الذين قالوا فى مفاخر الأبطال وانتصاراتهم لن يجد من بينهم ذلك الشاعر الذى يتناول شخصية بطل من الأبطال ، ويحاول رسم معالمها وتخليدها كما فعل شاعر العربية المتنبى مثلا مع سيف الدولة الحمدانى (١) فى قصائده التى تسمى « بالسيفيات » . فقد خلدت هذه السيفيات شخصية سيف الدولة كما لم تخلد شخصية قائد من قبل فى الشعر العربى . . هذا على الرغم من أن قائدا كصلاح الدين الأيوبى كان أجدر به - لما أبداه من ضروب الفروسية والشجاعة - أن يخلده الشعر ، لكن الحقيقة تقتضينا أن نقول إن القصائد التى قيلت فيه قصائد عادية ، وقد اهتم الشعراء فى قصائدهم تلك بالصنعة اللفظية أكثر من اهتمامهم بروح الشعر مما جعل هذه القصائد تخرج فى كثير من الأحيان عن طريق الفن والإبداع إلى مجموعة من الألفاظ والصفات المكررة .

---

(١) انظر على سبيل المثال : تاريخ الأدب العربى « العصر العباسى الثانى » ، وانظر كذلك : مع المتنبى ، وهما للدكتور / طه حسين ، ثم انظر : الحرب فى شعر المتنبى ، للدكتور / محمود حسن أبو ناجى .

رابعاً : الصدق الفنى فى نقل التجربة :

على الرغم من وفرة شعراء العصر الصليبى ، والقول بكثرة نتاجهم فإن أكثر ما وصل إلينا من شعرهم لايتناسب وذيوع شهرتهم ، والمعروف أن إنتاج الشعر قد غزر فى عصر الحروب الصليبية ، وكثر قائلوه ، بل إنه لايزال هناك الكثير من شعر شعراء ذلك العصر مخطوطاً ينتظر من يجمعه ويحققه .

ومع أن ماوصلنا من شعر العصر الصليبى قليل ، فإن هذا العصر عرف بكثرة شعرائه كثرة يؤكدها ماتحفل به الكتب التى أرخت لحركتهم ، والمصادر التى تعرضت لأسماء الشعراء . وإذا كان قد ضاع كثير منه فقد بقى قدر آخر لابأس به محفوظاً فى مجموعات قد اختيرت من شعراء العصر ، وفى دواوين بقى بعضها ، وفى هذا القدر المنتثر فى المراجع المختلفة .

ومع أن كتب الأدب والتاريخ قد أوردت ترجمة لكثير من شعراء العصر الصليبى عند الحديث عن تاريخ العصر وحروبه ، والنهضة الثقافية والأدبية فيه ، مع ذلك فإن ترجمات عدد كبير من هؤلاء الشعراء غير وافية ، وكثير من الذين وردت لهم ترجمات من الشعراء كانت محدودة للغاية .

ونحن لانشك فى أن شعراً كثيراً من شعر العصر قد ضاع وفقد تحت ركام الماضى ، كما ضيعت أخبار كثيرة لحياة الشعراء ، يؤكد ذلك أن كثيراً من أشعار شعراء العصر والتى روتها كتب الأدب والتاريخ تبدو وكأنها مبتورة من قصائد طويلة .

والحقيقة أن شعراء العصر قد اهتموا بتسجيل كل معارك المسلمين مع

الصليبيين فى قصائد طويلة تشبه الملاحم ، ولعل ذلك ناتج عن جسامة الأحداث وأهوالها ، ورغبة الشعراء فى استيفاء الموضوع بكل دقة وتفصيل ولذلك كانت حصيلة الشعر فى هذه الفترة غزيرة ووفيرة . ولم لا يكون حال الشعر كذلك وكان أبطال الحروب الصليبية يهتمون اهتماما بالغاً بالشعر لدرجة جعلتهم يطالبون الشعراء أن يقرضوا على ألسنتهم شعرا يسجلون فيه معاركهم وتضحياتهم فى هذه المعارك ؟

فهذا هو نور الدين محمود يطلب من الشاعر أسامة بن منقذ أن ينظم قصيدة على لسانه يفتخر فيها بأمجاده ، ويتحدث عن فتوحاته . وقد أنشأ أسامة بناء على هذا الطلب قصيدة طويلة بلغت أبياتها تسعين بيتا ، وأولها :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر * لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما ندومه * وينقاد طوعا فى أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا * ويرهبها منا على بعدنا الذكر
وما فى ملوك المسلمين مجاهد * سوانا ، فما يثنيه حر ، ولا قر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا * ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر

* * * *

وبعد هذا التمهيد البسيط أظن أن هنا سؤالا يفرض نفسه ولا محيد من الإجابة عليه وهو : هل كان شعر الجهاد الذى قرضه الشعراء فى عصر الحروب الصليبية نابعاً من عواطفهم ؟

والحق أن أول ما يتميز به هذا الشعر أنه تعبير عن عاطفة صادقة جاشت بنفوس الشعراء ، وتحدثت عنها ألسنتهم ، ولذلك جاء صورة صادقة تعكس

بوضوح مابنفوسهم، وتحمل سمات حياتهم وتجاربها . وقد عرف نقاد الأدب التجربة بأنها الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التى يصورها الشاعر حين يفكر فى أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتى، وإخلاص فنى، لا إلى مجرد مهارته فى صياغة القول ليبعث بالحقائق أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم » (١) .

وعلى هذا فالتجربة شرط لازم للشعر، والشعر الذى يعبر عن تجـــربة الشاعر وواقعه يكون صادقا كل الصدق .

وفى الشعر يقول الأستاذ أحمد الشايب : « وخلاصة مايقال فيه أن يكون تعبيرا صادقا عن العقل والشعور حتى يستطيع نقل مافى نفس الشاعر إلى نفس القارىء ويضمن بذلك التهذيب والتأثير » (٢) .

وليس هنــاك من يشك فى أن صدق التجربة هو الذى يضفى على الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة رونقا سليما، بل إن صدق التجربة هو أقصى مايتنظره الناقد من الأديب . وقد رأى ابن رشيق فى هذه الصفة مزية يرتفع بها الشعر إلى قمة الجودة فقال : « وأحسن الوصف مانعت به الشىء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع » (٣) .

---

١) النقد الأدبى، الدكتور / محمد غنيمى هلال ص ٣٨٤ .

٢) أصول النقد الأدبى ص ٣٠٢ .

٣) العمدة ٢ / ٢٩٤ تحقيق محى الدين، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

وشعر الجهاد الذى نظمه شعراء العصر الصليبى لم يتجاوز فى جملته العصر كما لم يتجاوز حياة هؤلاء الشعراء ومشاعرهم نحو حياتهم ، فهو يصور واقعهم الذى يعيشونه ، ويصور إحساسهم بهذا الواقع ، فهو شعر ذاتى استوحوه من حياتهم الشخصية ومن أحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة ، فهم لا يتحدثون عن شيء لذات هذا الشيء ، وإنما يتحدثون عنه من حيث علاقتهم بهذا الشيء ، وحين يتحدثون عن الأمور التى يعنيهم الحديث فيها فإننا نجد حديثهم تجربة حقيقية لما يحسونه ولما يشاهدونه حولهم . ولولا ما يندفع فى شعرهم من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا بالسأم ، لأنه فى الحقيقة ليس هناك فارق كبير بينهم فى المعانى ولا فى الصياغة .

وكون شعر الجهاد فى العصر الصليبى تجربة حقيقية أمر لا يحتاج إلى توضيح ، فلو رجعنا إلى الأغراض التى نظموها فى شعر الجهاد لوجدناها تصويرا لواقعهم الذى يعيشونه ، ولوجدنا التصوير نفسه واقعيا ، فالموضوع واقعى ، وتصويره أيضا واقعى ، وقد ألجأتهم حياتهم التى عاشوها إلى أن يكون شعرهم واقعيا ، يقولون الشعر فيما يعيشونه ويفعلونه لا فيما يتصورونه ويتخيلونه .

ولا شك أن المناخ العام فى عصر الحروب الصليبية كان مجالا رحباً يتسع لقوة العاطفة وصدقها ، فالعصر عصر صراع دينى حقيقى ، وقد نشط كل من الحزبين « المسلمين والصليبيين » فى محاربة الفريق الآخر ، ومحاولة إجهاضه والنيل منه ، ومن ثم خرج شعرهم وكأنه قطعة من حياتهم تتجلى فيه التجربة وتتمثل فيه أحداث العصر خير تمثيل .

إن شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية يمثل حقيقة التجربة الشعرية فى أصدق صورة ، فهو شعر يدور حول جهاد المسلمين ، فيصور إيمانهم ويفخر بتضحياتهم وبانتصاراتهم ، ولما كان شعرهم وحى جهاد المجاهدين ذهبت الكثرة الكثيرة منه فى تصوير حروبهم وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم واستعذاب الموت والتضحية فى سبيل دينهم ، ولذلك يصح أن نقول إننا نقرأ شعر الجهاد فى العصر الصليبى فنحس كأننا نرى المجاهدين ونرى حياتهم وظروفهم ونلمس بحواسنا البواعث التى ساقت الشعراء إلى هذا اللون من الشعر .

وموضوعات شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية موضوعات خاصة بالمسلمين ، من حيث أنهم أحسوها وصارعوا ظروفها ، وقد عبر الشعراء تعبيرا حقيقيا عما كان عليه حال المسلمين بالفعل ، فشعرهم يمثل بحق حياة المسلمين الحربية ، وآمالهم العريضة التى من أجلها قاموا بتلك الحروب وخاضوا تلك الأحداث القاسية .

ويتجلى الصدق العاطفى فى هذه القصائد الوفيرة التى ظفر بها القائد صلاح الدين الأيوبى ، تلك التى تمجد بطولاته وتصور معاركه وما قام به من فتح عظيم لبيت المقدس (١) . كما يتجلى الصدق العاطفى فى قصيدة شهاب الدين محمود فى فتح عكا والتى يتحدث فيها عن هذا الفتح وكيف كان إعجازا عظيما فى نظر الكثيرين .

ومطلع هذه القصيدة :

الحمد لله زالت دولة الصلب * وعز بالترك دين المصطفى العربى

---

١) انظر « ثالثاً : مدح أبطال الحروب الصليبية .

ويتجلى الصدق العاطفى كذلك فى قصيدة بدر الدين المنبجى المطولة « اللامية » والتى قالها فى فتح الأشرف خليل لعكا ، ومطلعها (١) :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل * وفت شأو ملوك الأعصر الاول

وحين نقرأ أبيات العماد الاصفهانى فى رثاء صلاح الدين :

شمل الهـــدى والملك عم شتاته * والدهر ساء ، وأقلعت حسناته
أين الذى مـــذ لم يزل مخشية * مرجـــوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنـــا * مبـــذولة ، ولربه طاعاته
بالله أين النــاصر الملك الذى * لله خالصـــة صفت نياته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه * ذلا ، ومنها أدركت ثاراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت * بالنصر ، حتى أغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدر قناته * حتى توارت بالصباح قناته

.. يخيل إلينا أننا نرى بأس صلاح الدين وبطولته وشجاعته وإقدامـــه وتقواه . بل إن البيت الواحد من هذه الأبيات ليطلعنا على صورة من حياة صلاح الدين الأيوبى كفارس ، ويشرف بنا على معيشته فنعلم منه أنه يعيش حياة بطولية فريدة ، الأمر الذى يؤكد أن القصيدة وصف لتجارب حقيقية مر بها الشاعر وعاناها ، وليس من شك أن القارىء للقصيدة التى منها هـذه الأبيات سيرى الحزن الصادق على فقد ذلك الزعيم الذى استحالت الدنيا بعده إلى فراغ ، وصدق الشعور هنا هو الذى كسى هذه الأبيات هذا التأثير ، وهو الذى أوحى بتتابع جرسها الحزين . ومما هو معلوم أن هـــذه القصيدة

(١) نهاية الأرب للنويرى ٢٩ / ٥٧ ، وفوات الوفيات ١ / ١٥٣ .

طويلة جدا وقد بلغت أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتا .

ومن ثم فشعر الجهاد بصفة عامة يتمثل فيه الصدق . ولعل هذا هو السبب في أن جاء شعر شعراء العصر خلاصة تجـــربة ذاتية حية ، وبعيدا عن التكلف والرياء ، وخرج في جملته ملتهبا متدفقا يعبر عن مشاعر الشعراء وأحاسيسهم ، ولهذا فمن السهل على من يقرأ هذه الأشعار أن يتبين منها قوة المشاعر الدينية لدى الشعراء .

ويجدر بنا في هذا المقام أن نقول إنه كان لهذا الطابع من الصدق الفني أثر واضح في خلق التشابه والتكرار في شعر الشعراء ، حتى أشكلت نسبة بعض هذا الشعر إلى أصحابه الحقيقيين ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن أكثر ماعبر عنه شعراء العصر محـــدود مشترك بينهم جميعا ، فهم يتغنون بعاطفة واحدة ، وينزعون إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه وهو دفاعهم عن العقيدة والدين وقصرهم اهتمامهم على ذلك ، وليس هناك من عجب ! فالمشرب الذى شرب منه هؤلاء الشعراء واحد ، فلم تتميز من ثم شخصياتهم ولم تتباين ، وكانوا على قوة في المشابهة لدرجة جعلت شعرهم يظهر وكأنه صور متعددة لنمط واحد .

والحق أن هـذا التشابه والتكرار لايغض من شأن شعر الشعراء ، كما لاينقص من درجة الصدق والإخلاص فيـــه ، لأنه ليس تكرارا بالتقليد ، أو استدعاء لنموذج شعرى غالب ، ثم إن الشعر لم يكن يمثل عند شعراء العصر الصليبي فنا يتقطعون له أو يتنافسون في تجويده ، فهم في غنى عن تقليد السابقين أو مجاراة المعاصرين . لأن حياتهم قد وفرت لهم مادة غزيرة افنهم

استلهموها ولم يشتغلوا بغيرها ، يؤكد ذلك ويقويه أننا نجـــد شعرهم يمثل الحياة الشخصية لكل منهم ، فحين نقرأ شعر شاعر منهم فإننا نستشف منه حياة صاحبه . ولسنا في حاجة - حين نود أن نعلم حياة الشاعر منهم وظروفه - إلى أن نستقصي شعره كله ، وإنما يكفي أن نلم بقدر من شعره فنعلم منه تفاصيل حياته ، وليس ببعيد عنا ماصنعه المؤرخون من اعتمادهم على شعر الشعراء في استنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها .

وعلى ذلك فلا عيب عـــلى شعر شعرائنا أن يكون قد صدر في مواقف وأحداث بعينها ، وإنما العيب ألا يكون الصدق ملازما لانفعال الشاعر منهم وأن يأتي شعره فلا ندري أهو له أم لغيره ، أو أن يكون شعرهم تلبية لظروف طارئة ، ومجاراة لأوضاع سياسية من غير أن يكون لهذه الأحداث أثر في عواطفهم وأحاسيسهم .

ولعل الذي دفعني إلى هـــذا الموضوع أن كثيرا مما نظمه شعراء العصر الصليبي في الجهاد كان قد صدر في مواقف بعينها . وعلى هذا فنحن نرى أن شعر المواقف كأي شعر ، فإن انبثق عن عاطفة صادقة جاء شعرا صادقا قويا يقبله الذوق ويرضى به ، ولا ضرر عليه أنه في أحداث أو مواقف بعينها ، فكل الشعر العاطفي الصادق إنما تدعو إليه مناسبة من المناسبات العاطفية من حب وإعجاب وغير ذلك من العواطف التي هي البواعث الحقيقية للشعر ، فالشعر الصادق هو ما كان مرآة لعصره ، وسجلا لبيئتـــه وديوانا لأيامه ، وتعبيرا لأحاسيس قائليه » (١) .

---

(١) التجديد في الأدب المصري الحديث ، د . عبد الوهاب حمودة ص ١٢٠ .

وفوق ذلك فكثير من شعر شعراء العصر الصليبي في المواقف والمناسبات نرى الشاعر فيه يطغى على المناسبة ، ولا يبدو أمام القارىء أثرها ، وإنما يجد حظ العاطفة والوجدان والتجربة الشعرية أكبر بكثير من حظ الموقف والمناسبة والظروف الطارئة ، ذلك لأن الموقف قد هز وجدان الشاعر ، وأثار شاعريته ، فبدا وكأن نفسه تتحرك بإلهام منه لا بإلهام خارجي عنه . ثم إن المناسبة قد أتت آنذاك متوافقة مع الشعراء ودوافعهم النفسية ، وكل ما للمناسبة من دور أنها حركت لحسب التجربة التي بداخل الشاعر ، ولا شك أن المناخ العام في عصر الحروب الصليبية كان مجالا رحبا يتسع لقوة العاطفة وصدقها .

ومن ينظر قول الشاعر أسامة بن منقذ في وصف المعارك التي دارت ضد العدو الصليبي ، أو وصف ابن الساعاتي للجيوش ومعداتها (١) يرى حومة النضال ، كما يرى زحام الأبطال ، ويرى كذلك صليل السيوف ، والتهاب نيران المعركة ، وقسوة اللقاء وما إلى ذلك . . ومثل هذه الأشعار تعطينا صورة صادقة وصحيحة لبطولة المسلمين ، كما تقفنا على مالدى شعرائهم من روعة في الوصف ، وقدرة على تصوير المعارك والحروب .

وليت شعري ماذا يضر شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية لو كان في المناسبات والمواقف ، فلئن كان الشعر رسالة للحياة فما الحياة إلا مجموعة مناسبات ، ولا ضرر على هؤلاء الشعراء أن ينظموا في المواقف والمناسبات حيث إنهم هم الذين صرفوا أنفسهم إلى هذا الشعر وآثروا أن يصوروا العصر

(١) انظر : ثانياً : تصوير المعارك الحربية .

وصراعاته وأحداثه اليومية ، وخرجت أشعارهم جميعا ماثلة بخطوط عريضة كلها تدعو إلى الفداء وبذل النفس فى سبيل مواجهة التحديات ، وهذا المنطلق واحد عند جميع الشعراء ، وهو يختلف قوة وضعفا حسب نفسية كل شاعر ومؤهلاته .

ويقتضينا الإنصاف أن نقول إن هناك أشعارا نحس من قراءتها أن صاحبها إنما نظمها لحسب ليشترك بها مع من نظموا ، والشاعر يلقى بهذه القصيدة جامدة تفتقد الروح ، ومثل هذه الأشعار إن هى إلا تسجيل للأحداث وليست جزءا من نفس قائلها ، كما أنها ليست صورة صادقة له ولا تعبر عن تجربة أصيلة .. وهؤلاء الشعراء وإن عبروا عن صراعات العصر وأحداثه إلا أنهم لم يكونوا حريصين على إظهار شخصياتهم فى القصيدة ، وترى كثيرا منهم وكأن موضوع شعره يعيش بعيدا عنهم وخارجا عن أنفسهم .

وأيا ما كان الأمر فالذى أراه أن الشعر يجب أن يصدر عن نفس الشاعر وينبع من داخله ، وأن يعبر عن تجربته ويرتبط بها ارتباطا تاما وموضوعيا ، وليس عيبا بعد على هذا الشعر أن يكون متعلقا بمناسبة أو موقف أم لا ، وإنما العيب ألا يكون الصدق ملازما لانفعال الشاعر — وعلى هذا فإنى أرى أن شعر المواقف والمناسبات كأى شعر ، فإن انبثق عن عاطفة صادقة جاء شعرا قويا نقبله ونرضى به ولا ضرر عليه أنه فى المواقف أو المناسبات ، لأن المناسبة ليست هى التى تخلق الأفكار والخواطر ولكنها تتيح لها فرصة الظهور والانطلاق لحسب .

خامساً : خصائص عامة :

وهناك خصائص عامة لشعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية ينفرد بها عن غيره ، ويمتاز بها دون سواه فى الشعر السابق عليه واللاحق له فى مختلف البقاع ، ونحن نلخصها فيما يلى :

١) تأثر هذا الشعر إلى حد بعيد بالصراعات السياسية التى شهدها العصر وقد تسلط هذا الصراع على الشعر ، ودفع الشعراء دفعاً إلى أن يقولوا - ولعلنا نقول إن كل الشعراء قد التزموا بهذا المسلك فلم يحيدوا عنه إلا نادراً .

وكان لظروف العصر التى سادت أثر كبير فى إبراز شعر الجهاد ، فحياة هذا العصر تختلف عن ذى قبل ، فالحروب والفتن كانت رافداً يغنى الشعر بالمعانى ، وقد ساعدت كل هذه الآفاق الشعراء الموهوبين فى خدمة هذا الضرب من الشعر .

٢) تتمثل الروح الدينية فى هذا الشعر تمثلا أغنى الشعر بالمعـــانى الإسلامية ، فلا بد أن يكون الشعراء قد تأثروا بمعانى القرآن الكريم ، كما تأثروا بلغته وأسلوبه ، يؤكد ذلك أن كثيراً من أشعارهم كانت تضمينا لبعض آيات القرآن الكريم .

٣) من يتأمل شعر الحروب الصليبية يجد تجديداً فى معانيه وأخيلته ، إذ اختلفت معانى هذا الشعر عن غيره ، فكثرة الصراعات والحروب فى العصر كانت تحمل الشعراء على استنباط المعانى الجديدة فى شعر الجهاد ، وقد كثرت فى الشعر معانى المبالغة فى البأس والفتك ، وهذا شىء متوقع لسبب طبيعى هو أننا أصبحنا بإزاء موقف فى الحيـاة يختلف عما كان عليه الشأن قديما ، وكان

من الطبيعي أن يسير الشعراء في قصائدهم على أضواء هذه الحياة الجديدة أو في ظلالها . وهذا في واقع الأمر ليس تغييراً كلياً ، ولكنه مجاراة للعصر وما حدث فيه من تطورات .

٤) سلامة العبارة ، وخلوه من الغرابة والتعقيد ، واتسامه بالوضوح . والشعراء بهذا يشبهون شعراء الحماسة في العصر الأموي . ويمكننا أن نقول إن شعراء العصر لم يتحرروا تماما من ربقة التقليد ، ولم ينفلتوا من معظم القوانين التي تتصل بالقصيدة الجاهلية ، ولم يكن همهم إبراز براعتهم اللغوية ، بل كان كل همهم أن ينقلوا مايشعرون به ، وأن يوصلوا آراءهم إلى عامة الشعب ، ولهذا خرج شعرهم بعيداً عن الغرابة والعجمة وجاء صريح اللفظ منكشف المعاني .

وقد فرض موضوع الجهاد على الشعراء فرضا فخرجت أشعارهم تتناسب والصراعات والمعارك . ولو أن هؤلاء الشعراء قد بذلوا جهداً أكثر مما بذلوا ولو أنهم نظموا قصائد طويلة في الحرب لأعطونا ملاحم كبرى .

٥) اقترن كثير من شعر الجهاد بشعر الفخر والمدح والهجاء ، وقد صبغت هذه الفنون بصبغة العقيدة والصراعات العقائدية . فاختلفت بذلك عن الألوان التقليدية المألوفة .

٦) طغى في هذا الشعر سلطان التاريخ على سلطان الفن ، بل إننا يمكننا أن نقول إن كل قصيدة من قصائد الشعراء مرتبطة بحادث يمت إلى التاريخ ويتصل به من قريب أو بعيد . وقد تحرر شعراء العصر العباسي من ذلك ، فهم ولئن كان للحوادث التاريخية سلطان عليهم إلا أنهم تحرروا من ربقة التقليد

التاريخى ، وأصبحوا فى طور الاستقلال الفنى يصلهم بالتاريخ فى بواعثه وغاياته .

٧) إنه نتيجة لاحتكاك المسلمين بالصليبيين تسربت بعض الألفاظ الافرنجية إلى لغة الكتابة ، ونحن نجد صدى لمثل هذه الكلمات فى شعر الجهاد كقول الشاعر ابن منير الطرابلسى من قصيدة له يمدح فيها نور الدين ويذكر بعض وقائعه (١) :

فبرنست البرنس لفاع خف ٭ وجرع مر جوسك جوسلين

وكقول ابن القيسرانى فى بعض قصائده (٢) :

كما أهدت الأقدار للقمص أسره ٭ وأسعد قرن من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على غلوائه ٭ فأوبقه الكفران عدواه والكفر

٨) إن هذا الشعر فى معظمه لا تسوده روح اليأس والتشاؤم ، فإذا استثنينا نصوصا قليلة وجدنا كل الأشعار التى قيلت فى الحروب الصليبية يغمرها التفاؤل والأمل ، والإيمان بالنصر مهما اشتدت الأمور واستحكمت حلقات المصاعب .

---

١) الروضتين ١ / ٨٢ نشر دار الجيل بيروت .

٢) المرجع السابق ١ / ٧٣ .

الفصـــــل الرابع

أثر الحــــروب الصليبية على الشعر

أولا : أثر الحروب الصليبية على الموضوعات الشعرية .

ثانياً : أثر الحروب الصليبية فى أساليب الشعر .

تركت الحروب الصليبية التي جرت في البلاد الإسلامية والتي دامت زهاء قرنين من الزمان آثارا بارزة على الشعر أدت إلى تغيير مجريات أحداث تلك الحروب ، وأثرت على حياة المسلمين وواقعهم بصفة عامة وعلى حياة الشعراء بصفة خاصة .

وسوف نستعرض هنا أثر الحروب الصليبية على موضوعات الشعر وأساليبه ، وأبرز هذه الآثار ما يأتي :

أولا : أثر الحروب الصليبية على الموضوعات الشعرية :

١) تشابه الشعر في أرجاء العالم الإسلامي :

مما لاشك فيه أن أدب الحروب الصليبية يمثل محاولة للربط بين البيئات الثقافية في العالم العربي في هذا العصر ، بل إننا يمكن أن نقول إنها أول محاولة فعلية تجمع في صعيد واحد أحوال الثقافة في المشرق والمغرب ، كما كان العلماء والأدباء أنفسهم يربطون بينهما في جولاتهم الطويلة .

والحقيقة أنه قد انصب الاهتمام على مصر والشام وبيئاتهما الثقافية وعلمائهما وأدبائهما وعلى وجه الخصوص الشعراء ، إذ المعروف أن الزعامة الأدبية في عصر الحروب الصليبية كانت لمصر والشام ، ففيهما غزر الإنتاج الأدبي ، ونشأ أعظم الأدباء في ذلك العصر .

ومن تأثير الحروب الصليبية على الشعر أنها تركت آثارا ظاهرة في الشعر في كل من مصر والشام ، وهذه الآثار يمكن تبينها واضحة فيما أنتجه شعراء العصر ، بيد أننا ينبغي أن نقول إن هذه الآثار قامت في الغالب الأعم على أساس من الأدب العربي الموروث ، لدرجة تجعلك لا تستطيع أن تميز بين

شعر قيل في مصر وآخر قيل في الشام .

يقول الدكتور أحمد أحمد بدوى في كتابه « الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » (١) : « ولما كان ينبوع الشعر في هذا العصر واحدا هو الشعر العربي القديم ، تشابه الشعر في ذلك العصر في أرجاء العالم الإسلامي ، وصار الخلاف بين الشعراء خلافا في الأسلوب قوة وضعفاً أكثر منه خلافا في الروح والمنهاج ، ولذا تشابه الشعر الشامي والمصرى والعراق في ذلك العصر ، ولا نكاد نجد فرقا في سمات الشعر بين هذه الأقطار إلا في بعض الخصائص المحلية التي يختص بها قطر دون آخر ، من صفات طبيعية ، أو مظاهر حضارة ، أو حوادث سياسية ، أما الاتجاه العام للشعر فواحد ، ولهذا قل أن ترى في الشعر الذى قيل في مصر يومئذ ماتستطيع أن تتبين فيه ملامح مصرية خالصة إلا حيث يقرب الشعر من اللغة العامية ، فيصبح لغة عامية معربة ، كما في شعر البهاء زهير » .

وعلى الرغم من أن أسس هذه المظاهر كانت متأصلة في الأدب العربي فإن علينا أن نقول إن الحروب التي دبت بين المسلمين والصليبيين كانت تمتاز في أول ماتمتاز به بمظهرها الديني ، ذلك المظهر الذى طبعها بطابع خاص وجعل النزاع فيها صراعا بين دينين لا بين حزبين أو فريقين يتنازعان .

والحقيقة أن العرب في ظلال الإسلام قد عرفوا حرب الروم ، بل إن غزو كل واحد منهما لصاحبه لم ينقطع في عصر من العصور ، وعرفت من ثم معركة عمورية وما إليها . . ومع ذلك فإننا نقول إن حال الإسلام في عصر

---

(١) ص ١٢١ .

الحروب الصليبية يختلف كثيراً عن ذى قبل ، فالإسلام فى عصوره الأولى كان قويا ، يقدر على الصمود والتصدى من جانب ، ويقدر على دفع العدوان والفتوحات من جانب آخر . وفضلا عن ذلك فإن الأعــداد التى كانت فى الجيوش المهاجمة للمسلمين فى العصور الأولى كانت محــدودة ، أما فى عصر الحروب الصليبية فإن أعداد الجيوش المستخدمة كانت ضخمة للغاية ، وقد استخدمت تلك الجيوش القوة والعنف ، كما فعلت أقصى ما يمكن من التخريب والتدمير ، لدرجة تجعلنا نقول إن الإسلام فى عهوده الأولى لم يعرف مجازر جماعية كتلك التى حدثت فى القدس وأنطاكية ومعرة النعــمان ، وقد وصل تسلط الصليبيين درجة جعلتهم يجلون المسلمين عن أراضيهم .

وقد ساعد الصليبيين على ذلك أن المسلمين إبان هــذه الحروب كانوا شيعاً وأحزابا ، وكانت بلادهم مجزأة ومقسمة ، بخلاف الحال فى العصور الأولى للإسلام ، ولعل هذا هو السبب الذى مكن جيوش الغزاة الصليبيين من تحطيم قوى المسلمين واحدة واحدة ، وأخــذوا يطمعون فى الاستيلاء على كل الرقع الإسلامية ، إلى أن أخذت جيوش المسلمين تتجمع وتقوى ويشتد ساعدها ، حتى تمكنت فى النهاية من استرداد بلاد المسلمين شبرا شبرا .

٢) ظهور شعر الحث والتحريض :

لا شك أن الشعراء فى عصر الحــروب الصليبية كانوا ينظمون الشعر فى أحلك الظروف وأقساها ، وليس من شك أيضا فى أن الحروب الصليبية كانت سببا فى ظهور موضوعات شعرية متعددة ترجع إلى أصل واحــد هو

الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين . ومن هذه الموضوعات شعر القتال والحض عليـــه ، ووصف الجيوش ، وآلات الحرب ، والحصون ، وإبراز فضائل الشجاعة والنخوة والبطولة والتفانى ، وقد اشترك فى هذه الموضوعات الشعراء جميعا ، وظلت الحروب الصليبية نبعاً لاينضب لموضوعات الجهـــاد وآلاته فى شعر العصر بل فى أدبه .

والحقيقة أنه كما كان للحروب الصليبية أثرهـا فى ظهور شعر الحث والتحريض كان لهذا الشعر أثره أيضا فى تنبيه الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة ، وفى تمجيد الشعراء للأبطال ، وإبرازهم لصفات الشجاعة والإقدام من بين صفاتهم ، لدرجة تجعلنـا نقول إن الحديث عن الشجاعـة والتفنن فى وصفها صار عنصرا أساسيا من عناصر المدح ، بل إن المدح بها لم يقتصر على من خاضوا غمار الحروب الصليبية وحدهم ، الأمر الذى يؤكد ماتبوأته هـذه الصفة من بين باقى الصفات الإنسانية من مكانة وتقدير فى ذلك العصر .

وأهم مايمتاز به شعر الحروب الصليبية إنما هو الحث والتحريض على قتـال الفرنج وجهادهم ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل شعر هذه الحروب يمتـاز بالحماسة المتدفقة فى أرجائه ، وبالعاطفة القوية التى تبعث فيه الحياة والقوة .

ولم لايحث الشعراء على الجهاد ، ولم لايمجدون أبطال هذه الحروب ، وهذا العدو الغازى يأخـذ يغتصب البلاد قطعة تلو الأخـــرى ، ويصيب السكان بالتشريد والذبح والتقتيل ، وقد وصل أمر إفساد العدو درجة جعلت الحكام يتجهون إلى الشعراء ويوجهونهم إلى نظم شعر الحث والتحريض ، يحثون فيه المتخاذلين ويحرضونهم على القتال ، بل ويستنهضون كل من يستطيع أن يمد

يد المساعدة !

هذا وقد أجمع نقاد الأدب على أنه كان لهذا الشعر أثره فى مجريات الأمور فى البلاد الإسلامية ، بل إنه قد أحدث فى نفوس المستمعين المدى الذى يبتغيه الأدب من إثارة النفوس ، وخروجها مسرعة تؤدى الدور المطلوب منها وتندفع لتساهم فى الجهاد الذى يعد ميدانا للشرف والفخار .

والحقيقة أن هناك أوقاتا عصيبة أوحت بإيجاد مجموعات وفيرة من شعر التحريض والحث على الجهاد ، ومن هذه الأوقات مارواه صاحب النجوم الزاهرة (١) من أن الفرنج حين استولوا على بيت المقدس أخذوا يظهرون ألوان الوحشية وصنوف القسوة والجبروت ، الأمر الذى جعل القاضى الهروى ينشأ قصيدة مؤثرة ، منها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم • فلم يبق منا عرضة للمراجم

ومنها :

وكيف تنام العين ملء جفونها • على هفوات أيقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم • ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

ومن هذه الأوقات ذلك الوقت الذى جالت فيه الأمانى فى نفس الصالح طلائع بن رزيك ، حين رأى الحرب التى وقعت بين نور الدين محمود وبين قلج أوسلان صاحب الروم ، وتمنى أن تتجه جهودهما إلى الفرنج كعدو مشترك لهما جميعا .

وقد نظم الصالح طلائع شعرا يحثهما فيه على الوحدة وترك الخصام ويعبر

---

١) الجزء الخامس ص ١٥٠ ، ١٥١ .

فى الوقت نفسه عن أمنيته الغالية فى اتحاد الصفوف ، والاتجاه إلى أسمى الأهداف وأشرف الغايات وهو قتال الفرنج .

يقول طلائع (١) :

نقول ، ولكن أين من يتفهم * ويعلم وجه الرأى ، والرأى مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها * يوفق للأمر الذى هو أحزم
وما أحد فى الملك يبقى مخلدا * وما أحد مما قضى الله يسلم :
أمن بعد ماذاق العدا طعم حربكم
بفيئهم وكانت وهى صاب وعلقم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم
وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقى الله وحده
أما فى رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه
إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة
بأمثالها تحوى البلاد وتقسم

ولعمارة اليمنى أشعار كثيرة كانت فى صميمها أثرا من آثار الحروب الصليبية فهو يتأثر بها وبمجريات أحداثها فيأخذ بمجد الأبطال . وهذا واحد منهم وهو الوزير المصرى طلائع بن رزيك ، الذى كانت كل أمانيه فى الحياة أن

---

١) الكامل لابن الأثير ١١ / ١٤٢ .

يوقف كل جهوده على حرب الفرنج الغزاة .

يقول عمارة يثني على جهود طلائع ويتباهى بانتصاراته (١) :

تيقنت الإفرنج أنك إن تـرد
ديارهم لم ينجهم منك مهـرب

وعاقك إن لم تعطها الأمن منعها
فجاءتك ياليث الشـرى تتغلب

وأهدوا رجال السلم آلة حربهم
ومن بعض ما أهدوا مجن ومقضب

وذلك فأل صادق أن عزمهم
بسيفك ياسيف الهدى سوف يسلب

لك الرأى لم تفلل ظباه ، ولم يفل
إذا ظلت الآراء تطفو وترسب

وما شئت فاصنع راشدا فى سؤالهم
فرأيك من رأى البرية أصوب

وحين آل أمر الحروب الصليبية إلى القائد صلاح الدين الأيوبى وجد الشعراء فيه كل أمانيهم ، فمضوا يمجدونه ، وأنشأوا فى ذلك القصائد الطويلة . والحق أنه كان فى صلاح الدين من صفات الشجاعة والفروسية ، وكانت له فى نفوس الأعداء مهابة تبعث فى صدورهم الخوف والفزع ، ولعل هذا هو

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، الدكتور / أحمد بدوى ص ١٦٩ .

الدافع القوى الذى جعل الشعراء يباركون خطواته ، ويشجعونه على تحقيق أمانى المسلمين ، تلك الأمانى التى على رأسها إنقاذ بيت المقدس من أيدى الفرنج .

يقول العماد الأصبهانى يحرض صلاح الدين ويستحثه على تحقيق تطلعات المسلمين وأمانيهم (١) :

وما يرتوى الإسلام حتى تغادروا * لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الإفرنج صوت عذابها * بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا * على فتحه غازين وافترعوا البكرا

والحقيقة أنه قد كثرت لدى الشعراء القصائد التى تدور حول هذا الهدف وإن كان الإنصاف يدفعنا إلى أن نقول إن بعض الشعراء قد عجز عن أن يصور بشعره نفوس المستنجدين ، وعواطف الحائثين المحرضين ، ولم يوفق فى أن ينقل الينا ما كان يجول فى نفوس الأبطال والقواد وما كانوا ينشدونه .

وانظر ان شئت الى أبيات القاضى الهروى السالفة الذكر فإنك ستجده يعجز فى البيت الأول عن أن يصيب المعنى ، إذ المعروف أن الدلالة على الجهاد وعلى بذل الغالى والنفيس فى سبيل طرد الغزاة المعتدين إنما هو حمل السلاح وبذل المجهود ، أما مزج الدماء بالدموع المتحدرة فلا دلالة فيه إطلاقا على الجهاد ، ومن ثم فهم عرضة للذم والتهكم ، والاتهام بالتقصير ، وهذا هو حال القاضى فى كل أبياته التى قالها .

---

١) الروضتين ١ / ١٧٩ مطبعة وادى النيل .

٣) ظهور الطابع الإسلامى فى الشعر :

مما لاشك فيه أن حركة البعث العلمى والأدبى فى عصر الحروب الصليبية كانت تعتمد أول ما تعتمد على التراث الإسلامى الزاخر فى العصور السابقة وكانت الثقافة الإسلامية هى الغالبة فى هذا العصر ، وأهم عناصرها القرآن الكريم والحديث الشريف ، والفقه ، واللغة ، والشعر القديم والتاريخ . وكان الدافع إليها والمحرك القوى لها فى أول الأمر إنما هو الحماس الدينى الذى كان لدى الحكام ولدى أتباعهم فى الأماكن المختلفة ، بل إن عامة الناس كانوا مولعين بالدعوة للدين ، وذلك على أثر تلك الحروب الدينية التى قام بها الصليبيون .

وفى هذا العصر الذى سادته الحروب باسم الدين ظهر الطابع الدينى فى الشعر واضحاً جلياً . يقول الدكتور أحمد أحمد بدوى :

« ومما هو جدير بالذكر هنا أن فكرة الوطنية والقومية لم يظهر لها أثر ما فى شعر هذا العصر ، فلم يكن ملوك هذا العصر وسلاطينه يحاربون الفرنج على فكرة أن هناك وطناً لهم مغتصباً ، فمعظمهم لا ينحدر من أصلاب أهل البلاد ، وانما كانت الفكرة السائدة يومئذ هى الفكرة الدينية ، وهى الفكرة التى سادت نفوس الشعراء فى ذلك العهد ، فلم يكن الخوف من سقوط دمياط مثلا فى يد الفرنج أن جزءا من أرض الوطن المصرى أو العربى سيقع فى يد العدو ، ولكن لأن المصحف سيحل محله الانجيل ، والأذان سينسى ويأتى بدله الناقوس . واذا كنا قد رأينا بعض شعراء ذلك العصر يشتاقون الى دمشق أو إلى القاهرة فلم يكن ذلك منبعثاً عن شعور وطنى أو فكرة قومية

ولكن عن عاطفة شخصية مبعثها ماوجده الشاعر من سعادة هنا أو هناك ، (١)

وقد نظم شعراء العصر قصائد يناقشون فيها أمر الدين المسيحى ، ويردون على من أنكر الدين الإسلامى وتنكر لرسالة الرسول محمد ﷺ ، ويناقشون كل من حارب العقيدة الاسلامية الصافية . ومن ثم كثر الشعر الذى يبين مزايا الدين الاسلامى ، وكثر كذلك شعر مدح الرسول ﷺ ، والانتصار له وتمجيده ، وتمجيد الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء الصحابة .

ومن المرجح أن العصر كان له أثره فى ظهور هذا اللون من الشعر ، فلقد كان عصر صدام بين عقيدتين هما الاسلام والمسيحية ، فلا عجب حينئذ إذا مارأينا شعراء المسلمين ينهضون بتوضيح العقيدة الاسلامية وبيان مزاياها ، وتمجيد صاحب الرسالة والاشادة بفضائله وأمجاده .

فهذا شاعر يدعو إلى الرجوع للحديث الشريف ، والأخذ بأسبابه فى العلم لأنه هو الهادى إلى سواء السبيل أما ماعداه فإنه يؤدى إلى الالحاد والضلال :

اشتغل بالحديث إن كنت ذا فهم ففيه المراد والايثار

وهو للعلم معلم وبه بين ذوى الدين تحسن الآثار

إنما الرأى والقياس ظلام * والأحاديث للورى أنوار

كن بما قد علمته عاملا فالعلم روض منهن تجنى الثمار

وإذا كنت عاملا وعليما * بالأحاديث لن تمسك نار

وهناك عشرات من الشعراء أخذوا يقرضون الشعر فى مناقشة عقيدة الفرنج ، وفى بيان مزايا الدين الاسلامى ، وفى مدح الرسول ﷺ ، والتحدث

---

١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ١١٨ .

عن صفاته وفضائله وأخلاقه . بل إن بعض الشعراء قد ألف ديوانا شعريا خاصا فى مدح الرسول ﷺ ، والبعض الآخر الذين امتد بهم العمر إلى مابعد العصر الصليبى وكتبوا قصائد فى الدين الاسلامى ، يمكن أن نقول إن للحروب الصليبية أثرها الكبير فى هذا التوجيه .

يقول الدكتور / محمد زغلول سلام وهو بصدد تحدثه عن الشعر وأحداث الحروب الصليبية : « ولم يكن المديح مقصورا على الأشخاص المعاصرين ، بل إن الشعراء تعرضوا فى مدائحهم لشخصية الرسول ﷺ ، وتوسلوا به إلى الله سبحانه وتعالى لكشف الغمة عن أمته . ويجدر بالملاحظة حقا أن المدائح النبوية فى القرن السابع الهجرى كانت قد بدأت تأخذ طريقها إلى الشعر العربى بشكل واضح ، وتصبح فنا مستقلا بذاته . وحتى أصبح لايخلو ديوان أى شاعر من شعراء هذا القرن والقرون التالية من قصائد ذوات عدد فى مدح النبى ، بل إن بعضهم قد أفرد دواوين بتمامها لهذا الفن » (١) .

وللشاعر الإسلامى « البوصيرى » (٢) قصائد متعددة كان للحروب الصليبية فيها أثر أيما أثر ، وقد عنى فيها بالرد على النصارى ، كما عنى بتوضيح عقيدة

---

١) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٣٦ .

٢) شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد ، شاعر مصرى ، ولد فى عام ٦٠٨ هـ . يدل شعره على تعمقه فى دراسة أصول الدين ، وهو أحد قادة التصوف فى عصره ، وقد ظهر الطابع الدينى واضحا جليا فى شعره ، وله فى مدح الرسول ﷺ قصائد نالت شهرة واسعة فى العالم الإسلامى ، ومن المرجح أن العصر كان له أثره فى مدح الرسول الكريم ، إذ كان عصر مواجهة =

الإسلام ، وبيان مزايا هذه العقيدة (١) .

وله قصائد أخرى عنى فيها بمدح الرسول ﷺ ، ومن هذه القصائد قصيدته « ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد » تلك التى عارض فيها قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، ومطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول * وأنت عن كل ماقدمت مسئول

والواقع أنه كان لقصيدة البوصيرى هذه أثر فى عصر الحروب الصليبية ، كما كان لها أثر أيضا بعد هذا العصر ، وقد أعجب بها عدد كبير من الشعراء وحاول أن يقلدها الكثيرون منهم .

وفى القصيدة يوازن البوصيرى بين كتاب المسلمين ورسولهم وبين غيره من الكتب والرسل فيقول :

والفوز فى أمة فضل الوضوء بها * قد زانها غرر منه وتحجيل
تظل تتلو كتاب الله ليس به * كسائر الكتب تحريف وتبديل

= بين العقيدة الاسلامية والدين المسيحى .

وقد عمل البوصيرى فى إحدى الوظائف الحكومية فى مدينة بلبيس بمحافظة الشرقية فى مصر ، وقد هيأته تلك الوظيفة إلى الاتصال بطوائف كثيرة من الموظفين . كما اتصل من قبل بالأمير فخر الدين أحمد كبار الأمراء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كذلك اتصل ببعض وزراء الدولة ، وقد اختلف المؤرخون فى وفاته بين سنة ٦٩٤ هـ وسنة ٦٩٦ هـ .

(١) انظر ديوان البوصيرى .

فالكتب والرسل من عند الإله أتت
ومنهم فاضل حقاً ، ومفضول
والمصطفى خير خلق الله كلهم
له على الرسل ترجيح وتفضيل

كما يتحدث عما اختص به رسول الله ﷺ من الفضل ، وما أوتيه من المعجزات ويشفع ذلك كله ببيان أثر المصر ، وما ذكره النصارى حين أنكروا رسالة النبي محمد ﷺ فيقول :

قل للنصارى الألى ساءت مقالتهم • فما لها غير محض الجهل تعليل :
من اليهود استفدتم ذا الجحود كما * من الغراب استفاد الدفن قابيل
فإن يكن عندكم توراتهم صدقت * ولم تصدق لكم منهم أناجيل
ظلمتمونا فأضحوا ظالمين لكم * وذاك مثل قصاص فيه تعديل
أما عرفتم نبي الله معرفة الأ بناء ؟ ! لكنكم قوم مثاكيل
هذا الذي كنتم تستفتحون به * لو اهتدى منكم للرشد ضليل
فلا ترجوا جزيل الأجر من عمل * إن الرجاء من الكفار مخذول
تبادئون بزى من جهالتكم * به انتفاخ ، وجسم فيه تهويل
موتوا بغيظ ، كما قد مات قبلكم * قابيل ، إذ قرب القربان هابيل

والجدير بالذكر أن هذه القصيدة طويلة جداً (١) وقد عدد فيها البوصيري غزوات الرسول ﷺ ، وذكر ماظهر في هذه الغزوات من آيات تدل دلالة

---

(١) انظرها في ديوان البوصيري ص ٢٢٧ وما قبلها . تحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٧٣ م .

واضحة على صدق رسالة الرسول ، كما أشاد فيها بالمسلمين ، وانتقل من ذلك كله إلى مدح الرسول ﷺ .

كما أن للبوصيرى قصيدة أخرى ، وهى الهمزية التى بلغت أبياتها أربعمائة وستين بيتاً ، ومطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء * ياسماء ماطاولتها سماء

والحقيقة أن غزارة الشعر الدينى ، واتجاهه إلى توضيح العقيدة الإسلامية ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعد أثراً من آثار العصر ، بل إن المعانى التى وردت فى هذه القصائد إنما هى مستقاة من العصر ، ففيها رد على ما ادعاه النصارى من جهة وعلى ما ادعاه النصارى واليهود من جهة أخرى ، كما أن فيها مناقشة للنصارى فى معتقداتهم .

فتارة يقول شاعر الإسلام البوصيرى :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وتارة أخرى يقول :

ياحبيبا وشفيعا مطاعا   حسبنا أن إليك الإيابا
لم نقل فيك مقال النصارى   إذ أضلوا فى المسيح الصوابا
إنما أنت نذير مبين   أنزل الله عليك الكتابا

ويرد على النصارى واليهود فى قصيدة أخرى له فيقول :

جاء المسيح من الإله رسولا   فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعوا   من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ماصدقته وأكثرت   بالافك والبهتان فيه القيلا

فكأنما جاء المسيح إليهم ليكذبوا التوراة والإنجيلا
فأعجب لأمته التى قد صيرت تنزيهها بإلهها التشكيلا
هم بجلوه بباطل ، فابتزه أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم زمرا ألم تر عقدها محلولا

وكان يشغله كثيرا تطهير أراضى المسلمين من الغزو الصليبى ، بل إنه كان يعد هذا الأمر غاية جليلة وحلما من أحلامه . فحين قام الأشرف خليل بحملته التى كان الهدف منها انتزاع عكا من أيدى الصليبيين والقضاء على آخر معقل لهم فى بلاد المسلمين ، وقف البوصيرى يقول :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين ضنكا
وساق سلطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت لن يتركوا للفرنج ملكا

والحقيقة أنه قد شارك فى هذا التراث من الشعر الدينى عدد كبير من الشعراء ، منهم الشاعر ابن الساعاتى (٥٥٣ - ٦٠٤ هـ) . وكان للحروب الصليبية أثر بالغ فى كل أشعاره ، وقد تأثر فى قصيدة له بقصيدة « بانت سعاد » لكعب ابن زهير ، فحاول تقليدها ، فمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومجد صفاته وأخلاقه وشمائله . وليس من شك فى أن الدافع الذى دفع ابن الساعاتى لذلك يختلف عن الدافع الذى دفع كعبا بن زهير .

يقول ابن الساعاتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

لولاه لم تك شمس ، لا ، ولاقمر ولا الفرات ، وجاراها ، ولا النيل
ولم يجب آدم فى حال دعوته نعم ، ولم يك قابيل وهابيل

فسيد الرسل حقاً ، لاخفاء به ، وشافع فى الناس مقبول
بشت بنبوته الأخبار إذ نطقت ، فحدثت عنه توراة وإنجيل

وفى القصيدة نفسها يمدح البوصيرى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ويشيد بفضائلهم وشجاعتهم فيقول :

أسد إذا نازلوا شهب إذا سفروا ـ لد إذا جادلوا سحب إذا سيلوا
فلا مفاريح إن نالت رماحهم ولا مجازيع فى البأساء إن نيلوا
العالمون بأن النفس هالكة يوما وأن قضاء الله مفعول
فما كواحدهم فى فضله أحد ولا كجيلهم فى فضله جيل
وإننى لأرجى أجر حبهم فى يوم حبهم أجر وتنويل

على أن أشهر قصيدة نظمت فى العصر الصليبى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مدحا ينبعث عن حب إنما هى قصيدة « البردة » التى نظمها البوصيرى والتى مطلعها :

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

وبعد أن يتحدث البوصيرى عن طبيعة النفس ويحذرها من الهوى نراه ينتقل انتقالا طبيعياً لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وللحديث عن إعجابه الذى لا حد له بالنبى . والذى لاشك فيه أن هذا المدح وذلك التقدير السامى للرسول الكريم إنما هو وثيق الصلة بالعصر ، فقد استوحى الشاعر فيه روح العصر فحرص على وضع الرسول صلى الله عليه وسلم فوق طبقة الرسل أجمعين وجعلهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ يستمدون فضائلهم منه

ويأخذون عنه العلم والمعرفة .

يقول البوصيرى :

محمد سيد الكونين ، والثقلين ، والفريقين من عرب ، ومن عجم

فاق النبيين فى خلق وفى خلق ولم يدانوه فى علم وفى كرم

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارىء النسم

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ماشئت من شرف

وانسب إلى قدره ماشئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له حد ، فيعرب عنه ناطق بفم

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا ، فلم نرتب ولم نهم

أعيا الورى فهم معناه، فليس يرى

فى القرب والبعد منه غير منفحم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وكل آى أتى الرسول الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

وللبوصيرى قصيدة همزية طال فيها نفسه حتى بلغ عدد أبياتها أربعمائة وستة وخمسين بيتا ، وهى قصيدة تمتاز بقوة الأسلوب ، ومتانة العبارة ويبدو أثر العصر واضحا فيها فى هذا النقاش الطويل الذى ناقش فيه عقيدة المسيحيين .

يقول :

قوم موسى عاملتم قوم عيسى بالذى عاملتكم الحنفاء

صدقوا كتبكم ، وكذبتم كتبهم إن ذا لبئس البـــــــواء

لوجحدنا جحودكم لاستوينا أو للحق بالضلال استواء

ما لكم إخوة الكتاب إناسا ليس يرعى للحق منكم إخاء

يحسد الأول الأخـــير ، وما زال كـذا المحدثون والقدماء

بغيته توراتهم ، والأناجيـــــــل وهم فى جحوده شركاء

إن تقولوا : مابينتــه ، فما زالت بها عن عيونهم غشواء

أو تقولوا : قد بينته ، فما للأذن عما تقوله صماء

كيف يهـــدى الإله منهم قلوبا حشوها من حبيبه البغضاء

خبرونا أهل الكتابين ، من أيـن أتاكم تثليثكم والبداء

ما أتى بالعقيـدتين كتاب واعتقاد لانص فيه ادعاء

والدعاوى مالم تقيموا عليهــا بينات أبنـاؤها أدعياء

٤) ظهور فنى رثاء المدن وهجاء المتخاذلين :

وكذلك تركت الحروب الصليبية التى جرت فى البلاد الإسلامية أثرا فى اتجاه الشعراء إلى موضوعات لها علاقة بوجود الصليبيين كان منها : رثاء المدن وهجاء المتخاذلين .

فحين سقطت معرة النعمان فى أيدى الصليبيين فى بداية غزوهم لبلاد الشام رثاها وجيه بن عبد الله التنوخى بأبيات حزينة باكية يتأسف فيها على الاستيلاء عليها وعلى من مات من أهلها . يقول ( )

---

١) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، لابن الجوزى ج ٨ قسم ١ ص ٣٤

هـذه بلدة قضى الله ياصا ... ح عليها كما ترى بالخراب

فقف العيس وقفة وابك من كا ... ن بها من شيوخها والشباب

واعتبر إن دخلت يوما إليها ... فهى كانت منازل الأحباب

وقد عز سقوط الدولة الفاطمية على بعض الشعراء الذين كانت لهم بهذه الدولة صلة وثيقة ، وقد رثاها الشاعر عمارة اليمنى بشعر يفيض بالحب والحنين . ومن ذلك قصيدته اللامية التى بدأها بلوم الدهر على إساءته لهذه الدولة وتحطيمها ، وقد كانت فى جيد المجد حليا ، وله زينة وجمالا . يقول (١) :

رميت يادهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد على الحسن بالعطل

سعيت فى منهج الرأى العثور فإن ... قدرت من عثرات البغى ماستقل

جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا ... ينفك ما بين نقص الشين والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... سقيت ، مهلا أما تمشى على مهل

ثم يتحدث عن مصابه الشخصى فى هـذه الدولة ، وما كان قد تحقق له من سعادة على أيدى رجالها فيقول :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبـــة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل

قوم عرفت بهم كسب الألوف ، ومن ... كما لها أنها جاءت ولم أســـل

ويذرف الدمع على آثارهم فيقول :

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل

١) الروضتين ١ / ٢٢٣ مطبعة وادى النيل .

قبلت عنها بوجهي خوف منتقد ... من الأعادي ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسفي دمعي غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكي على ماتراءت من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهي لم تحل

ويختم الشاعر القصيدة متمنياً أن تعود الدولة ، فتعود من ثم معها آماله وأمانيه ، فيقول :

وربما عادت الدنيا لمعقلها * منكم ، وأضحت بكم محلولة العقل

وحين استولى الصليبيون على بعض بلاد الشام ، وتأخر أمراء المسلمين في نصرة إخوانهم ، والنهوض إليهم ، وإنقاذهم مما وقعوا فيه ، نجد أبا المظفر الأبيوردي ينظم قصيدة في هجائهم ، يقول فيها (١) .

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

دعوناكم والحرب ترنو ملحة * إلينا بألحاظ النسور القشاعم

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

* * * *

ومهما يكن من شيء فإن الحروب الصليبية قد تركت آثاراً واضحة في موضوعات الشعر للشعر القارئ لها أن أحداثاً خطيرة تجرى على مسرح الحياة ، ولعل ذلك راجع إلى ماظهر من جانب الصليبيين من تعصب بغيض لديننا الإسلامي .

---

١) الكامل ١٠ / ٢٨٤ نشر دار صادر بيروت .

يقول الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى تحت عنوان « صدى حملات الصليبيين وغارات التتار فى الشعر العربى : « ولعله من المناسب هنا أن نذكر بعض الفروق بين العجم من جهة والصليبيين والتتار من جهة أخرى فنقول : لئن كانوا جميعاً قد زحفوا على البلاد العربية فى الشام والعراق ومصر ، فإن هناك فرقا كبيرا بينهم ، فإن الأولين كانوا يشتركون مع العرب فى الدين ، وكانوا يتظاهرون بالولاء للخلافة والدفاع عنها ، أما الأخيرون فلم يكن يجمعهم والعرب دين ، بل على العكس من ذلك كانت العصبية الدينية البغيضة أهم أسباب الحروب الصليبية ، أما التتار فسيل جارف وعاصفة مدمرة »(١).



---

١) تاريخ الشعر العربى ٣ / ١٤٩ . دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .

ثانياً : أثر الحروب الصليبية فى أساليب الشعر :

وكما تركت الحروب الصليبية آثارا فى الموضوعات الشعرية تركت أيضا آثارا على لغة الشعر ، فمع أن شعراء هذا العصر قد اقتدوا بأسلافهم فى مناهج الشعر ونظام القصيدة ، فحافظوا على ماورثوه من أوزان الشعر والمحافظة على القافية ، فإننا نجد الحروب الصليبية تجر على الشعر آثارا بعيدة نتبينها فيمايلى :

١) الألفاظ :

والحقيقة أن الشعر فى عصر الحروب الصليبية قد حافظ على الألفـــاظ العربية الخالصة ، ومن الممكن إرجاع ذلك إلى أن اللغة العربية هى لغة الدين الإسلامى ، والحال أن التعصب فى هـذا العصر كان للدين ، أما ماعدا ذلك من باقى ألوان الفخر والاعتزاز فلم يكن لها أى دخل فى التمجيد .

ومع هـذا فيمكننا أن نقول إن هناك بعض الـكلمات قد تسربت إلى لغة الـكتابة فى هذا العصر ، وقد وجدنا لهذه الـكلمات صدى فى الشعر أيضا ، هذه الكلمات دخيلة من اللغات التى خالطت اللغة العربية فى ذلك الحين ، من فارسية وتركية ، ويونانية ، وفرنجية . وليس من شك فى أن الشعراء قد اختلطـوا - حالهم فى ذلك حال أصحاب الـكتابة - بالنصـارى من الفرنج ، وقد تأثرت لغتهم نتيجـة لذلك ببعض الألفـاظ الدخيلة ، ووردت هذه الألفاظ فى شعر الجهـــاد .

ومن ذلك قول ابن منير الطرابلسى فى قصيدة له يمدح نور الدين محمود ويذكر بعض جهاده (١) :

١) الروضتين ١ / ٨٢ نشر دار الجيل ، بيروت .

فبرنست البرنس لفاح خف * وجرع مرجوسك جوسلين

ومن تأثير الحروب الصليبية على لغـــة الشعر أيضا ماورد فى شعر ابن القيسرانى ، إذ استعمل كلمة « القومص » وهى كلمة لاتينية فى بعض أبيات له يقول فيها (١) :

كما أهدت الأقدار للقمص أسره * وأسعد قرن من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على غلوائه * فأوبقه الكفران عدوانه والكفر

وكما تسببت حروب العصر فى إدخال بعض الكلمات الأعجمية على لغة الشعر فقد جعلت شعراء المسلمين يستخدمون بعض الألفاظ مثل : الكفر ، والشرك والصليب فى صورهم الشعرية . من ذلك قول العماد الأصفهانى الذى شبه فيه الكفر بالإنسان يعض يديه بحسرة ومرارة من شدة الندم حين يرى الإسلام ينتصر . يقول (٢) :

واهتز عطف الإسلام من جذل * وافتر ثغـــر الإيمان وابتسما

واستبشرت أوجه الهدا فرحا * فليقرع الكفر سنه ندما

وهذا هو مجد الدين بن الظهير الأربلى يشبه الشرك بالليل الأسود ، فيقول مادحا ذرية صلاح الدين (٣) :

وردوا إلى البيت المقدس نوره * وقد كان فى ليل من الشرك أسود

وفى المقابل من ذلك وجدنا شعر الجهاد قد اكتسب عاطفة دينية تجلت فى

---

١) الروضتين ١ / ٧٣ ، نشر دار الجيل ، بيروت .

٢) المرجع نفسه ١ / ١٩٥ .

٣) المرجع نفسه ١ / ١٩٦ .

إيراد كثير من ألفاظ الدين والإسلام ومكة والمدينة ونحوها .

يقول ابن منير يمدح نور الدين (١) :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ❊ وعلا الهدى وتبجلت قسماته

وانتاش دين محمد محموده ❊ من بعد ماغلبت دما عبراته

ردت على الإسلام عصر شبابه ❊ وثباته من دونه وثباته

فتح تعممت السماء بفخره ❊ وهفت على أغصانها عذباته

سبغت على الإسلام بيض حجوله ❊ واختال فى أوضاحها جبهاته

٢) الاتجاهات الفنية :

والحقيقة أن لشعر العصر الصليبى ملامحه الأسلوبية التى تكون الصورة والشكل الفنى أو الاطار الذى ظهرت فيه تلك الموضوعات .

وقد تنوعت المذاهب الفنيـة فى شعر العصر ، وأصـاب الشعر تغير مس جوانبه الفنية واللغوية على السواء ، وقد أشار الباحثون فى أدب العصر إلى ثقل وطأة البديع على الأدب شعره ونثره ، وكان أدباء العصر يرون فى صنعة البديع حسنا ، وفى رقة الأساليب وسهولتها جمالا يصادف هوى فى نفوسهم ويقع منها أحسن الوقع .

وقد تعددت مذاهب الشعراء ، فنهم من مال إلى طريقة العصر فى الاكثار من البديع ، والميل إلى السهولة فى أسلوب الشعر واستخدام الألفـاظ الجارية العامية أو القريبة منها . ومن هؤلاء . صفى الدين الحلى ، والبهاء زهير ، وابن

---

١) الروضتين ١ / ٦٠ نشر دار الجيل ، بيروت .

سناء الملك ، والحسين الجزار ، وشهاب الدين محمود ، وابن نباتة المصرى .

ويجدر بنا أن نقول إنه كان لطريقة هؤلاء الشعراء أثرها السيء على الشعر العربي فى ذلك العصر ، الأمر الذى أدى إلى ضعف الشعر وركوده ، ليس هذا فحسب بل إن هذا قد أثر بدوره على الشعر الفصيح فأصابه بنكسة طويلة استمرت مايقرب من خمسة قرون بطولها ، كان الازدهار فى هذه الفترة للشعر الشعبي على حساب الشعر الفصيح .

ومن الشعراء من أخذ بأسباب الفصاحة وقوة التعبير ، وأخذ ينهج نهج الأقدمين ، ويتتبع طريقتهم فى الشعر . ومن هؤلاء : أبو المظفر الأبيوردى وابن التعاويذى ، وابن المقرب الأحسائى (١) ، وابن منير الطرابلسى ، والطغرائى ، وعمارة اليمنى .

وهناك جماعة أخرى كانت تميل إلى الجمع بين الطريقتين ، ومنهم : ابن النبيه وابن الفارض ، والبوصيرى ، وابن النقيب .

أما عن مذاهب الشعراء واتجاهاتهم فكانت كالآتى :

---

١) ابن مقرب الأحسائى شاعر بدوى وطنا وروحا ، وهو صاحب نفس متطلعة طموحة دائما ، وعلى رأس الأمور التى كانت تشغله إعادة السلطة واسترجاعها للعرب ، ولعل هذا هو السبب فى أن شعره يموج بهذا اللون القاتم الساخط الذى يحمل فيه على الدهر ويدعو إلى الجهاد وإلى امتشاق السيوف ، بل إن شئت فقل إن شعره كله دعوة الى الحروب والى حشد الجند ورفع السلاح .

أ) اتجـاه الصنعة والبديع :

وهو اتجـاه يلتزم الشاعر فيه مذهب الصنعة والبديع ، ويعمد إلى ألوان محسنة منها فى شعره ما استطاع (١) ، ويخضع شعره لقواعدها وقوانينها كما فى شعر القاضى الفاضل والعماد الكاتب ، فقد أغرماهما ومن سلك مسلكهما بهذه المحسنات : من جناس ، وطباق ، واقتباس ، وتورية . بل لقد قيل إن الفاضل هو الذى عصر سلامة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره .

والحقيقة أن هؤلاء الشعراء ظلوا يتلاعبون بالتورية والجناس والطباق إلى أن جاءت بعدهم جماعة من الشعراء صاروا فرسان الميدان مثل : السراج الوراق ، وأبو الحسين الجزار ، وناصر الدين حسن بن النقيب ، والقاضى محى الدين بن عبد الظاهر .

ونحن لا نغالى اذا قلنـا ان أفراد مذهب الصنعة والبديع هم الكثرة الغالبة وكان مذهبهم هـو المذهب المفضل المختـــار الذى يتلاءم مع أذواق النـاس وأهوائهم . ونحن لا نغالى أيضاً اذا قلنـا ان هذه الألوان الصناعية قد وسمت الشعر بسمة التكلف الذى أفقده روحه فى كثير من الأحيان ، وجعله أشبه مايكون بتمرينات رياضية كتلك التى تطلب من طلبة المدارس .

ويقتضينا الإنصاف أن نقول ان شعراء اتجاه الصنعة والبديع قد اتخذوا من الحريرى وطريقته فى المقامات نموذجا يحتذى ، وليس يخاف على أحد أن

---

١) انظر الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية ، للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ١٠٨ سلسلة الألف كتاب (٢٤٢) .

الحريرى كان قد أتى فى مقاماته بضروب من عجيب الصنعة اللفظية واللعب بالألفاظ . كما أن الإنصاف يقتضينا أيضا أن نقـول إن كثيرا من الشعراء الذين أعجبوا بالبديع لم يغلب على شعرهم المغالاة والتكلف ، ولم يغرقوا فى البديع ، وإنما تناولوا بعض فنونه بحذر وحيطة ، ووشوا به قصائدهم دون أن يثقلوها به ، ومن هؤلاء الشعراء ابن منير الطرابلسى ، وابن القيسرانى .

ومن المذهب الأول قول البهاء زهير :

بروحى من أسميها بستى * فتنظرنى النحاة بعين مقت
يرون بأننى قد قلت لحنا * وكيف وانى لزهير وقتى
ولكن غادة ملكت فؤادى * فلم ألحن اذا ماقلت ستى

وقول ابن سناء الملك وهو فى الشام يتشوق إلى مصر ، وقد غلبت عليه صنعة البديع :

لقد ضرنى البين المشت وحزنى * فيالك بينما ما أضر وما أضرى
أأهبط من مصر وقدما قد اشتهى
على الله أقوام فقال اهبطوا مصرا
وكم لى بها دينار وجه تركته * ورائى فعينى بعده تشتكى القطرا
فو الله ما أشرى الشآم وملكه * وغوطته الخضرا بشبر من شبرا
فإن عدت والأيام عوج رواجع * لقد أنشأتنا قبلها النشأة الأخرى

ولا يخفى ذلك الجناس الموجود بين « ضرنى » « وحزنى » و « أضر » « وأضرى » فى البيت الأول ، وهو من الضر بمعنى الضرر ، والضراوة بمعنى القساوة ، ونلاحظ أيضا ما فى البيت الثانى من اقتباس من القرآن الكريم ،

كما أن فى البيت الثالث تشبيها بليغا ، حيث شبه الوجه بالدينار ، وأضاف من ثم المشبه به إلى المشبه ، وفى البيت الثالث تورية فى العين والقطر بين عين الماء والعين التى يبصر بها ، وفى البيت الرابع جناس وفى البيت الأخير اقتباس من قول الله تعالى : « وأن عليه النشأة الأخرى » .

ومن أبيات ابن سناء الملك التى مزج بها الجناس قوله من أبيات يمدح فيها القاضى الفاضل (١) :

أصبحت فى مدح الأجل موحدا * ولكم أتتنى من أياديه ثنى
وغدوت فى حبى له متشيعا * من ذا رأى متشيعا متسننا
ورأيت صحبته نعيما عاجلا * فرأيت بذل النفس فيه هينا
وأرادنى وظننت غيرى قصده * فوجدت دهرى مذعنانى مذعنا

ومما قيل من الشعر المجانس الذى جانس بين قوافى أبياته جناسا تاما قول بعض الشعراء :

قف بالحمى ودع الرسائل * وعن الأحبة قف وسائل
واجعل خضوعك والتذلل * فى طلابهم وسائل
والدمع من فرط البكا * عليهم جار وسائل
واسأل مراحمهم فهن * لكل محروم وسائل

ولا يخفى أن كلمة « وسائل » تختلف معانيها فى الأبيات فهى فى البيت الأول بمعنى « اسأل » وفى البيت الثانى بمعنى « طرق » جمع « طريقة » ، وفى البيت الثالث بمعنى « السيولة » ، وفى البيت الرابع بمعنى « الطلب والسؤال » .

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، الدكتور محمد زغلول سلام ص ٣٦٠ .

وكثرت عند شعراء البديع المعاني التي تدور حول الطرائف ، وحفلت بالكنايات والتورية ، والأمثلة كثيرة على هذا ، بل إنه لا يكاد يخلو ديوان من دواوين شعراء البديع من ذلك .

ومن استخدام البهاء زهير للتورية قوله على طريقة المصريين في الصنعة الرقيقة الخفيفة (١) :

لما التحى وتبدلت • تلك السعود له نحوسا
أبديت لما راح يحلـ • ـق خده معنى نفيسا
وأذعت عنه أنه • لم يقصد القصد الخسيسا
لكن غدا وعذاره • خضر فساق إليه موسى

ومن اعتماد البهاء زهير على التضمين ، والتورية ، والاقتباس من الشعر القديم قوله (٢) :

تعلمت خط الرمل لما هجرتكم • لعلي أرى شكلا يدل على الوصل
ورغبني فيه بياض وحمرة • عهدتهما في وجنة سلبت عقلي
وقالوا طريق قلت يارب للرضا • وقالوا اجتماع قلت يارب للشمل
فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر • فلا تنكروا أني أخط على الرمل

ب) الاتجاه التقليدي :

وأما نهج طريقة الأقدمين ، وتتبع طريقتهم في الفصاحة والبلاغة فإننا نقول إن هناك من الشعراء من ينهج نهج الشعر القديم ويحاول الاستعانة به في شعره ، وشعر هؤلاء يحافظ على سلامة العبارة ، وهو في جملته سهل لا يميل إلى

---

١) المصدر السابق ص ٣٦٠   ٢) المصدر نفسه ص ٣٦١ .

غرابة ولا تعقيد ، وقد سار كثير من شعراء هذا العصر على ذلك النهج الذى هو النهج الطبيعى فى شعرهم ، فلم يعمدوا فيه إلى محسنات لفظية أو زينات بديعية إلا ماجاء فى الطريق عارضا غير مقصود .

والحقيقة أن شعراء هذا الاتجاه كانوا يكرهون إغراق شعراء العصر فى البديع ، بل إنهم حملوا عليهم وعلى كل من اتجه إلى البديع وأغرق فيه .

يقول المهذب بن الزبير (١) :

لحقت الماخضين الشعر قبلى • وإن أخلوا من الزبد الوطابا

فقل لمقمقع بشنان لفظ • نفى إثباتك القشر اللبابا

طلى كأس القريض من المعانى • وحسن اللفظ كان لها حبابا

ويقول عمر بن الوردى عن البديعيين (٢) :

إذا أحببت قول الشعر فاختر • لنظمك كل سهل ذى امتناع

ولا تقصد مجانسة وتكن • قوافيه وكانه الى الطباع

وعلى نهج طريقة القدماء جاء قول ابن المقرب الأحسائى :

منال العلى بالمرهفات القواضب • وسمر العوالى والعتاق الشوازب

وضرب يزل السهام عن كل ماجد • على الهول مقدام كريم المناسب

وليس ينال المجد من كان همه • طروق الأغانى واعتناق الحبائب

ولا بلغ العلياء الا ابن حرة • قليل افتكار فى وقوع العواقب

جرىء على الأعداء مر مذاقه • بعيد المدى جم الندى والمواهب

---

١) الأدب فى العصر الأيوبى ، الدكتور / محمد زغلول سلام ص ٢٦٠ .

٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢١ .

حليف سرى جواب أرض تجاوزت

به العيس أجواز القفار السباسب

فالذى لا شك فيه أن هذا الشعر قريب فى روحه ، وفى قوة بنائه ، وفصاحة ألفاظه وبداوتها ، من شعر الشاعر العربى أبى الطيب المتنبي .

ومن أمثلة شعر الاحسائى ، العربى الروح ، البدوى المظهر ، قصيدته التى يقول فيها (١) :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب * لنسأل ذاك الحى ماصنع السرب

وأسلوب الشاعر ابن التعاويذى يغلب عليه الطابع القديم ، وقد كان يقلد الشعراء القدماء المعروفين ، ويحاول أن يحتذى بقصائدهم فى بعض قصائد له عن طريق المعارضة . وقد مدح صلاح الدين الايوبى بقصيدة مطلعها :

سرب مها أم دمى محاريب * أم فتيات الحى الأعاريب

وقد عارض ابن التعاويذى بقصيدته هذه قصيدة شاعر العربية المتنبي والتى مطلعها :

من الجآذر فى زى الأعاريب * حمر الحلى والمطايا والجلابيب

وقد ذكر ابن خلكان عن ابن التعاويذى قوله : وكان شاعر وقته ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفى اعتقادى لم يكن قبله بمائتى سنة من يضاهيه ، ولا يؤاخذنى من يقف على هذا الفضل ، فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، وقد در القائل :

(١) ديوانه ص ١٩ ، طبعة حجرية بالهند ، عن الأدب فى العصر الأيوبى ، الدكتور / سلام ص ٢٥٤ .

« والناس فيما يعشقون مذاهب » (١) .

وهذا شاعر آخر وهو الأبيوردى ، تراه ينهج نهج الشعر العربى القديم فى الصياغة والمعانى جميعها . فهو يبدأ قصائده بالغزل ، غزلا عربيا ينتقل بك فى الصحراء ونجد وما إلى ذلك .

ولنستمع إلى بيته :

ولست كمن يعلى إلى الهون طرفه * ولا يركب الخطى دون ذماره

فقد ساس جساس بن مرة وائلا * بقتل كليب دون لقحة جاره

إن هذا الشعر يذكرنا فى روحه بأبيات المتنبى الكثيرة ، والتى منها على سبيل المثـــال (٢) :

ذل من يغبط الذليل بعيش * رب عيش أخف منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجــــرح بميت إيلام

ضاق ذرعا بأن أضيق به ذر * عا زمانى واستكرمتنى الكرام

واقفا تحت أخمص قدر نفسى * واقفا تحت أخمصى الأنام

أقـــرارا ألذ فوق شرار * ومراما أبغى وظلمى يرام

دون أن يشرق الحجاز ونجد * والعراقان بالقنـــا والشآم

وكانت المعانى عند الأبيوردى وعند غيره من شعراء الاتجاه التقليدى مستمدة من الشعر العربى القديم ، بل ومن الصحراء وحياة الصحراء . ومثال ذلك ماجاء فى شعر الأبيوردى نفسه ، يصور صورة بدوية ، ويأتى بألفاظ

---

١) وفيات الأعيان ٤ / ٩٥ .

٢) ديوان المتنبى « شرح العكبرى » ٤ / ٩٣ - ٩٥ .

بدوية قريبة من ألفاظ الفرزدق وجرير وأقرانهما .

يقول الأبيوردى (١) :

نزلنا بنعمان الأراك وللندى * سقيط به ابتلت علينا المطارف

فبت أعانى الوجد والركب نوم * وقد أخذت منى السرى والتنائف

وأذكر خودا إن دعانى إلى النوى * هواها أجابته الدموع الذوارف

وهناك أشعار كثيرة لابن منير الطرابلسى نلمس فيها روح القديم ، وله قصائد كثيرة قلد فيها شاعر العربية أبا تمام ، وقد أوردها له أبو شامه فى كتابه « الروضتين » ، ويمثل مذهبه هذا قوله (٢) :

سفها لحلمك إن رضيت بمشرب * رنق ورزق الله قد ملأ الملا

ساهمت عيسك مر عيشك قاعدا * أفلا فليت بهن ناحيـة الفلا

فارق ترق كالسيف سل فبان فى * متنيه ما أخفى القراب وأخملا

لاتحسبن ذهاب نفسك ميتـة * ما الموت إلا أن تعيش مذللا

للفقر لا للفقر هبها إنمـا * مغناك ما أغناك أن تتوسلا

ومن الشعراء الذين نلمس فى شعرهم روح القديم المهذب بن الزبير (ت ٥٦١ هـ) ومن يقرأ شعره يجد فيه قوة الألفاظ والرصانة ، وكثرة الصور البدوية ، وتعمد البدء بالنسيب ، ومن هذا الشعر قصيدته التى بعث بها إلى الداعى حين قبض على أخيه باليمن يستعطفه على أخيه الرشيد ، فأطلقه ، وهى (٣) :

---

١) فوات الوفيات ، لابن شاكر ١ / ٣٥٨ محى الدين ، طبعة مصر ١٩٥٢ م .

٢) وفيات الأعيان ، لابن خلكان ١ / ١٣٩ .

٣) انظرها فى فوات الوفيات لابن شاكر ١ / ٢٤٦ .

يا ربع أين ترى الأحبة أعموا * هل أنجدوا من بعدنا أو أتهموا

وللمهذب شعر رصين اللفظ، قوى الأسلوب، متماسك السبك، والشاعر - وعلى وجه الخصوص فى مدائحه - يحاول أن يسمو إلى نمط مدائح شاعرى العربية أبى تمام والمتنبى، وإن أردت الوقوف على ذلك فانظـــر إلى قصيدته اللامية الرصينة والتى مطلعها :

أقصر فديتك عن لومى وعن عذلى * أو لا فخذ لى أمانا من يد المقل

ويقول منها :

وقد وقفت على الأطلال أحسبها * جسمى الذى بعد بعد الظاعنين بلى

أبكى على الرسم فى رسم الديار فهل * عجبت من طلل يبكى عـــلى طلل

وكل بيضـــاء لو مست أناملها * قميص يوسف يوما قد من قبل

يغنى عن الدر والياقوت مبسمها * لحسنها فلها حـــلى من العطـل

وله من الأبيات القوية التى يمدح فيها ابن رزيك(١) :

هو الحسام الذى يسمو بحامله * زهوا فيغنك بالأسياف والدول

إذا بدا عاريا من غمده خلعت * غمد الدماء عليـــه هامة البطل

وإن تقلد بحـــرا من أنامله * رأيت كيف اقتران الرزق بالأجل

من السيوف التى لاحت بوارقها * فى أنمل هى سحب العارض الهطل

فجاءنا لبنى رزيك معجزها * بآية لم تكن فى الأعصر الأول

ويذهب هذا المذهب الشاعر عمارة اليمنى، وكم نهج نهج الشاعرين : أبى تمام والمتنبى. ومن شعره الرصين القوى الأسلوب قوله يمدح صلاح الدين لمهاجته

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى، الدكتور محمد زغلول سلام ص ٣٢١.

قرات الغزو الفرنجى بعسقلان (١) :

وأخربت من أعمالهم كل عامر * يمر به طيف الخيال فيفرق

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الخليل فأبشر أنت غاز موفق

وهيجت للبيت المقدس لوعة * يطول بها منه إليك التشوق

تنشق من ملقاك أعظم نفحة

تطيب على قلب الهدى حين تنشق

وغزوك هذا سلم نحو فتحه * قريبا وإلا وائد ومطرق

ذلك هو الاتجاه التقليدى ، وهؤلاء هم شعراؤه ، فهم ينهجون فى نظمهم للشعر نهج الاتجاه القديم ، وهذا الاتجاه الذى التزم به أولئك الشعراء كثيرا مايغلب عليهم وبخاصة فى الموضوعات الجليلة التى تحتاج إلى القوة فى التعبير لملاءمة قوة الموضوع ، كوصف المعارك ، ومدح الأبطال ، ووصف الأحداث العظيمة ، أو الشعر الدينى .

وقد لايقتصر التأثر بالقدماء على التقليد فحسب ، ولكنه تعدى التقليد فى الصياغة والأساليب إلى التأثر المباشر ، أى الاعتماد على المعانى والصور والتشبيهات ، وكثيرا مايحدث هذا فى قصائد الشعراء التى يعارضون بها نماذج قديمة مشهورة ، على أن أشهر الشعراء الذين عارضهم شعراء العصر هم أبو تمام والبحترى والمتنبى .

ومن بين من عارض أبا تمام من شعراء العصر الشاعر العماد الأصبهانى ، فقد عارضه فى كثير من قصائده ، وله قصيدة فى شيركوه مطلعها :

---

١) المصدر السابق ص ٢٥٩ .

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب * كم راحة جنيت من دوحة التعب

وهى معارضة لبائية أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب

غير أن التأثير بالقدماء فى هذا العصر قد لا يقتصر على التقليد والمعارضة بل إن هناك من الشعراء من كان يضمن قصائده بشعر قديم ، وقد كثر هذا النوع كثرة وافرة ، حتى إنك لتجد قصائد طـــويلة مضمنة بشعر لزهير ، وامرىء القيس ، والنابغة ، وغيرهم من الشعراء الجاهليين ، أو بشعر أبى تمام والبحترى والمتنبى وغـيرهم من الشعراء العباسيين ، ولعل هـذا راجع إلى أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا ولوعين بالانكباب على شعر الأقدمين وحفظـــه .

ومن احتذاء ابن القيسرانى لشعر أبى تمام قوله من قصيدة بائية يمجد فيها نور الدين محمود (١) :

هذى العزائم ، لا ماتدعى القضب * وذى المكارم ، لاماقالت الكتب

وهـذه الهمم اللاتى متى خطبت * تعثرت خلفها الأشعار والخطب

مازال جـــدك يبنى كل شاهقة * حتى ابتنى قبة أو تادها الشهب

لله عـــزمك ما أمضى ! وهمك ما * أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب !

وهى قصيدة طويلة تغنى فيها ابن القيسرانى بنور الدين ، وكيف استعاد به الإسلام مافقده من أراضى ، كما ذكر مقتل « برنس » أنطاكية ، وتحدث عن الأمل الذى خلقه نور الدين فى نفوس المسلمين ، وفضلا عن ذلك كله فقد سجل

(١) الروضتين ١ / ٥٨ طبعة مصر ١٢٨٨ هـ .

الشاعر سياسة نور الدين التي كان ينتهجها في توحيد كلمة المسلمين .

وأما صور الشعر وخيالاته فلا شك أنها قد ظلت عند هؤلاء الشعراء على ما كانت عليه في الشعر القديم ، فهي صور قصيرة متتابعة ، ليست كصور ابن الرومي الذي يستخدم الصور الطويلة مستعينا في ذلك بكل إمكانيات اللغة من ألفاظ ومعان ، وقد برزت تلك الصور في شعر شعراء مصر والشام . هذا إلى جانب خفة الشعر ولطافة روحه في مصر على وجه الخصوص .

ولننظر إلى التشبيهات المتتابعة في قول ابن منير الطرابلسي (١) :

خلوت بمن أهواه بعد تفرق
بأرض إلى صوب الندى أن يصوبها

فكان عويلي رعدها وابتسامه
وميضا وأهواء القلوب جنوبها

وجاد غمام من دموعي لروضها
فضوع أنفاس الخزامى وطيبها

وقرب مني الدهر حبا رجوته * وأبعدت الأيام عني رقيبها

والشاعران ابن عنين وابن الساعاتي ، يشبهان في شعرهما شعر الشاعر العربي أبي الطيب المتنبي في تمرده على الزمن والناس ، وفي طلبه المعالي دائما وفي الارتحال من بلد إلى بلد سعيا وراء المجد والأمل الذي ينشده ويبحث عنه .

---

(١) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، للحلبي ٤ / ٢٤٦ المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٢ ﻫ إلى سنة ١٣٤٥ ﻫ .

يقول ابن عنين (١) :

ولا بد أن أسمى لأفضل رتبة * وأحمى عن عينى لذيذ منامى

ويقول ابن الساعاتى (٢) :

ماسرت عن جلق أبغى البديل بها * لولا طلابى محلا للعلا قـــذفا

طول المقام لأهل الفضل منقصة * والمسك لولا النوى ما أدرك الشرفا

لو لم تجرد سيوف الهند مارهبت * والدر ماجل حتى فارق الصدفا

فروح شاعرنا المتنبى تبدو واضحة فى بيت ابن عنين وفى أبيات ابن الساعاتى على السواء ، فالروح طامحة ، متطلعة إلى المجد ، تسعى إلى المال ، كما تسعى إلى أهداف أخرى بعيدة . ومع هذا التشابه فإن علينا أن نقول إن روح المتنبى كانت أقوى طموحا وتطلعا وسموا من روح الشاعرين ابن عنين وابن الساعاتى .

ومهما يكن من شيء فإننا نقول إن شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية قد حافظ إلى حد كبير على تقاليد الشعر العربى الموروثة ، فمعظم ما ورد من ذلك الشعر فى الموضوعات التى ذكرناها قد صب فى قوالب الشعر القديم ، ومن ينظر إلى الشعر الذى قيل فى مدح أبطال الحروب الصليبية يجده صورة من مدائح الرشيد أو المعتصم أو سيف الدولة ، حين كانوا يخرجون لحــرب الروم ، مع ما بين هذه المواقف من خلاف ، حيث كانت حروب الرشيد والمعتصم وسيف الدولة تدور خارج أو على حدود بلاد العرب ، وكان الجنود هم الذين يقومون بالمعــارك ، أما فى عصر الحروب الصليبية فالحرب كانت

---

١) الأدب فى العصر الأيوبى ، الدكتور محمد زغلول سلام ص ٣٠٠ .

٢) المصدر السابق ص ٣٠٣ .

تكتسح البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكان يكتوى بنارها الشباب والشيوخ والأطفال والنساء ، وقد خرج الشعراء يدعون إلى الفـــداء وبذل النفس رخيصة فى سبيل الحياة الكريمة ، ومواجهة التحديات مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك .

والحقيقة أن شعر الجهاد يحكى بوضوح قصة متصلة الحلقات بين المسلمين وبين أعاديهم ، وكان موضوع هذه القصة منصبا على حروب المسلمين وتحديهم لخصومهم ، ودعوتهم إلى الفداء والتضحية ، وهذه فى مجموعها تصلح لأن تكون مادة للفن القصصى .

وإذا كانت الملحمـــة قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التى تبوئهم منزلة الخلود بين بنى وطنهم (١) ، وإذا كان كل شعر - طال أو قصر - وقد وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ، ورويت فيه ملاحمات الجيـــاد هو من شعر الملاحم (٢) ، فإنه كان ينبغى أن تكون هناك ملحمة بطولية رائعة تتمثل فى شعر الجهاد الذى صور أهوال الحروب الصليبية وفتكاتها ، وتغنى بالبطولة والأبطال ، وإننا لنعجب ويزداد عجبنا حين نرى الزحف الصليبى بعدته وعتاده . وأن هـذا الزحف لم يستطع أن يفك الشعر فى عصر الحروب الصليبية من إسار الشعر العربى ، ويوحى لناظميه بنوع من الملاحم تتناسب فى خيالها ومفاجآتها مع ضخامة تلك الحروب وأهوالها .

---

١) النقد الأدبى ، الدكتور محمد غنيمى هلال ، هامش ص ٨٩ .

٢) شعر الحرب فى أدب العرب ، د/ زكى المحاسنى ص٢٩ الطبعة الثانية ١٩٧٠م

والحقيقة أننا إذا تلمسنا الجوانب الفنية الملحمة فى شعر الجهاد فى العصر الصليبى ، فإننا نقول بكل صراحة إننا لانبتغى فى شعر الجهاد ما نبتغى فى الملحمة التى تبرز فيها مواقف رئيسية تنسلخ منها مواقف أخرى فرعية ، وتتسع فيها الأحداث ، وتفصل ، ويتجلى فيها الحوار القصصى ، ويكثر فيها الشخوص ، بل نبتغى ما نجده فى القصص القصير من إيجاز فى تصوير الأحداث ، وصياغة فخمه تتناسب مع جلال الملاحم والحديث عن البطولة والأبطال ، هذا إلى ما فى أشعار شعراء الجهاد من روح جماعية تشيد بالمسلمين وآمالهم ، وما يتسم به قوادهم من حسن بلاء وقوة احتمال .

وتاريخ الجهاد الصليبى الحافل كان جديرا بأن يحمل الشعراء على تسجيله وتصويره ، وكان يمكن للشعراء أن ينظموا فيـــه ملحمة عظيمة كالإلياذة والشاهنامة ، فتجمع تاريخ المسلمين فى العصر الصليبى ، وتخلد أمجادهم فى السلم والحرب ، وتكون هذه الملحمة كتاب فخر لهم ، وقدوة لحماستهم ، ولكننا لدى استعراضنا لما خلفه الشعراء وجدناه على صورة مقطوعات قصيرة ، ولم يشذ عن ذلك إلا قلة من الشعراء ، ومع ذلك فقد خرجت قصائدهم الطويلة تتميز بدقة الوصف وتكرار المعانى ، وتقليد السابقين ، ومجاراة المعاصرين ، وعدم القدرة على الانفلات من تقاليد الشعر العربى الموروثة .

وأحسب أن شعراء العصر الصليبى لو خلصوا إلى حروب العصر فوصفوا وقعاتها ، وسكبوا خيالاتهم الرائعة فى هـــذا الوصف ، ولم يكتفوا بأبيات يبثونها بين شعر المدح والفخر والهجاء ، لخلدوا فروسية الأبطال الذين أنبتهم العصر الصليبى ، لما روى عن خوارق بطولاتهم ، وروائع شجاعتهم وإقدامهم

فى الحرب والجود بأنفسهم .

وأغلب الظن أن هؤلاء الشعراء كانوا مسوقين لهذا الشعر بدافع من الروح الاسلامية (١) ، فهم يودون الدفاع عن الاسلام فى عصرهم الذى كانت أيامه سلسلة متصلة من المواقف العصيبة والمخاطر الشديدة ، ولعل ذلك هو السبب فى خلق التشابه والتكرار فى شعرهم ، فأكثر ماعبر عنه شعراء الجهاد محدود مشترك بينهم جميعاً ، فهم يتغنون بعاطفة واحدة وينزعون إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه ، وهو دفاعهم عن الدين الاسلامى ، فالمشرب الذى شربوا جميعاً منه واحد ، وعليه فلا عجب فى عدم تباين شخصياتهم ، فقد كانوا على قوة المشابهة لدرجة تجعل شعرهم وكأنه صورة متعددة لنمط واحد .

٣) شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية بين التأثر والتأثير :

الحقيقة أن شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية قد تأثر بشعر الجهاد الذى كان قبله ، كما كان له أثر كبير فى شعر الجهاد الذى جاء بعده .

فالشايع المرجح أن شعراء الجهاد فى هذا العصر قد اطلعوا على آثار الشعراء السابقين أو على كثير من تلك الاثار على أقل تقدير ، يؤكد ذلك أن هناك قصائد تذكرنا بأفكارها ومعانيها بقصائد لأبى تمام وأبى فراس والمتنبى .

ويحكى التاريخ أن سيف الدولة الحمدانى قد غزا الروم عام ٣٣٩ ﻫ فانتصر فى بادىء الأمر ، ثم تحــول النصر إلى هزيمة ، ووقتها وقف المتنبى فأنشد قصيدة يقول فيها (٢) :

---

١) انظر الأدب الصوفى فى القرن السابع الهجرى للدكتور على صافى حسين.

٢) ديوان أبى الطيب ص ٢٣٧ طبعة هندية بمصر عام ١٣٢٣ ﻫ .

قل للدمستق إن المسلمين لكم * خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا

وجدتموهم نياما فى دمائكم * كأن قتلاكم إياهم فجعوا

ضعفى تعف الأيادى عن مثالهم * من الأعادى وإن هموا بهم نزعوا

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق * فليس يأكل إلا الميتة الضبع

هلا على عقب الوادى وقد طلعت * أسد تمر فرادى ليس تجتمع

تشقكم بقناها كل سلهبة * والضرب يأخذ منكم فوق مايدع

وإنما عرض الله الجنود لكم * لكى يكونوا بلا فسل إذا رجعوا

فكل غزو إليكم بعد ذا فله * وكل غاز لسيف الدولة التبع

فالمتنبى يعلل لهزيمة سيف الدولة تعليلا جيدا ، كما أنه يقلل من انتصار العدو ، لأنه انتصار على قوم ضعاف كالموتى ، ولا يأكل من الميتة إلا ضعاف الوحوش كالضبع .

وقد تأثر شعراء الجهاد فى العصر الصليبى بقصائد المتنبى فى الاعتذار عن المنهزمين ، وكان تأثرهم تأثر المبتكر الحصيف ، ذلك لأنهم أتوا بتعليلات جديدة ، وأضافوا إلى المعنى أفكاراً جيدة ، فهذا هو أبو الفرج بن سعد الموصلى المتوفى عام ٥٨١ هـ ، يتأثر بأبيات المتنبى السابقة ، وينشد نور الدين محمودا قصيدة ويعلل فيها لهزيمته فيقول :

بنى الأصافر ما نلتم بمكركم * والمكر فى كل إنسان أخو الفشل

وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم * غير الأراذل والأتباع والسفل

سلبتم الجرد معراة بلا لجم * والسمر مركوزة والبيض فى الخلل

هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها * مثل آخذها فى الشكل والطول

أم سالب الرمح مركوزا كسالبه * والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما * يخلو من العين إلا غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم * خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه * البيض كالبيض والأدراع كالحلل

ويهزم صلاح الدين فى الرملة عام ٥٧٣ هـ فيقف ابن سعدان الحلبي ويجعل هذه الهزيمة مقدمة للانتصارات المتعاقبة ، فيقول :

قل للفرنجية الخذلى رويدكم * بالثأر أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الغوار طالعة * خوارق الأرض تمحو رونق الأصل
حسب العدا ياصلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس
مرت على أصبعيه لذة العسل

وينظم المتنبي قصيدة فى انتصار سيف الدولة على الروم عام ٣٤٣ هـ مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم * وتأتى على قدر الكرام المكارم

وفيها يقول المتنبي فى وصف جيش العدو وكثرته (١) :

أتوك يجرون الحديد كأنما * سروا بجياد مالهن قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم * ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منه زمازم

---

(١) ديوانه ٢/٢٩٠ .

تجمع فيه كل لسن وأمة • فما يفهم الحداث إلا التراجم

وينظم ابن رزيك قصيدة إلى نور الدين يصف فيها خروج جيش مصر عام ٥٥٣ هـ فيبدو تأثره فيها بقصيدة المتنبي. يقول :

ألا هكذا في الله تمضى العزائم • وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارم

وواجهم جيش الفرنج بحملة • يهون على الشجعان منها الهزائم

فلقوهم زرق الأسنة وأنطوا • عليهم فلم ينجم من الكفر ناجم

وما زالت الحروب العوان أشدها • إذا ما تلاقى العسكر المتصادم

ففى أبيات الشاعر وصف لكثرة جيش العدو ، ووصف للسيوف ولا يخفى تأثر ابن رزيك بالمتنبي فى المعنى ، هذا إلى جانب تأثره بالوزن والقافية كما هو واضح .

على أننا نجد التأثر واضحا فى وصف المدن بالحصانة والمناعة ، مما يذكرنا بأبيات أبى تمام فى فتح عمورية . هذا فضلا عن تأثر كثير من شعراء العصر الصليبي بمن سبقهم من الشعراء فى الصياغة والأسلوب والمعانى والأفكار (١).

وغير خاف أيضا أن شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية قد أثر فى الشعراء اللاحقين ، فأبيات الشاعر أحمد شوقى التى خاطب بها مدينة أدرنة حين استولى عليها البلغار عام ١٩١٢ م والتى منها (٢) :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة • فى العالمين وعصمة وسلام

---

١) يمكنك الوقوف على مزيد من ذلك إذا راجعت كلامنا عن « الاتجاه التقليدى » فى هذا الكتاب .

٢) الشوقيات ١ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، مطابع دار الكتاب العربى فى بيروت .

البغى فى دين الجميـــع دنية * والسلم عهـــد والقتال زمام
واليوم يهتف بالصليب عصائب * هم للإله وروحه ظـــلام
خلطوا صليبك والخناجر والمدى * كل أداة للأذى وحـــمام
أو ماتراهم ذبحوا جيرانهم * بين البيوت كأنهم أغنـــام
وصبية هتكت خميلة طهرها * وتناثرت عن نوره الأكمام
وأخى ثمانين استبيح وقاره * لم يغن عنه الضعف والأعوام
وجريح حرب ظامىء وأدوه لم * يطعمهم جـــرح دم وأوام
ومهاجرين تنكرت أوطانهم * ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
السيف إن ركبوا الفرار سبيلهم * والنطع إن طلبوا القرار مقام

.. مع مافيها من سمو فى المعنى والصياغة والتعبير ، تذكرنا بقول شاعر الجهاد (١) :

أحل الكفر بالإسلام ضيما * يطول عليه للدين النحيبا
فحـــق ضائع وحمى مباح * وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا * ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا * على محرابه نصب الصليب
أتسبى المسلمات بكل ثغـــر * وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حـــق * يدافع عنه شبان وشيب ؟

---

١) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ .

الخاتمـــــة

لقد حاولت فى هذه الدراسة الموجزة أن أبرز شعر الجهاد الذى واكب الحروب الصليبية وعاش أكثر مراحلها ، واستمر فى تحريض المسلمين على الجهاد وقتال الغزاة الصليبيين وإذكاء الحمية فى نفوسهم ، كى يوحـــدوا قواهم ويطهروا بلادهم نهائياً من المحتلين الصليبين .

وشعراء الدراسة هم شعراء الجهاد ، وهم طائفــة تجمعهم وحدة الظروف والأحوال ، وموضوع الدراسة بفصوله المختلفة هو « شعر الجهـاد فى عصر الحروب الصليبية » من حيث بيان مدى تأثير أحـــداث الحروب الصليبيه بشعراء العصر فى شعر الجهاد ، وتصوير هذا الشعر لهذه الظروف والأحوال وتعبيره عنها فى قصائد تعد فى جملتها من الشعر الحماسى الذى يبعث الهمم ويدعو إلى الجهاد والقتـال .

أما عن المعالم البارزة فى هذه الدراسة فلا شك أنها كانت السبب فى اختيارى لهذا الموضوع ، وإن كنت لم أزعم أنى قد أحطت بجميعها علما ، وأنى سددت منها كل ثغرة ، فليس يضير الباحث ألا يبلغ جهده درجة الكمال ، وإنما الذى يضيره أن يكون قد قصر عن الوصول إلى أهداف وغايات كان يمكنه بلوغها .

وهذه هى أهم المعالم البارزة التى هدى إليها البحث :

١ - إن شعر الجهـاد الذى شهده عصر الحروب الصليبية يتسم بأنه وليد مواقف وصراعات حقيقية وقعت بالفعل . فشعراء الجهـاد الذين تغنوا بهـذا الشعر قد شاركوا فى الحروب من جانب ، ودعوا إلى الجهـاد وإلى إيقـاظ

الأمة الإسلامية من جانب آخر ، وكان من نتائج ذلك ماعرف بشعر الحروب الصليبية ، وهو شعر ملتزم مؤثر ، ويعتبر فى جملته من الشعر الحماسى الذى يثير الهمم ، ويبعث الحمية فى النفوس ، ويدعو إلى مواصلة الجهاد والقتال ورفع الروح المعنوية للمقاتلين .

٢ - شعر الجهاد يعد تتمة طبيعية لصراعات العصر الصليبى ، فالحروب التى شهدها العصر ، وما تهيأ لهذه الحياة الجديدة من أسباب وظروف سمحت بنشأة مثل هذ اللون من الشعر ، بل كانت عاملا قوياً فى اتساع آفاقه وتعدد مناحيه . ولا شك أن لشعر الجهاد صلة وثيقة بالتاريخ ، حتى إنك لم تكد تجد شاعرا من شعراء العصر لم تكن القصيدة من قصائده تتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ ، وتمسه من قريب أو بعيد .

٣ - لعل الدعوة إلى الجهاد هى لب الشعر فى عصر الحروب الصليبية ، وهى المنطلق الذى اتخذه الشعراء بابا لكل المعانى والأفكار التى عالجوها فى شعرهم ، وقد قام الشعر بدور فعال فى الدعوة الى الجهـــاد ، وتمثلت هذه الدعوة فى مظاهر مختلفة منها : التذكير بحروب المسلمين السالفة الذكر ، وكذلك فى مدح القادة العظام ، وفى تثبيت المجاهدين ودعوتهم الى الاستبسال فى القتال ، وفى حث الذين لم يشاركوا على اغتنام الفرصة والمشاركة فى الجهـــاد .

٤ - يعد شعر الجهـــاد من أهم الأغراض التى يمكن أن نلمس منها المقومات الشخصية لشعراء العصر الصليبى ، وهذا الشعر يعد الصدى الأدبى الأول لحروب المسلمين المتواصلة إن نصراً أو هزيمة .

٥ - إنه وإن كانت هناك أغراض أخـــرى للشعر فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الأغراض العامة التى تكون فى كل عصر : كالوصف والمدح والهجاء ، والإخوانيات ، وما إلى ذلك ، فإنه يلاحظ أن هذه الأغراض وإن كانت بعيدة عن الحروب الصليبية والصراع بين المسلمين والصليبيين ، إلا أنها قد تأثرت بالجو العام الذى كانت تعيش فيـــه البلاد الإسلامية زمن الحروب الصليبية .

٦ - شعر الجهاد يعد سجلا حافلا للأحداث السياسية والعسكرية التى مرت بالأمة الإسلامية إبان العصر الصليبى ، ففى هـذا الشعر حديث مفصل عن النكبات وعن الانتصارات ، ولهذا فهو يعد مرجعاً تاريخيا مهما لدراسة العصر ومن مجموعه يمكننا أن نرتب ملحمة شعرية خالدة تصور هـذا العصر بكل دقة وجلاء .

٧ - برزت فى شعر الجهاد بعض السمات العامة التى تميزه عن غيره ، ونحن نرى أن هذه السمات إنما هى ناتجة عن الحروب الصليبية ، وأنها لازمـــة من لوازم الصراع الذى كان بين المسلمين وأعدائهم .

٨ - والنتيجة المنطقية لكل ماسبق أن نرى ما كان عليه شعراء الجهاد من أصالة وشاعرية صادقة ، فقد صوروا واقعهم الذى يعيشونه ، ومثلوا حياتهم المتميزة ولم يتجاوزوها .

.. وبعد فإنى لآمل أن أكون قد وفقت فى بعض ما إليه قصدت ، والله الموفق وهو الهـادى إلى سواء السبيل ؟

أهم المصادر والمراجع

* أثر المدينة الإسلامية فى الحضارة الغربية ، للدكتور مختار القاضى ، طبع الأهرام ، ونشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر ١٩٧٢ م .

* أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، الدكتور عمر موسى باشا . طبع دار الفكر الحديث ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .

* الأدب الصوفى فى القرن السابع الهجرى ، الدكتور على صافى حسين، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

• الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، الأستاذ محمود مصطفى ، نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

* الأدب فى العصر الايوبى ، للدكتور محمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م.

• الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية ، للدكتور عبد اللطيف حمزة ، سلسلة الألف كتاب (٢٤٢) .

• إرشاد الأديب لمعرفة الأديب ، معجم الأدباء ، : لياقوت الحموى . نشر الدكتور فريد الرفاعى عام ١٩٣٦ م .

• أسامة بن منقذ ، للدكتور أحمد كمال زكى (سلسلة أعلام العرب ، ٧٩ ، دار الكاتب العربى بمصر ١٩٦٨ م) .

• أصول النقد الأدبى : أحمد الشايب . النهضة المصرية الطبعة الثامنة .

• أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : لمحمد راغب الحلبي :
- الجزء الرابع . المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٢ هـ إلى سنة ١٣٤٥ هـ .
• أيام صلاح الدين ، الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
• بدائع البدائه : للأزدي . مطبعة بولاق ١٢٧٨ هـ .
• البداية والنهاية : لابن كثير :
- الجزء الثاني عشر : مكتبة النصر بالرياض ، ومكتبة المعارف بيروت .
• بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي . م السعادة ١٩٢٦ م .
• التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية : للدكتور أحمد شلبي :
- الجزء الخامس . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م
• تاريخ الحروب الصليبية : تأليف ستيفن رنسيمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني :
- الجزء الثالث . مطبعة النجوى . بيروت ، الطبعة الأولى ونشر دار الثقافة ١٩٦٧ .
• تاريخ الشعر العربي ، الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي :
- الجزء الثالث : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .
• تاريخ العرب (مطول) : فيليب حتي وآخرون :
- الجزء الثاني ، مطابع الغندور ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٥ م .
• التجديد في الأدب المصري الحديث : الدكتور عبد الوهاب حمودة . دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى .

* ثمرات الأوراق : لابن حجة الحموى : طبعة مصر ١٣٠٠ هـ .
• الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :
ـ الجزء الأول ، والجزء الثانى مطبعة الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة .
• الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب : تأليف محمد العروسى المطوى .
نشر دار الكتب الشرقية بتونس ، الطبعة الأول ١٣٧٤ هـ .
• الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، محمد سيد كيلانى . مطبعة دار الكتاب العربى ١٩٤٩ م .
• الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى : للدكتور محمد بن على الهرفى (النادى الأدبى بالرياض) كتاب الشهر ، العدد (١٥) مطابع الفرزدق التجارية بالرياض ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .
• الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : للدكتور أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .
* الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، للدكتور أحمد أحمد بدوى ، مكتبة نهضة مصر .
• خريدة القصر وجريدة أهل العصر : للعماد الاصفهانى :
ـ قسم شعراء مصر ، تحقيق أحمد أمين وزميليه . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ م .
ـ وقسم شعراء الشام ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل ، الجزء الأول ، المطبعة الهاشمية بدمشق ، الطبعة الأولى ، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

* خزانة الأدب : تأليف ابن حجة الحموى . طبعة مصر ١٣٩٤ هـ .
* خطط المقريزى :
- الأجزاء : ٢ ، ٤ ، ٥
* ديوان ابن الخياط : تحقيق خليل مردم . طبعة المطبعة الهاشمية بدمشق ، ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .
* ديوان ابن الساعاتى : تحقيق أنيس المقدسى :
- الجزء الثانى . المطبعة الأمريكانية ١٩٣٨ م .
* ديوان ابن سبط التعاويذى : تحقيق مرجليوث . مطبعة المقتطف بمصر .
* ديوان ابن عنين : تحقيق خليل مردم . مطبعة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .
* ديوان ابن مطروح ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ .
* ديوان ابن النبيه : تحقيق عبد الله فكرى ، مطبعة عبد الغنى فكرى ١٢٠ هـ
* ديوان أبى تمام : شرح التبريزى ، تحقيق محمد عزام :
- الجزء الأول . مطبعة بيروت .
* ديوان الأبيوردى (أبو المظفر) : تحقيق الدكتور عمر الأسعد :
- الجزء الأول . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م
- الجزء الثانى ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .
* ديوان أسامة بن منقذ : تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوى وحامد عبد الحميد طبع المطبعة الأميرية بمصر ، ونشر وزارة المعارف العمومية بمصر ١٩٥٣ م .
* ديوان البهاء زهير . طبعة مصر ١٢٩٧ هـ .

* ديوان البوصيرى ، تحقيق الاستاذ محمد سيد كيلانى ، طبع مصطفى البابى الحلبى عام ١٩٧٣ م .

* ديوان القاضى الفاضل : تحقيق وشرح وتقديم الدكتور أحمد أحمد بدوى .

* ديوان المتنبى (شرح العكبرى) نشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٧ هـ ١٩٨٧م وطبعة أخرى هندية بمصر عام ١٣٢٣ هـ .

* ذيل تاريخ دمشق : لأبى يعلى القلانسى ، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت .

* ذيل الروضتين ، لعبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، أبى شامة ، الطبعة الأولى ١٩٤٧ م .

* رحـــلة ابن جبير : لمحمد بن أحمد بن جبير الكنانى ، دار صادر بيروت ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

* الروضتين : تأليف شهاب الدين المقدسى المعروف بأبى شامة :

- الجزء الأول ، مطبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ ومطبعة مصر عام ١٢٨٨ هـ . ودار الجيل بيروت بدون تاريخ .

- الجزء الثانى ، مطبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

* السلوك لمعرفة دول الملوك : لأحمد بن على المقريزى : تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .

- الجزء الأول ، طبعة القاهرة ١٩٣١ م .

* شذرات الذهب : للحنبلى :

- الجزء الرابع . طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـ .

* الشرق الأوسط والحروب الصليبية : تأليف السيد الباز العرينى :

- الجزء الأول . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، نشر النهضة المصرية .
* شعر الحرب فى أدب العرب ، الدكتور زكى المحاسنى . دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٠ .
* الشوقيات ، أحمد شوقى :
- الجزء الأول . دار الكتاب العربى بيروت .
* صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ، الدكتور أحمد أحمـــد بدوى (المكتبة الثقافية « ٢٣ » وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٠ م) .
* الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد : لكمال الدين ابن جعفر بن ثعلب الأدفوى . المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٢ هـ .
* الظاهر بيبرس : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (سلسلة أعلام العرب) رقم ١٤ بدون تاريخ .
* عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، الدكتور محمود رزق سليم (المجلد السادس ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٢ م) .
* العمدة : لابن رشيق : تحقيق محى الدين :
- الجزء الثانى ، دار الجيل للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الرابعة) .
* الفاطميون فى مصر : الدكتور حسن ابراهيم حسن ، المطبعة الأميرية .
* فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، الدكتور مصطفى الشكعة ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية طبعة عام ١٩٧٨ هـ ١٩٥٨ م .
* فوات الوفيات : لابن شاكر :
- الجزء الأول ، محى الدين ، طبعة مصر ١٩٥٢ م .

- الجزء الثانى ، مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .
* قصة الحضارة : تأليف ول ديوارنت ، ترجمة محمد بدران :
- الجزء الرابع ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، نشر جامعة الدول العربية ١٩٥٧ م .
* الكامل فى التاريخ لابن الأثير :
- الجزء الأول دار صادر ودار بيروت ١٩٦٦ م .
- الجزء العاشر : نشر دار صادر ودار بيروت ١٩٦٦ م .
- الجزء الحادى عشر ، الطبعة الأولى ١٣٠١ هـ .
* لباب الآداب : لأسامة بن منقذ ، طبعة مصر ١٩٣٠ هـ .
* المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، طبعة مصر ١٢١٣ هـ .
* مجلة العربى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ .
* مختارات من ديوان عمارة اليمنى ، طبعة مدينة شالون ١٨٩٧ م .
* المختصر فى أخبار البشر : لأبى الفداء :
- الجز الثالث : المطبعة الحسينية بمصر ، الطبعة الأولى .
* مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان : لشمس الدين يوسف سبط بن الجوزى :
- الجزء الثامن (قسم ١) مطبعة حيدر أباد ، الطبعة الأولى ، ونشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٧٠ هـ .
* مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى : تأليف د/ على إبراهيم حسن ، مطبعة الاعتماد بمصر ، ونشر مكتبة النهضة المصرية .
* مضمار الحقائق وسر الخلائق : لمحمد بن تقى الدين الأيوبى ، تحقيق

الدكتور حسن حبشي ، مطبعة دار الهنا بمصر ، الطبعة الأولى ، ونشر عالم الكتب بدون تاريخ .
* مقدمات المدوان الصليبي ، الدكتور عمر كال توفيق ، الاسكندرية ١٩٦٦ م
• النجوم الزاهرة : لابن تغرى بردى :
- الجزء الخامس ، طبعة مصر ١٣٣٥ هـ ١٩٥٣ م .
- الجزء السادس ، طبعة مصر ١٣٣٥ هـ ١٩٥٣ م . وطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومى بمصر بدون تاريخ .
- الجزء السابع ، طبعة مصر ١٣٣٥ هـ ١٩٥٣ م .
- الجز الثامن « « « «
* النقد الأدبي : أحمد أمين :
- الجزء الأول ، طبعة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة .
* النقد الأدبي : الدكتور محمد غنيمى هلال . دار النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م .
* النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية : لعمارة اليمنى . طبعة مدينة شالون ١٨٩٧ م .
• نهاية الأرب : للنويرى :
- الجزء التاسع والعشرون ، طبعة دار الكتب المصرية .
• نور الدين محمود : للدكتور حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر بمصر الطبعة الأولى ١٩٥٩ م .
• وفيات الأعيان : لابن خلكان :
- الجزء الثانى ، المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ وطبعة محى الدين ، مصر ، ١٩٥٢م وتحقيق الدكتور إحسان عباس ، طبعة مطبعة الغريب ، بيروت .
- والأجزاء : ٣ ، ٤ ، ٥ . طبعة محى الدين ، مصر ١٩٥٢ م .

فهرس الموضوعات

تم ولله الحمـــد ؟

رقم الإيداع فى دار الكتب المصرية

١٩٩٠/٨٥٣٣

مطبعة ومكتبة الرضا بطلخا
عبد العال البدراوى محمد
ش الجمهورية ت ٣٢٦٥٦٢